813
W553eA

A.U.B. LIBRARY

تجليد مكتب
صـ الدقر

813
W553eA

ضريبة الحب
و
عزاء عابر

تأليف

اديث هوارتون
Edith Wharton

اخبار اليوم
١٩٥٤

نشر بالاشتراك مع مؤسسة
فرانكلين للطباعة والنشر
بالقاهرة ونيويورك

هذه الترجمة مرخص بها
وقد قامت مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بشراء
حقوق الترجمة من صاحب هذا الحق وتنازلت عنها لدار
« أخبار اليوم »

This is a translation of Ethan From by Edith Wharton, copyright 1911 by Charles Scribner's Sons, and of "Old Maid" by the same author.

ضريبة الحب

عرفت القصة ، قطعة قطعة ،من أناس مختلفين ، وكانت القصة فى كل مرة مختلفة ، كما يحدث عادة فى مثل هذه الاحوال

اذا كنت تعرف قرية ستار كفيلد بولاية ماساتشوستس فانك تعرف مكتب البريد . واذا عرفت مكتب البريد ، فلابد أنك شهدت ايتام فروم يسوق مركبته صاعدا اليه ، ويلقى العنان الى ظهر جواده الاسمر البادى العظام ، ثم يمشى وئيدا فى الطريق المرصوف بالطوب الى المدخل ذى الاعمدة البيضاء ، وحينئذ تراك تتساءل من هذا الرجل ؟

هنالك رأيته لاول مرة منذ عدة سنوات ، واسترعت رؤيته نظرى . فقد كان حتى فى تلك الايام أكثر رجال ستار كفيلد استرعاء للانظار ، ولو أنه كان عندئذ حطام رجل من الرجال ولم يكن ذلك بسبب طول قامته التى تلفت النظر ، اذ أن أهل البلاد الاصليين يتميزون بقامتهم الطويلة النحيلة عن المتوطنين من الاجانب القصار القامة الاشداء. وانما كانت تميزه نظرته القوية فى غير اكتراث بالرغم من عرج يعوق كل خطوة من خطواته كالغل ، وكان فى وجهه شىء من الجفوة لا يشجع على الاقتراب منه ، وقد جف عوده ووخطه الشيب ، حتى خلته كهلا ، ودهشت حين علمت انه لم يجاوز الاثنتين والخمسين من عمره علمت ذلك من هارمون جوالذى كان يقود عربة النقل من بتسبريدج الى ستار كفيلد قبل ايام عربة الترام . وانه ليعلم تاريخ جميع الاسر التى كان يمر ببيوتها فى طريقه

قال هارمون فى ثنايا فترات يجمع فيها ذكرياته : « ان هذا منظره منذ حادث الاصطدام الذى وقع له . ويمر على هذا الحادث أربع وعشرون سنة فى فبراير القادم »

وأنبأنى هذا المنبىء نفسه ـ ان حادث الاصطدام هو الذى أصابه بذلك الشج الاحمر الذى يمر فوق جبهته ، وهو الذى

عطل فضلا عن ذلك جانبه الايمن وقصره ، حتى صار لا يخطو الخطوات القليلة من مركبته الى نافذة البريد الا بجهد ظاهر . ومن عادته أن يقصد دار البريد فى المركبة من مزرعته حوالى الظهر . وكان هو الوقت المختار لدى لأتسلم مايأتينى من رسائل . فكنت كثيرا ما أراه فى مدخل البريد أو أقف الى جانبه، وهو ينتظر حركة اليد الموزعه من خلف حديد النافذة . ولاحظت أنه على انتظامه فى الحضور فى موعد معين ، قد يصل اليه شىء غير نسخة من جريدة «نسر بتسبريدج» ، فيضع النسخة فى جيب سترته الواسع دون أن يلقى عليها نظرة . وبين فترة واخرى يقدم اليه صاحب البريد مظروفا بعنوان السيدة زينوبيا أو السيدة زينة فروم ، وعلى هذا المظروف من الجهة اليسرى نرى فى مكان بارز عنوان احد صناع الادوية الجاهزة واسم الدواء . ويضع جارى ايضا هذه الاوراق فى جيب سترته دون أن يلقى عليها نظرة ، كأنه قد اعتاد هذه الادوية حتى لم تعد تدهشه كثرتها وتنوعها ثم بعد ذلك يقفل عائدا بعد أن يحيى صاحب البريد برأسه تحية صامتة

كان كل انسان فى قرية ستار كفيل يعرفه ويحييه تحية هادئة، تناسب نظرة الجد البادية عليه، ويحترم الجميع صمته . وقلما يستوقفه أحد كهول القرية ليتبادل معه كلمة ، فاذا ما حدث ذلك كان يصغى فى هدوء وقد ثبت عينيه الزرقاوين على وجه المتكلم . ويجيب فى صوت خفيض حتى أنى لم أسمع قط كلماته . ثم يركب فى صعوبه مركبته ويمسك اللجام فى يده اليسرى ويسير ببطء فى اتجاه مزرعته

سألت هارمون «أكان حادث الاصطدام خطيرا الى هذا الحد؟» سألته هذا السؤال وأنا أنظر الى شخص فروم وهو يبتعد . وأفكر أى منظر فخم كان لرأسه النحيل الكستنى بشعره الرقيق فوق هاتين الكتفين قبل أن ينحنيا فلم يعد لهما شكل

قال منبئى : « من أسوأ الحوادث وكان اصطداما كافيا لقتل أى انسان . ولكن أفراد اسرة فروم فيهم صلابة ومن المحتمل أن يعيش فروم حتى يبلغ المائة»

فصحت « رباه ! » وكان ايتان فروم فى تلك اللحظة قد تسلق المركبة الى مقعده ، ثم انحنى ليتأكد من سلامة صندوق خشبى كتب عليه عنوان صيدلية — وكان قد وضعه فى الجزء

الخلفى من المركبة ورايت وجهه حين يبدو على الغالب عندما لا يراه أحد فقلت لنفسى : « هذا الرجل يبلغ المائة ! انه يبدو كالاموات بل كأنه انتقل الى الجحيم من الآن ! »

وأخرج هارمون قطعة الطباق من جيبه ، واقتطع منها قطعة ، وحشرها فى شدقه الشبيه بمحفظة الجلد ، وقال : « تصور انه يمضى كل شتاء فى ستار كفيلد ، مع أن أكثر الصفوة من أهل القرية يغادرونها ! »

فسألت : « ولماذا لا يغادرها؟ »

قال « لابد عندئذ من شخص يعنى بأهله . ولا يوجد غيره أحد . فقد عنى بأبيه ثم بأمه ثم بزوجته . »

فسألت : « ثم حدث الاصطدام ؟ »

فضحك هارمون فى أسى وقال : « تماما ! واضطر اذن للبقاء »

فقلت : « فهمت ! ومنذ ذلك الحادث هل يعنى به أهله الآن؟ »

ونقل هارمون الطباق الى الشدق الآخر وهو فى تفكير وقال « فيما يتعلق بهذا أظن ان ايتان هو الذى يقوم بالعناية بذويه دائما »

لقد فصل هارمون جو القصة بقدر ما يستطيع عقله ونزعته الخلقية . ولكن تبين لى فى الحال ان هنالك ثغرات فى حديثه ، وأن المعنى العميق للقصة فى هذه الثغرات . بيد أن عبارة واحدة علقت فى ذاكرتى . وصارت المحور الذى تدور حوله تقديراتى ، وهى قوله : « تصور أنه يمضى كل شتاء فى ستار كفيلد . »

***

قبل أن تنتهى مدة اقامتى فى تلك القرية كنت قد فهمت معنى هذا القول . ومع ذلك فقد جئت اليها فى آخر الزمان بعد أن انتشر فيها استعمال الترام والدراجة والتوزيع الريفى ، وصار الاتصال بين القرى المتناثرة فى الجبال ميسورا ، وبعد أن أنشئت فى البلدان التى هى أكبر منها الواقعة فى الوديان ، مثل بتسبريدج وشلالات شادو مكتبات ، مسارح وقاعات لجمعية الشبان المسيحيين يستطيع أن ينزل اليها شبان فى الجبال للترويح عن نفوسهم . ولكن حين أطبق الشتاء على ستار كفيلد . وأصبحت القرية تحت طبقة من الجليد تتجدد دائما من السماء

الباهتـــة ، بدأت أعرف معنى الحياة فى تلك القرية فى عهد شباب ايتان فروم ، أو معنى الموت الذى كان يحيط عندئذ بها

لقد أرسلنى أصحاب العمل فى مهمة متعلقة بانشاء دار للقوة الكهربائية كبيرة فى وصلة كوربرى ، ولكن اضراباً طويلا بين النجارين أخر عمـــلى وألقى رحـالى مدة طويلة فى قرية ستار كفيلد ، وهى أقرب قرية بها سكـــان الى مكان العمل فبقيت بها الجزء الاكبر من الشتاء . وكنت كثير الامتعاض لذلك فى مبدأ الامر ثم اعتـــدت نظام الحيـــاة بها ، فصرت رويدا رويدا أرضى رضاء عابسا عن تلك الحياة . وكنت فى مبدأ اقامتى بتلك القرية ، قد لاحظت التباين بين مافى جو تلك الجهة من حيـــاة ، وما فى معيشة أهلها من موت . ففى يوم اثر يوم ، بعـــد أن انتهى تساقط ثلوج ديسمبر ، كانت سماء زرقاء زاهيه تغمر هـــذا المنظر الابيض بسيول من النور والهواء ، فتزيد من بريقـــه . وكان أغلب الظن ان مثل هذا الجو من شـــأنه أن يسـبب سرعة انفعال أهل القرية وسرعة حركة دمائهم . ولكنـــه لم يزدهم الا خمولا وبطئا . ولما أقمت مدة أطول ، ورأيت هذا الطـور من النقاء البللورى ، تتبعه فترات طويلة من برد لا شمس فيه ، ثم تأتى عواصف فبراير فتضرب خيامها بتلك القرية المحبوبة ، ثم تمر بها كتيبة تلك الفرســـان الخـــاطفة من زوابع مارس ، تشد ازر العواصف ، بدأت افهم لماذا يخرج أهل ستار كفيلد من ذلك الحصار المستمر ستة أشهر كأنهم حامية جائعة استسلمت للعدو بلا شرط . على أن وسائل المقاومة كانت أقل كثيرا قبـــل ذلك بعشرين سنة . وكان العدو حينئـــذ يتسلط على جميـــع خطوط الاتصال بالقرى المنكوبة . وأمام التفكير فى هذه الاحـوال فهمت ما تنطـــوى عليه عبارة هارمـــون « ان الصـــفوة من أهل القرية يغادرونها » من قوة . فاذا كانت هذه هى الحال ، فكيف كانت ؟ وأى عقبـــات تجمعت ، فحالت دون فـرار رجل مثل ايتان فروم ؟!

كنت اقيم أثناء اقامتى بستار كفيلد لدى أرملة فى متوسط العمر يعرفها الجميع باسم مسز ندهايل . وكان والد مسز هايل محامى الجيل السابق بالقرية . وكانت دار المحامى فارنوم ، حيث لا تزال تقيم صـــاحبة مسكنى مع والدتها ، أكبر دار فى القرية . وهى واقعة عنـــد نهاية أهم طريق فيها . مدخلها

على الطراز القديم ، ونوافذها ذات ألواح زجاجية صغيرة، تطل على طريق مبلط تحفه أشجار نرويجية طويلة تمتد الى البرج الابيض الطويل للكنيسة الجماعية . وكان من البين أن حال آل فارنوم قد تدهورت . ولكن المرأتين بذلتا كل ما فى وسعهما للاحتفاظ بشىء من المكانة .. وكانت مسز هايل بنوع خاص على قسط من التهذيب يلائم بيتها الباهت ذا الطراز القديم

***

كنت أستمع كل مساء فى غرفة الجلوس ، ذات الارائك من الخشب الثمين والمساند المحشوة بشعر الخيل ، يضيئها مصباح قوى من طراز كارسيل ذو طنين، الى قصة أخرى أكثر تهذيبا من قصص ستار كفيلد . وليس ذلك لان مسز ندهايل كانت تشعر بشىء من التعالى الاجتماعى على الناس من حولها ، ولا تزعم ذلك لنفسها . بل ان المصادفة أتاحت لها احساسا أرق وتربية أعلى ، مما ميزها تمييزا كافيا على جاراتها بحيث تستطيع أن تحكم عليهن بغير تحيز . ولم تكن تكره أن تستعمل هذه الموهبة . لذلك كان لدى أمل كبير فى أن أعرف منها الوقائع الخفية فى قصة ايتان فروم ، أو مفتاح خلقه الذى يتلاءم مع ماعرفته من وقائع ، وكان عقلها يختزن طائفة من القصص البريئة ، وأى سؤال عن الناس الذين تعرفهم ينتج مجلدا من التفصيلات . ولكنى وجدتها فيما يتعلق بايتان فروم متحفظة على غير انتظار . لاأقول ان فى كلامها ذرة من الاستياء فى التحفظ . بل كل ماهنالك أنى أحسست ان لديها ترددا لايقهر فى الكلام عنه وعن شئونه . وكل ماسمحت به لاشباع فضولى قولها فى صوت خفيض « نعم .. عرفت كليهما .. وكان أمرا فظيعا .. »

لقد تغير مسلكها تغيرا ظاهرا وانطوت عبارتها على أسى عميق حتى انى عدت فأثرت الموضوع لدى هارمون جو ، وحى القرية ، وأنا أشعر بما فى هذا العمل من تنكب للذوق . فلم أكافأ على تعبى الا بهمهمة تدل على أنه لايفهم . وقال لى : « ان روث فارنوم خائرة الاعصاب دائما كالجرذ ، ولكن عندما افكر فى الامر ، أجد أنها أول من رآهما بعد أن عثر عليهما . وكان الحادث فى المنطقة التى تقع فى أسفل دار المحامى فارنوم ، عند منحنى الطريق الى كوربرى . وكان ذلك حوالى الوقت الذى خطبت فيه روث الى

ندهايل . وكانوا جميعافى شبابهم أصدقاء . وأعتقد أنها لاتحتمل الحديث عن هذا الامر . ولها من متاعبها مافيه الكفاية »

ولسكان ستاركفيلد جميعا ، كسكان الاماكن الاكثر اشتهارا منها من متاعبهم مافيه الكفاية ، حتى انهم يصبحون أقل اهتماما نسبيا بمتاعب جيرانهم . وهم يسلمون بأن قسط ايتان فروم من هذه المتاعب أكبر من المعتاد . ولكن لم يفسر لى أحد منهم ، سبب النظرة الجاثمة على وجهه ، وهى التى مازلت أصر على أنه لا الفقر ولا الآلام الجسدية يمكن أن تضعها على الوجه .

ولقد كنت أستطيع الاكتفاء بالقصة التى استخرجتها من شتات هذه الاشارات ، لولا أن أثارتنى مسز هايل بصمتها ، ولولا المصادفة التى حدثت بعد قليل من الزمن حين اتصلت اتصالا شخصيا بالرجل !!

كنت قد اتفقت حين وصولى الى قرية ستار كفيلد مع دنيس ايدى البقال الارلندى الثرى ، الذى يمتلك فى ستار كفيلد مايمكن أن يسمى حظيرة خيل للنقل ، على أن يتولى نقلى يوميا الى منبسطات كوربرى حيث أستطيع ركوب القطار من هنالك الى الوصلة ، ولكن فى منتصف الشتاء مرضت خيول ايدى اذ أصيبت بوباء محلى وامتدت الاصابات الى غيرها من حظائر الخيل فى ستار كفيلد وظللت يوما أو يومين لا أجد وسيلة للانتقال الا فى صعوبة . وحينئذ قال لى هارمون جو ان جواد ايتان فروم الاسمر لايزال يدب على رجليه وقال ان صاحبه قد يسر اذا أتيح له نقلى

فبهت لهذا الاقتراح وسألته : « ايتان فروم ؟ ولكننى لم أتحدث اليه مطلقا ! وما الذى يدعوه لان يتعب نفسه من أجلى ؟ »

وأدهشتنى اجابة هارمون أكثر من اقتراحه حين قال : « لست أعلم أنه يفعل هذا من أجلك ، ولكننى أعلم أنه لايأسف اذا كسب دولارا »

لقد قيل لى أن فروم فقير ، وان طاحونة قطع الاخشاب وأراضى مزرعته الجدباء ، لا تكاد تمده بما يقوم بأوده أثناء الشتاء ، ولكننى لم أتصور أنه فى مثل هذه الشدة التى تفهم من كلمات هارمون ، وأعربت عن هذه الدهشة

قال هارمون : « ان الامور لم تسر على مايشتهي ، فعندما يركد الرجل عشرين سنة أو أكثر ، كالسفينة القديمة ، وهو يرى أشياء يحب عملها ، فان ذلك يؤثر فيه ، فتضعف عزيمته ، ولقد كانت مزرعة فروم دائما عارية جدباء كاناء اللبن بعد أن تلعقه

الهرة • وانك لتعلم ماقيمة تلك الطواحين القديمة التى تدار بالماء فى هذه الايام • ومهما تصبب العرق من جبين ايتان فى سبيل الطاحونة والمزرعة ، منذ شروق الشمس الى انتشار الظلام ، فانه لا يكاد يخرج منها مايكفل له العيش على أن أهله يستهلكون اكثر مما ينتجه ولا أعرف كيف يستطيع تدبير أموره الآن • ولقد حدث أولا أن أصيب أبوه بضربة شمس وهو يجمع التبن فخف عقله • وصار قبل وفاته يوزع النقود كما يوزع الاتقياء نصوص الكتاب المقدس ، ثم خرفت أمه • وامتدت بها السنون وهى ضعيفة كالطفل ، وتعتبر زوجته زينة أكبر عملاء الاطباء فى هذه المقاطعة ، فالمرض والمتاعب هى ماامتلأت به صحاف طعام ايتان فروم منذ أن عرف الاكل لأول مرة »!!

وفى صباح اليوم التالى عندما خرجت لعملى رأيت الحصان الأعجف بين أشجار فارنوم وقد أزاح ايتان فروم جلد المركبة القديم ليفسح لى مكانا فى الزاحفة الى جانبه • وظل بعد ذلك اسبوعا ينقلنى فى زاحفته الى منبسطات كوربرى فى كل صباح • وفى عودتى بعد الظهر ، يقابلنى ويعود بى فى برودة الليل الى قرية ستاركفيلد • وكانت المسافة ذهابا وايابا تزيد على ثلاثة أميال • ولكن خطوة الحصان الهرم بطيئة • وكنا نقطع الطريق فى نحو الساعة لو كان الجليد ثابتا تحت مزالق الزاحفة • وكان ايتان فروم يسوق المركبة فى صمت وهو ممسك باللجام فى رفق بيده اليسرى ، ويبدو جانب وجهه الاسمر ذى الندوب تحت طاقيته الشبيهة بالخوذة ، وترى ظله ينعكس على الجليد كأنه تمثال من البرونز لبطل من الابطال وكان لايدير وجهه الى قط • ولا يجيب عن الاسئلة التى أوجهها ، أو النكات الصغيرة التى أجرؤ عليها ، الا بكلمات قصيرة • وكأنه جزء من المنظر الطبيعى الحزين الصامت ، أو كأنه قد تقمصه ذلك الأسى المتجمد فى منظر الطبيعة ، وانطبعت فى نفسه قساوة الجو الجليدى فحبست فى أطوائه كل دفء وحرارة • بيد أن هذا الصمت لم يكن فيه مايشير الى الرغبة عن الصداقة وكل ماشعرت به فى بساطة أنه يعيش فى أعماق وحدة خلقية ، حتى ليصعب الوصول الى نفسه عادة • وشعرت كذلك أن هذه الوحدة ليست نتيجة متاعبه الشخصية بالرغم من انها أليمة فيما لاحظته • ولكنها نتيجة أيضا ، كما أشار هارمون جو للتأثير المتجمع من برد الشتاء ومروره على قرية ستاركفيلد سنة بعد سنة

وقد تمكنت مرة أو مرتين من اجتياز ذلك الجسر القائم بيننا وكانت النظرات الخاطفة التى حصلت عليها عندئذ مما زادنى رغبة فى أن أقوى معرفتى به . فقد تكلمت ذات مرة عن عمل هندسى قمت به فى السنة السابقة بفلوريدا ، وعن التباين بين منظر الشتاء الذى يحيط بنا والمنظر الذى كنت أراه فى السنة السابقة، ودهشت حين أجابنى فروم فجأة: « نعم لقد كنت هنالك ذات مرة ، وظللت مدة طويلة يتراءى لى منظر تلك الجهة فى الشتاء ، ولكن هذا المنظر اختفى تحت الثلوج »

لم يقل أكثر من ذلك الا اننى تخيلت البقية من نبرات صوته، وعودته الى الصمت فى حدة

فى يوم آخر افتقدت مجلدا فى العلوم العامة وأنا أركب القطار من المنبسطات فلم أجده وكان المجلد فيما اظن يبحث فى شأن مكتشفات جديدة فى الكيميا الحيوية . وكنت أحمله معى لاقرأه فى الطريق . ولم أفكر فيه حتى عدت مرة ثانية الى الزاحفة فى ذلك المساء . فرأيت الكتاب فى يد فروم .

قال لى : « لقد وجدته بعد ذهابك » ..

فوضعت المجلد فى جيبى ، وسرنا فى صمتنا المعتاد . وبينما كنا نصعد فى بطء الى ذلك الطريق الطويل من منبسطات كوربرى الى هضبة ستار كفيلد ، شعرت فى الظلام انه أدار وجهه نحوى وقال : « قرأت فى هذا الكتاب اشياء لم أكن أعرف عنها كلمة واحدة »

كانت دهشتى من كلماته أقل من دهشتى لنبرة الاستياء الغريبة فى صوته . وكان من الواضح انه دهش وأسف قليلا لجهله

فسألته : « هل تهتم لمثل هذه الاشياء »

فأجاب : « كنت أهتم بها » !

فقلت : « ان فى هذا الكتاب مسألة أو مسألتين جديدتين ولكن هذه الابحاث خطت أخيرا خطوات واسعة » . وانتظرت قليلا كى يرد الجواب ولكنه لم يفعل ، فقلت « اذا أردت أن تقرأ الكتاب بأكمله فانى أكون سعيدا بأن أتركه معك »

فتردد قليلا وبدا لى انه على وشك أن يخضع لموجة من الخمول . ثم أجاب فى عبارة قصيرة « أشكرك سآخذ الكتاب !»

ولقد أملت فى أن هذا الحادث سيجعل نوعا من الاتصال المباشر بيننا . وكان فروم بسيطا وصريحا . فكنت واثقا من أن فضوله قائم على اهتمام حقيقى بالموضوع . ومثل هذه الميول فى رجل هذه حالته مما يجعل التباين أليما بين مركزه المادى، وحاجاته النفسية . وكنت أؤمل أن فرصة التعبير عن هذه الحاجة قد تفتح على الاقل شفتيه ،ولكن يظهر أن شيئا فى تاريخه الماضى أو طريقة معيشته فى الحاضر قد جعله ينطوى على نفسه ، بحيث لايمكن لدافع عارض أن يجذبه ثانية الى الناس ففى مقابلتنا التالية لم يشر الى الكتاب . وبدا لى أن القدر قضى بأن يظل اتصالنا سلبيا ومن جانب واحد . وكأن لم ينفرج ستار تحفظه

ظل فروم يسوق المركبة بى الى المنبسطات نحو اسبوع وفى ذات صباح نظرت من نافذتى فوجدت الجليد ينزل ثقيلا . وكان ارتفاع امواجه البيضاء الى جانب سور الحديقة ، وعلى حائط الكنيسة ، يدل على أن العاصفة استمرت طول الليل . وان هطول الثلج سيكون شديدا فى العراء ، وبدا لى من الراجح أن يتأخر قطارى . ولكن كان لابد من وجودى فى محطة القوة الكهربائية مدة ساعة أو ساعتين بعد الظهر . وقررت انه اذا جاءنى فروم ، فسأذهب الى المنبسطات وأبقى هنالك الى أن يأتى القطار . ولا أعلم لماذا كانت صيغة تفكيرى شرطية مع أنى كنت واثقا بمجيئه . فهو من الرجال الذين لايمكن ان يحول دون عملهم أية ثورة فى العناصر الطبيعية . ولقد رأيت مركبته تنزلق على الثلج فى الساعة المقررة ، كأنها شبح مسرحى يبدو من وراء ستار شفاف .

لقد صرت أعرفه معرفة حالت بينى وبين الاعراب عن الدهشة أو الشكر لاحتفاظه بموعده . ولكنى أعربت عن دهشتى حين رأيته يدير حصانه فى الاتجاه المخالف لطريق كوربرى

قال لى ونحن نسير بين الثلوج : « لقد تعطل طريق السكة الحديدية بقطار بضائع سدت سبيله عاصفة من الثلوج فى أسفل المنبسطات » .

فسألت : « اذن الى أين تسير بى ؟ »

أجاب وهو يشير بسوطه الى التل المقامة عليه المدرسة : « انى أسير بك رأسا الى الوصلة بأقصر طريق »

فصحت : « الى الوصلة فى مثل هذه العاصفة ! انها لتبعد مالا يقل عن عشرة أميال »!

فقال : « سيقطعها الحصان اذا أتحت له الوقت ! لقد قلت ان لديك عملا تؤديه بعد ظهر اليوم وسأعمل على وصولك ! »

قال ذلك فى هدوء حتى انى لم أستطع الا أن أقول : « انك تسبغ على أكبر الفضل »

فقال : « لا شىء من ذلك »

كان الطريق يتفرع امام بناء المدرسة فنزلنا فى طريق ضيق الى اليسار يسير بين اشجار الهملوك التى انحنت رءوسها الى جذوروها ، بثقل ماعليها من ثلج، وكنت كثيرا ماأسير فى ذاك الطريق فى أيام الاحد وأعلم أن السقف المنفرد الذى أراه من خلال فروع الاشجار العارية فى أسفل التل انما هو طاحونة قطع الاخشاب التى يمتلكها فروم وكان منظرها يدل على قلة العمل فيها ، بعجلتها المتبطلة الجاثمة فوق النهير الاسود ، تغطيه قطع من الثلج المصغر ومجموعتها من المخازن المنحنية الظهر تحت حملها الابيض .

ولم يثن فروم حتى رأسه ناحيتها ونحن نمر . وبدأنا نصعد المنحدر الآخر ونحن فى صمت ايضا . وبعد أن قطعنا نحو ميل ، من طريق لم أمر به من قبل ، وصلنا الى حديقة صغيرة من اشجار التفاح الضعيفة النامية ، بين مرتفع من الارض تخرج من ثناياه احجار الاردواز ، تطل من بين الثلوج التى تغطى الارض ، كأنها حيوانات أخرجت أنوفها لتتنفس . وفيما وراء الحديقة نرى حقلا أو حقلين ، وقد غابت حدودهما تحت أكوام الثلوج ، وفيما فوق هذين الحقلين يطل على الفضاء الواسع الابيض ، المؤلف من الارض والسماء ، احدى تلك الدور الزراعية المتناثرة ، التى تشاهدها فى اقليم نيو انجلند، وهى تزيد فى كآبة المنظر ووحشته

قال فروم وهو يلوح بكوعه العاجز الى جانب الطريق : «هذا مسكنى!» ولم أجد ما أرد به حين رأيت المنظر وما فيه من بؤس وكآبة، وكان هطول الثلج قد وقف وسقطت أشعة الشمس مبللة على المنحدر فكشفت عن الدار بكل ما فيها من قبح أليم . وكان فوق مدخلها

أكليل اسود معقود من غصون بعض النباتات الزاحفة ، وكانت الحوائط الخشبية الرقيقة خلف طلائها القديم الباهت ، ترتعش تحت وطأة الرياح التى هبت على أثر انتهاء سقوط الثلج .

جذب فروم اللجام من الناحية اليسرى، ليحول دون الرغبة التى بدت من الحصان فى الاتجاه نحو المدخل الخارجى المكسور، واستمر يقول : « كانت هذه الدار فى أيام والدى أكبر مما تراها ، وقد اضطررت أخيرا الى هدم الجناح المقابل لها .»

فرأيت عندئذ ان منظر الدار وما يبدو عليها من اهمال قد نشأ بعضه عن حرمانها من ذلك البناء المألوف فى نيوانجلند ، وهو الذى يصل بين الدار والحظائر ، بحيث يؤلف زاوية قائمة مع بناء الدار الاساسى . فهذا البناء الموصل يؤلف معنى رمزيا للحياة المتصلة بالارض ، حيث تضم بين جوانحها اكبر مصادر الدفء والتغذية ، وهو يمكن السكان فى ذلك الجو العاتى من أن يذهبوا الى عملهم فى الصباح دون مواجهة البرودة القاسية، فان هذه الوصلة أكثر من الدار نفسها ، تبدو مركز المزرعة فى نيوانجلند وحجرها الاساسى . ولعل هذه الفكرة ، التى كثيرا ماخطرت لى فى رحلاتى حول ستاركفيلد ، هى التى جعلتنى اشعر بنغمة كئيبة فى كلمات فروم ، وأرى فى الدار المتداعية مثلا لجسمه المتقلص

وعاد فقال : « اننى الآن أكثر استخفاء ولكن المرور كان كثيرا قبل أن تصل السكك الحديدية الى المنبسطات » وايقظ الحصان الذى شرع يتوانى بهزة أخرى . وكأن مجرد رؤيتى للدار قد أقام الثقة بينى وبينه حتى لم تعد هنالك حاجة للتحفظ . فاستمر يقول فى هوادة « لقد كنت دائما أرى أن أسوأ المتاعب التى حلت بأمى هى نتيجة لذلك ، فحين اشتدت عليها علة النقرس حتى لم تعد تستطيع الحراك كانت تجلس هنالك وتظل ساعات ترقب الطريق . وفى احدى السنوات ظل العمال ستة أشهر يصلحون الطريق من الى بتسبريدج بعد الفيضانات . واضطر هارمون جو الى أن يحول مركبته الى هذا الطريق ، فكانت تذهب فى أكثر الايام الى مدخل البيت . ولكن بعدان أخذت السكك الحديدية

تسير لم يعد أحد يمر بهـــذه الجهة • ولم تفهم أمى ماحدث وظلت متأثرة بهذا الحادث الى مماتها »

وحين انتقلنا الى طريق كوربرى عاد الثلج الى السقوط فحجب آخر نظرة الى الدار • وعادفروم الى الصمت ، وانسدل بيننا ستار التحفظ القديم • ولم تسكن الريح بعودة الثلج فى هذه المرة بل زادت حتى صارت عاصفة ثلجية ، تنفذ من خلال سحبها المهلهلة ، بين حين وآخر ، أشعة شمس ذابلة، تضىء ذلك المنظر الذى تعبث به الرياح • ولكن الحصان كان عند حسن ظن فروم به ،فتقدمنا فى طريقنا الى الوصلة مخترقين المنظر الابيض الموحش

وفى المساء هدأت العاصفة وانحسرت الســـحب عن الجانب الغربى • فبـــدا لعينى غـير المجربتين ، أن هذا دليل على أن المساء سيكون صحوا • فأتممت عملى فى أسرع وقت ، وأخذنا الطريق الى ســـتاركفيلد ، متوقعا أن أبلغ تلك القـــرية فى العشاء ، وعند غروب الشمس تجمعت السحب مرة ثانية مما عجل بالليل قبل أوانه • وأخذ الثلج يتساقط مستقيما ومستمرا من سماء لا رياح فيها، وفى اصرار هادىء عام، فجعلنا ذلك أكثر ارتباكا منا حين كنا نواجه رياح الصباح وأمطاره • فكأن هذا الثلج قطعة من الظلام الدامس ، وكأنه ليل الشتاء نفسه نزل علينا طبقـــة فطبقة

واختفى ضوء المصباح الصغير الذى يحمله فروم فى هذا الجو الطـــاغى الـــذى قضى عـــلى حاســـة فروم فى تمييـــز الاتجاهات ، وأضل الحصان عن غريزته فى تعرف طريق البيت • • وقد حدث مرتين أو ثلاثا أن بدت علامة كالخيال ، دلتنا على اننا أخطأنا الاتجـــاه ، ثم عاد الضباب فابتلعنا • ولم نتمكن أخيرا من الاهتداء الى طريقنـــا حتى كانت قد بدت على الحصان علامات الاعياء • وشـــعرت انى أستحق اللوم لقبولى ماعرضـــه فروم • وبعد مناقشة قصـــيرة أقنعته بأن أنزل عن الزاحفـــة وأمشى على الثلـــج الى جانب الحصان • وهكذا قطعنا فى جهد ميلا أو ميلين ووصلنا أخيرا الى مكان بدا لى انه ظلام لايخترق ، فأشار اليه وقال :«هذا هو مدخل دارى فى هذه الناحية »

كانت المرحلة الاخيرة أصعب مراحل الطريق فان السير فى

بطء مع البرد القارص لم يترك لى أية قوة · وكنت أشعر بضلوع الحصان تنبض تحت يدى كالساعة ·

وابتدأت أقول : « استمع الى يافروم ! لا أجد معنى لمسيرك أكثر من ذلك » فقطع قولى قائلا: « ولا أنت ! لقد أخذنا كفايتنا نحن الاثنين

وفهمت من هذا القول انه يدعونى لقضاء الليل فى مزرعته · ولم أجبه · واجتزت المدخل الى جانبه ، وتبعته الى الحظيرة حيث ساعدته فى خلع لجام الحصان المتعب واراحته ، ولما تم لناذلك حمل المصباح الذى كان معلقا بالزاحفة ، وخطا وسط الظلام وناداني أن أتبعه

وكنا نرى فوقنا من بعيد ، نورا مربعا يرتعش من خلال الثلج ، وسرت فى أثر فروم وأنا أتعثر فى اتجاه هذا الضوء ، وكدت أسقط فوق أحد أكوام الثلج المتجمع أمام الدار · وأخذ فروم يزيح الثلج عن درج الباب وهو يفتح طريقا وسط الثلج بحذائه السميك ثم رفع مصباحه واهتدى الى المزلاج وسار امامى داخل الدار وسرت خلفه فى ممر ضيق مظلم رأيت فى آخره درجا كالسلم الخشبى المتحرك يبدو من خلال الظلام والى يميننا رأيت خطا من النور يبدو منه مكان باب الغرفة التى كانت ترسل ضوءها فى الليل البهيم ووراء الباب سمعت صوت امرأة تغمغم

مسح فروم قدميه على قطعة القماش الزيتية القديمة ووضع مصباحه على كرسى مطبخ وهو قطعة الاثاث الوحيدة فى البهو ثم فتح الباب وقال : «فلتدخل» ومانطق بهذه الكلمة حتى سكت الصوت المغمغم ··

فى تلك الليلة وجدت مفتاح لغز ايتان فروم وبدأت أجمع شتات قصته ··

كانت القرية ترقد تحت قدمين من الثلج وكانت هنـــاك أكوام متراكمة منه فى الاركان المعرضة الى الرياح . وفى سماء معتمة ، كنت ترى أطراف نجم « دبير » كأقماع من الجليد . وكان النجم «أوريون» يخرج ألسنة نارية باردة . وبالرغم من غياب القمر كان الجو شـفافا ، فبدت واجهـات الدور البيضاء رمادية اللون من خلال أشجـار البلوط فى بياض الثلوج ، وبدت أكوام الاعشـاب فيها بقعا سوداء ، وكانت نوافذ الدور الارضى فى الكنيسه ترسل سهاما من الضوء الاصفر تذهب بعيدا عبر التموجات التى لانهاية لها .

أخـذ الشـاب ايتان فروم يمشى فى خطى سريعـة يقطـع شارع المهجور مارا بالمصرف ، ثم بحانوت ميكل ايدى الذى بنى حديثا بالطوب الاحمر ، ثم بمنزل المحامى فارنوم وقد أطلت أمام مدخـله شجرتان سوداوان من الاشجار النرويجية الباسـقة ، وأمـام دار فارنوم حيث ينحنى الطريق الى وادى كوربرى كانت كنيسة تشمخ ببرجها النحيل الابيض وعمدها الضيقة ، وعندما قترب منها الشاب رأى النوافذ العليا ترسم اقواسا من الظـل عند الحائط الجانبى للبناء ولكن من الفتحات الصغرى فى الجانب الذى ينزلق فيه الطريق عميقا الى طريق كوربرى كان النور ينبعث فى خيوط طـويلة فتظهر حفر عميقـة فى الطـريق المؤدى الى باب الـدور تحت الارض وهنـاك تحت حظيرة ملاصـقة عدد كبير من الزاحفات شـدت اليهـا خيول مكسوة بأغطيـة سميكة .

كان الليل هادئا كل الهـدوء والهواء نقيا لا رطوبة فيه حتى لا يكاد يشـعر المرء بالبرد فلـم تبـد من فـروم أية مبالاة بالجو . وكان لا يفصـل بين الارض البيضاء تحت اقدامه وتلك القبة المعدنية فوق راسه الا الاثير وقال لنفسـه « لكأنى داخـل انبوبة كهربائية سـالبة أفرغ منهـا الهواء » وكان قبل أربع أو خمس سنوات قد قضى سـنة فى كليـة الفنون العملية بمدينة ووستر وخبر المعامل مع أستاذ للطبيعـة كان يميل اليه وكانت الصور التى توحيها تلك التجربة تثب الى ذهنه فى لحظات غير منتظرة فى ظروف حيـاته التى يعيش فيها منذ ذلك العهد والمختلفة كل الاختلاف عن تلك الدراسـة وكانت وفاة أبيـه

والظروف السيئة التى حلت به بعدها قد وضعت نهاية سابقة لاوانها لدراسات ايتان. وبالرغم من أنه لم يقطع فى هذه الدراسة شوطا كبيرا تكون له نتيجة عملية فقد أشبعت الدراسة خياله وجعلته يشعر بوجود معان سامية مبهمة خلف الوجه العادى للاشياء .

وكان وهو يسير بين الثلوج تلمع فى ذهنه معان لهذه الاشياء تمتزج مع النشاط الجسدى الناشىء عن سيره المجد ، وفى نهاية القرية وقف أمام المدخل المظلم للكنيسة وهو يتنفس فى سرعة ويتلفت الى الشارع فى ارتفاعه وانحداره وهو خال من الناس وكان المنحنى الى طريق كوربرى تحت اشجار المحامى فارنوم هو المكان المفضل لدى هواة الانزلاق فى ستار كفيلد وفى الامسيات الرائعة كان الجانب الذى تقوم فيه الكنيسة يعج الى ساعة متأخرة بصيحات هؤلاء الهواة. ولكن لم تكن هناك زلاقة واحدة فى هذه الليلة تغطى بياض الثلج فى ذلك الممر الطويل وكان سكون منتصف الليل يخيم على القرية وكل حياتها اليقظة تتجمع وراء نوافذ الكنيسة التى تسمع منها أنغام الموسيقى الراقصة مع خطوط النور الاصفر الذى يشع منها .

ودار الشاب حول جانب البناء وقطع المنحدر الى باب الدور الارضى ومشى فى دائرة على الثلج الذى لم تطأه قدم كى يبتعد عن أشعة النور المنبعثة من الداخل ، والتى تنم عليه، واقترب تدريجيا من الزاوية البعيدة لحائط الدور الارضى ثم تقدم فى حذر ملتحفا بالظلام الى أقرب نافذة ورفع قامته المستقيمة النحيلة ومد عنقه واستطاع أن يلقى نظرة داخل الغرفة

وكان الغرفة وهى تبدو من الظلام البارد الخالص الذى يقف فيه قد غشيها ضباب من الحرارة وكانت الصفائح المعدنية التى تحيط بمصابيح الغاز تعكس ضوءا مبعثرا على الحوائط البيضاء . وكانت الحواجز الحديدية للمدفأة الواقعة فى نهاية الغرفة تبدو وكأنما ينبعث منها لهب بركان وكانت الغرفة غاصة بفتيات وشبان وقد صف الى الحائط المواجه للنافذة صف من كراسى المطبخ أخلاها فى تلك اللحظة النساء اللاتى هن أكبر سنا وقد توقفت الموسيقى عن العزف واسرع الموسيقيان وهما عازف كمنجة وفتاة تعزف على الهارمونيوم فى أيام الاحاد الى

مائدة عشاء أعدت فوق منصة فى نهاية الغرفة صفت فوقها صفوف فطائر اللحم وأطباق المثلجات التى تناولتها أيدى الحاضرين من قبل ، فيتناولا ما طاب لهما من الطعام . وكان الضيوف على أهبة الانصراف وابتدأ سيلهم يتدفق نحو الممر الذى علقت فيه المعاطف والملافح حين تقدم الى وسط الغرفة فتى خفيف الحركة ذو شعر اسود غزير وصفق بيديه صفقة كان لها أثرها فى الحال فاسرع الموسيقيان الى آلتيهما وانتظر الراقصون وقد التحف بعضهم بغطائه استعدادا للانصراف فى صفين على جانبى الغرفة وأخذ الشاب يبحث بين الجمهور هنا وهناك الى أن جذب فتاة وضعت منديلا جذابا أحمر اللون حول رأسها وسار بها الى نهاية الصف ثم شرع يدور بها دورانا سريعا على نغمات رقصة فرجينية وثابة

كان قلب فروم يدق دقا متواصلا وهو يحاول أن يلقى نظرة على الوجه المختفي وراء المنديل الشفاف وضايقه أن عينا اخرى كانت أسرع من عينه . وكان زعيم هذه الرقصة الذى يبدو كأن فى عروقه دم أرلندا يحسن الرقص . وقد انتقلت حماسته الى زميلته فى انتقالها فى سرعة بين الصفين ، تديرها يد بعد يد فى سرعة تتزايد ، وقد انحسر المنديل عن رأسها ونزل الى كتفيها ورأى فروم فى كل دورة شفتيها الضاحكتين اللاهيتين وسحابة الشعر الاسود حول جبهتها ، كما رأى عينيها السوداوين كأنهما نقطتان ثابتتان فى خطوات متحركة

وأخذ الراقصان يزيدان من سرعتهما والموسيقيان يجهدان آلتيهما لكى يتمكنا من اللحاق بهما كأنهما راكبان فى حلبة السباق يلهبان جواديهما بالسوط ليبلغا نهايته . ومع ذلك فقد بدا للشاب المتطلع من النافذة أن الرقصة لن تنتهى . وكان بين حين وآخر يتنقل بنظرته من وجه الفتاة الى وجه شريكها الذى بدت فى عينيه فى حماسة الرقص نظرة الامتلاك الجرىء . وكان دنيس ايدى بن مايكل ايدى البقال الايرلندى الطموح الذى كان بمرونته وجرأته أول من عرف قرية ستار كفيلد الطرق العملية « الماهرة » فى أعمائه واستطاع أن يبنى مخزنه بالحجارة فبرهن على نجاح محاولته . وبدا من الراجح أن ابنه سيقتفى أثره وانه يستعمل تلك الوسائل عينها فى التغلب على فتيات ستار كفيلد . وكان ايتام فروم يعتبره حتى

تلك اللحظة شابا حقير الشأن ولكنه بدا له الآن انه جدير بأن يضرب بالسياط. ومن الغريب أن الفتاة لم تكن منتبهة الى نظرته الجريئة. وكانت تستطيع أن ترفع وجهها الذاهل الى وجه الراقص وتضع يديها فى يده دون أن يظهر عليها أنها تشعر بالاهانة لنظرته ولمسه

كان من عادة فروم ان يذهب سيرا على الاقدام الى قرية ستار كفيلد ليعود بماتى سيلفر ابنة عمة زوجته فى الامسيات النادرة التى تتاح لها فيها فرصة للهو تجذبها الى القرية . وكانت الزوجة هى التى أشارت بأن يسمح لها بهذه الفرصة عندما جاءت لتعيش معهما . وكانت ماتى سيلفر من قرية ستامفورد وحين نزلت بدار فروم لتساعد ابنة خالها زينة رؤى من الخير الا تشعر بفرق كبير بين الحياة التى تركتها والوحدة فى المزرعة بستار كفيلد ، ولا سيما أنها لا تتناول أجرا ولولا هذا كما حدث فروم نفسه فى سخرية لما اهتمت زينة بالتفكير فى تسلية الفتاة

وعندما اقترحت زوجته أن يتيحا لماتى تلك النزهة المسائية شعر فى نفسه بضيق اذ يضطر لان يقطع ميلين الى القرية ذاهبا ثم عائدا بعد عمله اليومى الشاق فى المزرعة . ولكن لم يمض عليه وقت طويل حتى بلغ الدرجة التى صار يتمنى فيها أن تكون كل ليالى ستار كفيلد ليالى لهو ومتعة .

لقد قضت ماتى سيلفر نحو السنة تحت سقف داره وكان يراها فى الصباح وفى المساء ولكن لم يكن فى هذه اللحظات ما يعادل الاوقات التى يقضيها برفقتها حين تكون ذراعها ملتفة حول ذراعه وهى تسرع فى خطوتها الخفيفة لتلحق بخطوته الطويلة فى طريق عودتهما ليلا الى المزرعة . ولقد مال الى الفتاة منذ اليوم الاول الذى ذهب فيه بالزاحفة الى منبسطات الوادى ليقابلها وابتسمت عند رؤيته وحركت يدها له وهى فى القطار ونادت « لابد انك ايتان » وهى تقفز من القطار بحقائبها وكان هو يفكر وهو ينظر الى جسمها الضئيل «انها لا تبدو كبيرة الصلاحية لعمل الدار ولكنها على كل حال ليست من النوع المتذمر » ولم يكن مجيئها الى الدار وهى قطعة من الحياة الفتية الآملة بمثابة نار أوقدت فى موقد خبت تارة واكتنفه البرد ، بل ان الفتاة كانت أكثر من مجرد صبية براقة خدومة كما ظنها فى بادىء الامر ، فقد كانت لها عين ترى

وأذن تسمع . فيستطيع ان يريها أشياء ويخبرها بأشياء ويتذوق السعادة التى تنشأ عن شعوره بأن لما يقوله هزات بعيدة وأصداء يوقظها حين يريد

وكان يشعر بحلاوة هذا الاتصال على وجه خاص فى أثناء سيرهما الطويل ليلا عائدين الى المزرعة ، وكان دائما أكثر تأثرا من الذين حوله واستجابة للجمال الطبيعى. وقد تولد هذا الشعور من دراساته التى لم يتمها، وحتى فى أسوأ حالات تعاسته كانت تحدثه الحقول والسماء فى اقناع عميق قوى. ويظل هذا الحديث مكبوتا يثير فى نفسه ألما خفيفا يسدل على هذا الجمال ستارا من الحزن . وكان لا يعرف هل فى العالم من يشعر مثل شعوره أم أنه الفريسة الوحيدة لهذه الميزة الحزينة . ثم علم ان نفسا أخرى تهتز بمس من هذا الشعور العجيب نفسه تعيش تحت سقف داره ، وتأكل من خبزه ، هى انسانة يستطيع أن يقول لها: هذا هو الكوكب أوريون الظاهر الى اليمين من النجم الدبران وهذه المجموعة من النجوم الصغيرة كجماعة من النحل ـ هى « البلياد » ...أو يستطيع ان يقف بها مسحورة أمام قطعة من صخر الجرانيت تطل من خلال الاعشاب بينما يقص عليها قصة عصر الجليد وما يليه من عصور مترامية فى القدم. ولم يكن الاعجاب بمعلوماته ممزوجا بدهشة ماتى لما يقول أقل دواعى سعادته ، فهناك مشاعر أخرى أقل وضوحا ولكنها أكبر لذة تربطهما برباط من المتعة الصامتة : احمرار الشمس عند غروبها وراء التلال فى الشتاء وجرى السحب على سفوح التلال وهى مغطاة ببقايا أعواد الذرة الذهبية. أو الزرقة العميقة لظلال أشجار الهملوك على الثلوج التى أضاءتها الشمس وحين قالت له مرة « ان هذا المنظر يبدو كأنه من صنع مصور» خيل الى ايتان أن فن التعريف بالمنظر لن يبلغ أكثر من هذا وأنه عثر أخيرا على الكلمات التى تعبر عما يجيش فى أعماق نفسه ....

عادت الى مخيلته هذه الذكريات وهو واقف فى الظلام خارج الكنيسة فوجد فيها لنفسه ألما كأنها أمور قد انتهت . وساءل نفسه وهو يشاهد ماتى تندفع فى رقصها من يد الى يد كيف تصور أنها اهتمت لحديثه التافه فقد بدا له وهو الذى لا يشعر

بانشراح الا فى حضورها ، ان هذا المرح ان هو الا دليل صريح على عدم اهتمامها به ، فان الوجه الذى رفعته للراقصين معها هو الوجه نفسه الذى تطالعه به كأنه نافذة يدخل منها شعاع شمس الغروب بل لاحظ ايضا ايماءتين أو ثلاثا ظن فى غمرة زهوه انها تختصه بهما : من ذلك طريقة نفض رأسها الى الخلف حين تعبر عن انشراحها كأنما تتذوق ضحكتها قبل أن ترسلها ، وعادتها فى اسدال اهدابها فى بطء حين تسحر بمنظر أو تتأثر بأمر .

شعر بالتعاسة لما رآه وايقظت التعاسة فى نفسه مخاوف نائمة . فان زوجته لم تظهر أية غيرة من ماتى ولكنها فى الايام الاخيرة أخذت تبدى تذمرا متزايدا من خدمتها للدار . واتخذت سبيلا معوجا لتوجيه نظره الى عدم كفايتها وكانت زينة دائما على ما يصفها أهل ستار كفيلد «متمرضة» واضطر فروم الى الاعتراف بأنها اذا كانت فى صحة سيئة الى الحد الذى تعتقده فى نفسها ، فلابد أن تكون فى حاجة الى ساعد أقوى من ذلك الساعد الذى يستند اليه ليلا فى خفة ، وهما يسيران الى المزرعة . ولم تكن فى ماتى نزعة طبيعية الى تدبير شئون المنزل ، ولم يعالج هو هذا العيب فيها . فهى لا تأخذ هذا العمل مأخذ الجد . وكان من رأى ايتان انها لو تزوجت من رجل تحبه فلابد أن تستيقظ هذه الغريزة النائمة فيها ، فتصير فطائرها وحلواها موضوع فخر فى تلك الجهة ، ولكن الخدمة المنزلية ليست محببة الى نفسها . وكانت فى مبدأ الامر غير موفقة فى الاعمال المنزلية حتى انه لا يستطيع الا الضحك منها ، ولكنها كانت تشاركه فى الضحك وذلك مما زاد فى توثق صداقتهما فبذل ما يستطيع من مجهود لمساعدتها فى مجهوداتها الفاشلة .

كان يستيقظ فى الصباح مثلا ليوقد النار فى المطبخ ، ويحمل الخشب اليه منذ الليل . ويهمل الطاحونة فى سبيل العمل فى مزرعة الدار ليتمكن من مساعدتها فى البيت أثناء النهار بل كان يدلف فى ليالى السبت الى المطبخ ليغسل أرضه وينظفه بعد أن تأوى المراتان الى غرفتهما وقد فاجأته زينة ذات مرة وهو يخض اللبن ، وابتعدت عنه فى صمت بعد أن ألقت عليه نظرة من نظراتها العجيبة

وفى الايام الاخيرة بدت عليهاامارة أخرى من أمارات الاستياء غير ملموسة ، ولكنها تبعث على القلق .. ففى صباح يوم بارد من أيام الشـــتاء كان يرتدى ملابسه فى الظلام بينما كان ضوء الشمعة يتراقص فى الهواء الداخل من خلال نافذة غير محكمة فســـمعها تتكلم خلفه وهى فى السرير وتردد شكواها الدائمة:ـ

« ان الطبيب لا يرغب فى أن ابقى من غير احد يقوم بخدمتى»

كان يظنها نائمة ففوجىء بصوتها ولو أن من عادتها أن تنطلق فى الكلام بعد فترات طويلة من الصمت العميق

فاستدار والتفت نحوها وهى لا تكاد تظهر تحت غطائها وقد اتخـذ وجهها لونا رماديا فوق غطاء المخدة الناصـــع البياض

وكرر سائلا « لا أحد يقوم بخدمتك ! »

قالت « اذا كنت تقول انك لا تستطيع أن تؤجر فتاة بعـــد ذهاب ماتى »

واستدار عنها فروم مرة ثانيه وتناول الموسى وانحنى ليرى صورة خده فى المرآة المعتمـــة امام حوض الغسيل

وسمع صوت زوجته يقول فى نغمة طويلة «أقصد عندما تتزوج»

فأجابها وهو يحلق ذقنه بالموسى « انها لن تتركنا مادمت فى حاجة اليها »

فأجابت زينة فى نغمة تدل على التواضع الاليم «لن أسمح بأن يقال أنى وقفت فى طريق فتاة مثل ماتى ، وحلت بينها وبين الزواج من فتى جميـــل مثل دنيس ايدى »

وحدق ايتان فروم فى وجهه بالمرآة ورمى برأسه الى الخلف ليمر بالموسى من الاذن الى الرقبة . وكانت يده ثابتة ولكنه وجد فى ذاك الاتجاه عذرا يخلصه من الاجابة فى الحال

واستمرت زينة تقول « ولا يريد الطبيب أن أبقى وحيـــدة بغير أحد وطلب منى ان اكلمك فى شأن فتاة سمع بها ويمكن أن تأتى ... »

ووضع ايتان الموسى ووقف معتدلا وقال فى ضحك « دنيس ايدى ؟ اذا كان هذا كل ما يردنى الخاطر فالامر لا يحتاج الى الاسراع فى اختيار فتاة »

قالت زينة فى عناد « ولكنى أحب أن أباحثك فى هذا الامر »

وكان يرتدى ثيابه فى سرعة . فرد عليها قائلا وقد أمسك

بساعته القديمة مقتربا من الشمعة « حسنا ولكن ليس لدى الآن فسحة من الوقت فقد تأخرت »

ويظهر ان زينة قبلت هذا القول على انه خاتمة الحديث وظلت تراقبه فى سكون وهو يضع حمالة السروال على كتفيه ويدخل ذراعيه فى السترة ولكنها حين راته يخطو نحو الباب قالت فجأة فى لهجة المتألمة « اظن انك تتأخر دائما لانك تحلق ذقنك الآن كل صباح ! »

واخافته تلك الغمزة اكثر من اية اشارات غامضة أشارت فيها الى دنيس ايدى فالواقع انه مذ جاءت ماتى سيلفر صار يحلق ذقنه كل يوم ولكنه كان يظن امرأته نائمة حين يترك جانبها فى ظلام ليل الشتاء ويظن فى غباء انها لا تلاحظ فى مظهره تغيرا . وحدث مرة أو مرتين أن أقلقته طريقة زينوبيا فى ترك الامور دون أن يبدو عليها أنها تلاحظها . ثم يتبين بعد أسابيع من جملة عابرة انها كانت تراقبه ، وانها استنتجت ما تريد ، على انه فى الايام الاخيرة لم يكن فى ذهنه مجال لهذه المخاوف الغامضة . وبعد أن كانت زينة لديه حقيقة ماثلة أصبحت مجرد خيال فهو يعيش كل حياته فى مسمع ماتى سيلفر وبصرها . ولم يكن يتصور أن الامر يكون على غير ذلك ، ولكنه الآن وهو واقف خارج الكنيسة ينظر الى ماتى تراقص دنيس ايدى ، هبت فى ذهنه عاصفة من الاشارات والتهديدات لم يحفل بها من قبل .

- ٢ -

اختبأ فروم خلف الباب الخارجي الكبير حين رأى جموع الراقصين تتدفق من الغرفة الواسعة، وظل يراقب ماتي في دثاراتها المتباينة بينما يلقى فانوس متحرك بين فترة وأخرى ضوءا على وجوه احتقنت من تأثير الاكل والرقص . وكان أهل القرية الذين يسيرون على الاقدام الاوائل فى تسلق المنحدر ليبلغوا الشارع الاكبر فيها. أما جيرانهم الذين تقع بيوتهم فى المزارع فكانوا أكثر تؤدة فى الجلوس داخل الزاحفات التى صفت فى الحظيرة

وسمع صوت امرأة من بين الجماعة الملتفين حول الحظيرة تقول « ألا تركبين يا ماتى ؟ » وخفق قلب ابنتان خفقانا قويا وكان فى موقف لا يرى منه الخارجين من غرفة الرقص الا بعد أن يتقدموا بضع خطوات من الجانب الخشبى للباب الخارجى ولكنه سمع من خلاله صوتا صافيا يجيب « رباه ! هل اركب فى مثل هذا الليل ؟»

اذن هى قريبة جدا منه لا يفصلهما الا قطعة سميكة من الخشب وماهى الا لحظة حتى تخرج الى الليل . وتراها عيناه اللتان اعتادتا الظلام كما لو كانت فى وضح النهار . وطغت عليه موجة من الخجل فارتد الى زاوية الحائط المظلمة ، ووقف صامتا بدلا من أن يعلنها بوجوده وكان من عجيب علاقاتهما منذ مبدأ الامر انها وهى الاخف حركة والارق والاقدر تعبيرا قد أمدته بشىء من سماحتها وبساطتها بدلا من أن تحطمه بالتباين بينهما. ولكنه الآن شعر بتهيب وحياء أشبه بما كان يشعر به أيام تلمذته حينما أراد مغازلة الفتيات فى وستر فى احدى الرحلات المدرسية

ظل مختفيا فخرجت وحدها وتوقفت على بعد ياردات قليلة منه . وكانت آخر من غادر البهو تقريبا . ووقفت تنظر حولها فى قلق كأنها تتعجب لانه لم يظهر لها . ثم اقترب منها شبح رجل وكانا فى دثارهما يبدوان كأنهما فى اطار واحد

وقال الشبح فى نغمة مزاح أثارت كراهية فروم : « هل نسيك السيد صديقك هذه الليلة يا مات ! ما أشد هذا ! لن أخبر الفتيات الاخريات بذلك فلست وضيعا الى هذا الحد .

ولكن تأملى اليس من حسن الحظ أنى أتيت بزاحفة الاب معى ! »

وسمع فروم صوت الفتاة العذب وهى تقول : «ماذا تفعل زاحفة أبيك هنالك ! »

قال ايدى وقد أراد أن يضع نغمة عاطفية فى صوته الجرىء « انها تنتظرنى لاركبها وقد جئت بمهره الصغير الارقش ، اذ شعرت بأنى سأرغب فى نزهة ليلية راكبة »

وكأن الفتاة ترددت ورآها فروم تشد طرف غطاء راسها بين اصابعها فى حيرة . ولو أعطى ملك الدنيا لما أبدى لها اشارة فى هذه اللحظة . وقد بدا له أن حياته كلها رهينة بما يصدر عنها بعد ذلك

وصاح دنيس بها وهو يسرع نحو الحظيرة « انتظرى دقيقة حتى اطلق المهر من قيده ! »

ووقفت جامدة تراقب الفتى فى انتظار هادىء كان عذابا للمراقب المختفى . ولاحظ فروم أنها لم تعد تدير راسها من جانب الى جانب كأنها ترتقب شخصا آخر فى الميل بل سمحت لدنيس ايدى بأن يقود المهر ثم يركب الزاحفة ويرفع جلد الدب كى يخلى لها مكانا الى جانبه. ثم حدث أن استدارت منفلتة الى المنحدر الصاعد من أمام باب الكنيسة

ثم التفتت وصاحت قائلة «سعدت مساء أرجو أن تكون نزهتك جميلة »

وضحك دنيس واستحث المهر بسوطه حتى أصبح أمام شبحها المتحرك .

وصاح وقد انحنى خارج الزاحفة مادا يده اليها « هيا ! ادخلى سريعا ! ان هذا المنحدر صعب والانزلاق فيه خطير ! »

فأجابته ضاحكة « سعدت مساء ! سوف لا أركب ! »

وكانا فى تلك الاثناء قد ابتعدا عن مجال سمع فروم فهو لا يستطيع الا أن يتبع شبحهما وهما يتحركان الى أعلى المنحدر وقد رأى دنيس يقفز من الزاحفة بعد لحظة ويذهب نحو الفتاة ، وقد لف اللجام حول ذراع وحاول أن يمسك ذراعها بذراعه الاخرى. لكنها تخلصت منه فى خفة ،وعاد قلب فروم الى مكانه من الاطمئنان بعد أن كان قد أشرف على حافة سوداء . وبعد لحظة

سمع فروم رنين أجراس الزاحفات السائرة . ورأى شبحا يتقدم وحده سائرا فى المتسع المليء بالثلج أمام الكنيسة .

وفى ظلال أشجار فارنوم تمكن من اللحاق بها فاستدارت اليه ونطقت بكلمة استغراب

فسألها فى سرور على استحياء قائلا: « هل ظننت أنى نسيتك يا مات ؟ »

فقالت فى جد : « ظننت من الممكن أنك لا تستطيع العودة من أجلى ! »

فقال : « لا أستطيع! أتظنين من الممكن أن يحول بينى وبين ذلك حائل ؟ »

قالت « انى أعلم أن زينة كانت تشعر باشتداد المرض عليها! »

قال : « انها الآن فى فراشها لا اخاف »

وكان هنـــالك سؤال يدور فى من وقت طويل ! » ثم توقف فترة على المشى وحدك حتى المنزل ؟» خلده ولكنه قال: « هل كنت عازمة

فضحكت وأجابت قائلة : « انى لا أخاف »

وكانا واقفين معا فى ظـلال الاشجار وامامهما فضاء واسـع الارجاء رمادى فى ضوء النجوم فسألها :

« اذا كنت ظننت انى لم احضر فلماذا لم تركبى فى العودة مـع دنيس ايدى ؟ »

فسألته هى : « اين كنت انت وكيف عرفت؟ انى لم اراك مطلقا ؟»

وانطلقت دهشتها وضحكته معا كانطلاق نهير الماء من الثلج تحت وطأة شمس الربيع ،وشعر ايتان بأنه اتى أمـرا يدل على حذق ومهارة ولكى يطيـــل من هذا التأثير ، ظـــل يبحث فى ذهنه عن عبارة براقة مناســـبة فلم يسعفه غير قوله «هيا بنا!»

وشبك ذراعها فى ذراعه كما فعل ايدى وخيل اليه انها ضمت الذراع الى جانبها فى رفق ولكن لم يتحرك احـــد منهما . وكان الظلام مخيما بين الاشجار بحيث لا يكاد يتبين شكل رأسهـا الى جانب كتفه فود لو أنه مس غطاء رأسها بخده ، وود لو أنه وقف طول الليل معها فى هذا الظلام . . وتحـــركت خطـوة أو خطوتين ثم وقفت قبل أن تخطو الى طريق كوربرى المنحـدر الذى غطته الثلوج وترك فيه عدد لا يحصى من الزاحفات آثاره فصار كالمرآة التى شوهها النازلون فى خان قديم

قالت : « لابد أن عددا كبيرا من الناس كان ينزلق قبل أن يغيب القمر »

فسألها : « هل تحبين أن تأتى للانزلاق معهم فى احدى الليالى ؟ »

فصاحت : « هل نأتى معا !اذن يكون ليلا ساحرا .. ! »

فقال: « سنأتى غدا اذا ظهر القمر .. »

وتلكأت وزادت التصاقا به . ـ . « لقد كاد ند هايل وروث فارنوم يصطدمان بشجرة البلوط الكبيرة فى أسفل المنحدر حتى ظننا جميعا انهما لا محالة مقتولان .. ! »

وارتعشت فسرت رعشتها الى ذراعه وتساءلت : « ألايكون هذا الامر فظيعا اذا وقع وهما فى مثل هذه السعادة .. ؟ »

فقال بلهجة الازدراء : « ان ند ليس ماهرا فى توجيه الانزلاق .. ! فلتثقى بأنى أنزلق بك فى أمان .. ! »

وشعر بأنه يتباهى كما فعل دنيس ايدى غير أن شعوره بالسعادة أطاح برزانته كما أن النغمة التى تكلمت بها عن الخطيبين حين قالت « وهما فى مثل هذه السعادة » بدت له كأنها تفكر فى نفسها وفيه ..

وعادت الى الجهر بالقول :« ان هذه الشجرة خطرة مع ذلك ويجب قطعها » .

فسألها : « هل تخشينها حين تكونين معى .. ؟ »

فردت عليه بما يكاد يكون نوعا من عدم الاهتمام : « لقد أخبرتك أنى لست من النوع الذى يخاف من شىء » . وأخذت تسير فجأة فى خطى سريعة ..

كانت هذه التغيرات فى احوالها موضع لذة عند ايان فروم وموضع يأس فليس من السهل التنبؤ بتنقلات عقلها ، فهى شبيهة بتنقل العصفور على الاغصان ولم يكن من حقه ان يظهر عواطفه سافرة نحوها مما يحملها على الاعراب عن عواطفها فكان ذلك داعيا لان يعلق همية خيالية على كل تغيير فى نظرتها أو فى نبرة صوتها . ففى لحظة يظن انها فهمته فيخشى ، وفى لحظة اخرى يعتقد أنها لم تفهمه فييأس . وفى تلك الليلة تجمعت لديه الشكوك فكان الميزان يميل تحت ضغطها الى اليأس . وكان عدم اهتمامها أشد وقعا بعد بهجة الفرح التى غمرته حين رقصت

اصطحاب دنيس ايدى . لذلك صعد تلك المرة الى جانبها فى صمت حتى وصلا الى الطريق المؤدى للطاحونة . وحينئذ ألحت عليه الرغبة فى أن يجد ما يطمئنه فلم يستطع مقاومة تلك الرغبة فتكلم فى تلعثم قائلا : « لقد كنت تجدينني فى الوقت الملائم لو انك لم تعودى فترقصى رقصتك الاخيرة مع دنيس » . ولم يكن لينطق بهذا الاسم دون أن يشعر بانقباض فى أعصاب حلقه .

فتساءلت : « كيف تنتظر يا ايتان أن أعلم بوجودك .. ؟ » وبدلا من أن يجيبها على سؤالها قال فى صوت مرتعش « أظن ما يقوله الناس حقا »

فوقفت فجأة وشعر فى الظلام ان وجهها ارتفع للنظر فى وجهه ، وسألت « وماذا يقول الناس » ..

فقال فى تردد وهو يتابع افكاره : « انه لمن الطبيعى ان تفكرى فى تركنا »

فردت عليه فى سخرية : « أهذا ما يقوله الناس ..؟ » ثم انخفض صوتها العذب المرتفع وقالت فى تمتمة : « انك تقصد أن زينه لم تعد ترانى صالحة !»

وكانت ذراعاهما قد افترقتا ، فوقفا بلاحراك يحاول كل منهما أن يتبين وجه الآخر وتابعت حديثها بينما كان هو يحاول عبثا أن يجد ما يقوله : « انى اعلم أنى لست على مهارة كافية وهنالك اشياء كثيرة تقوم بها الخادمة ولا أحسنها وذراعاى ضعيفتان . ولو أنها أخرتنى بما يجب أن أفعل لحاولت . . ولكنك تعلم أنها قلما تتكلم ، ويبدو لى أحيانا أنها غير راضية دون أن أتبين السبب » . . واستدارت نحوه وصاحت به فى لمحة فجائية من الغضب : « كان عليك أن تخبرنى الا اذا كنت أنت ايضا راغبا فى رحيلى ! »

راغب فى رحيلها .. ! كانت هذه الصراحة بلسما لجرحه الدامى فكأن أبواب السماء فتحت وامطرته بالغبطة وحاول مرة اخرى ان يجد كلمة تعبر عن شعوره .. ولم يجد مرة أخرى الا أن يشبك ذراعها فى ذراعه ويقول : « هيا بنا » !

وسار فى صمت يقطع الطريق المظلل بأشجار الهملوك حيث كانت طاحونة قطع الاخشاب التى يملكها تبرز فى ظلمة الليل

ثم خرجا مرة اخرى الى ضوء نسبى بين المزارع وظهرت امامهما على الجانب الآخر مجموعة الاشجار التى تحف بالمزارع المنبسطة رمادية اللون فى وحدتها وامتدادها تحت النجوم ، وكان طريقهما يؤدى بهما أحيانا الى ظل أشجار متكاثفة ، واحيانا تحت الظلال الخفيفة لمجموعة من الاشجار التى عريت عن اوراقها . ويبدو هنا وهناك بين الحقول منزل ريفى موحش وصامت كأنه مقبرة من المقابر . وكان سكون الليل شاملا حتى ليسمعان تكسر الثلوج تحت اقدامهما ، وكان لسقوط غصن ناء بحمولته من الثلج فى الغاب صدى يشبه طلقات الغدارة . وذات مرة نبح ثعلب فذعرت ماتى واقتربت من ايتان وزادت سرعة خطواتها ..

واخيرا شاهدا مجموعة الاشجار الباسقة النحيلة القريبة من مدخل دار ايتان فكان شعوره بقرب انتهاء السير مما أعاد اليه الالفاظ ..

فسألها : اذن لا تريدين فراقنا يا ماتى .. ؟ !

واضطر الى احناء رأسه ليستمع تمتمتها الخافتة وهى تقول « واين اذهب لو أردت ذلك .. ؟ »

وكان لهذا الجواب وخز فى نفسه . ولكن النغمة التى قيل بها ملأت نفسه سرورا . فنسى ما كان يريد ان يقول وضغط عليها ضغطا شديدا حتى احس بحرارة جسمها تسرى الى عروقه

وسألها : « هل تبكين يا ماتى .. ؟ »

فقالت فى صوت مرتعش : « لا .. ! أؤكد انى لا ابكى .. : »

وولجا باب المزرعة ومرا بالسور القصير الذى كان يحيط بمقابر اسرة فروم وبدت أحجارها معوجة ذات زوايا عجيبة بين الثلوج ، ونظر ايتان الى تلك القبور فى تطلع اذ ظلت تلك الصحة الهادئة منذ سنوات تسخر من اضطرابه ورغبته فى التغيير والحرية . وكأنه كتب على كل حجر من هذه الاحجار : « انا لم تتمكن من الرحيل ، فكيف تريد أنت ذلك ؟ » وكان كلما دخل او خرج من الباب الخارجى للدار يمر فى ذهنه خاطر يرتعش له ، وهو « سأظل مقيما هنا الى ان اضم اليهم » . اما الآن فقد تلاشت كل رغبة لديه فى التغيير . وامده منظر هذه الارض المسورة باحساس عميق هو الرغبة فى الاستمرار والثبات .

وهمس قائلا لها : « اظن اننا لن ندعك تذهبين يا مات ! »

وكأن الموتى الذين كان من بينهم عشاق سيتآمرون معه على بقائها ، وفكر وهو يمر الى جانب هذه القبور : « سنظل فى هذه الحياة هنا معا وسترقد يوما ما الى جانبى هناك »

وتملكته تلك الفكرة وهو يصعد التل المؤدى الى الدار . ولم يشعر من قبل بمثل ما شعر به الآن من سعادة اذ اطلق لنفسه العنان لكى تجرى فى مثل هذه الاحلام . وفى منتصف الطريق الصاعد الى البيت تعثرت ماتى فى شىء لم تتنبه اليه فجذبت كمه كى تثبت من قدميها . وكانت موجة الحرارة التى سرت منها اليه كأنها امتداد الاحلام ؛ ولاول مرة احاطها بذراعه فلم تمانع وسارا وكأنهما يسيران على ضفة نهر فى الصيف .

كان من عادة زينه ان تأوى الى فراشها بمجرد تناولها طعام العشاء ، فتظلم نوافذ المنزل التى لا تغطيها الاخشاب وكانت أغصان جافة من نبات الخيار تتدلى على باب الدار . وكأنها القماش الشفاف الاسود الذى يعلق على باب الدور حين تحدث فيها وفاة .. ومر بذهن ايتان خاطر سريع .. ان هذه كانت شارة الحداد على زينة ، وارتسمت أمام عينيه صورة زوجته مستغرقة فى النوم بفراشها وقد فغرت فاها قليلا ، ووضعت اسنانها الصناعية فى قدح الى جانب الفراش ..

ودارا حول الدار الى خلفها مخترقين أحراش التوت المستقيمة وكان من عادة زينه حين يعودان من القرية فى وقت متأخر ان تضع مفتاح المطبخ تحت المسرجة أمام بابه . ووقف ايتان أمام الباب وراسه لا يزال مليئا بالاحلام وذراعه ملتفة حول ماتى وابتدأ يقول : « ماتى ! » وكان لا يعلم ماذا يريد أن يقول

وتخلصت ماتى من ذراعه فى صمت فانحنى يبحث عن المفتاح

ولكنه عاد فانتصب قائما ، وقال فى دهشة : « انه ليس فى مكانه » ..

واخذ كل منهما يحدق فى صاحبه بقدر ما يسمح الظلام الجاثم فان هذا الامر لم يحدث قط من قبل .

وقالت ماتى فى همسة مرتعشة : « من المحتمل أن تكون قد نسيت » .. ولكن كلا منهما كان يعلم ان ليس من شأن زينه أن تنسى .. !

وعادت ماتى تقول بعد صمت أطالا فيه السمع : « لربما انزلق الى الثلج »..

فقال فى النغمة ذاتها : « أذن يكون احد الناس قد دفع به بعيدا » ، وخطر له خاطر عجيب آخر : « ماذا يكون لو ان جماعة من الاشرار انسلوا الى الدار ؟ وماذا يكون لو أنهم .... »

وعاد يتصنت وقد خيل اليه أنه يسمع صوتا بعيدا فى الدار ثم بحث عن عود من الثقاب فى جيبه وأشعله .. ثم ركع وهو يبحث على ضوئه بين الثلج المتجمع عند الباب ..

وكان لايزال راكعا حين رأت عيناه وهو فى مستوى الحافة السفلى للباب بصيص نور خافت من أسفله ، فمنذا الذى يتحرك فى هذه الدار الساكنة .. ؟ لقد سمع خطوة على السلم وعادت اليه فكرة الاشرار .. ثم فتح الباب ورأى زوجته ..

ظهر شبحها طويلا عريضا فى ظلام المطبخ وهى تمسك بمخدة من الريش تضعها على صدرها بيد ، وباليد الاخرى تمسك مصباحا ، وكان الضوء فى مستوى ذقنها فظهر نحرها المجعد وبرزت عظام اليد التى تقبض على المخدة وزاد ضوء المصباح فى بروز عظام وجهها تحت مشابك الشعر . وكان ايتان لايزال تحت تأثير حلمه الجميل فى تلك الساعة التى أمضاها مع ماتى فكان لهذا المنظر امامه وقع ثابت كأنه نهاية الحلم قبل اليقظة ، وشعر كأنه لم يعرف من قبل منظر زوجته أبدا ..

وتنحت لهما عن الطريق دون أن تتكلم فنفذت ماتى ونفذ ايتان الى المطهى ، وكان فى برودة القبو الرطب بعد البرد الجاف فى الليل .

وقال ايتان محاولا المزاح وهو يزيل الثلج عن حذائه : «لقد نسيتنا يا زينه »

قالت : « لا .. ! لقد تحرك على المرض ، فلم أستطع اليوم»

وتقدمت ماتى ورفعت عن نفسها دثارها وكانت شعثاء وخداها بلون دثار الرأس القانى وقالت : « انى لآسفة على ذلك فهل أستطيع يا زينه أن أفعل شيئا يخفف آلامك .. ؟ »

وأشاحت زينة بوجهها عنها وهى تقول : « لا ..! لا شىء » ثم قالت لزوجها : « كان يجب أن تنفض هذا الثلج فى الخارج»

وسارت أمامهما خارجة من المطهى وتمهلت فى البهو رافعة المصباح بطول ذراعها كأنها تريد اضاءة السلم لهما ..

وتمهل ايتان فترة وقد زعم أنه يبحث عن المسمار الذى يعلق عليه معطفه وقبعته . وكان بابا غرفتى النوم متقابلين فى أعلى السلم ، وقد كره فى هذه الليلة بنوع خاص ان تراه ماتى وهو يتبع زينه الى غرفتهما ..

قال وهو يستدير ليعود الى المطهى : « أظن أنى لن اجىء الا بعد لحظة .. ! »

وتوقفت زينه فجأة ، ونظرت اليه قائلة : « لا ادرى ماذا تريد أن تفعل فى المطهى .. ؟ »

وظلت تحدق فيه وكان ضوء المصباح السافر يظهر بوضوح قاس تجاعيد وجهها فى نجهه

وقالت : « فى هذا الوقت من الليل ستموت بردا فقد انطفأ النار من زمن بعيد » .

فلم يجبها وتحرك عائدا الى المطهى . ووقع نظره على ماتى فخيل اليه أنه يرى بين هدابها نظرة تحذير عابرة ثم خفضت نظرتها وبلغت الاهداب خدها المتوردين ، وأخذت تصعد السلم قبل زينه .

وحينئذ أبدى ايتان رضوخه قائلا : « حقا ان الجو شديد الرطوبة هنا » وعاد يصعد السلم خافض الرأس وراء زوجته وتبعها الى غرفة النوم .

- ٣ -

كان على ايتان أن يحتطب فى الجهة السفلى لغابة الاخشاب، فخرج مبكرا فى الصباح .

وكان الصباح فى ذلك الشتاء صاحيا كالبلور . وقد بدا وهج الشمس فى السماء الصافية بينما كانت الظلال فى حدود الغابة زرقاء مظلمة ، وترى فيما وراء الحقول البيضاء اللامعة بقعا من الغابات البعيدة تبدو كالدخان .

ويكون ايتان اصفى ما يكون ذهنا وتفكيرا فى هدوء الصباح الباكر حين تهتز أعصابه فى حركة عمله المألوف .. وتمتلىء رئتاه بجرعات كبيرة من هواء الجبل وقد رأينا باب الغرفة يقفل فى الليلة السابقة عليه وزوجته . ولكنهما لم يتبادلا كلمة بعد ذلك فقد صبت عدة نقط من زجاجة دواء كانت موضوعة فوق كرسى الى جانب سريرها ، وابتلعت الدواء ولفت رأسها بقطعة من الصوف الاصفر ، ورقدت ، وأشاحت بوجهها الى الجهة الاخرى ، وخلع ايتان ملابسه فى سرعة وأطفأ النور كى لا يراها حين يأخذ مكانه الى جانبها . وكان فى مرقده يسمع ماتى تتحرك فى غرفتها وترسل شمعتها ضوءا خافتا يصل الى السلم ويرسم خطا من النور لا يكاد يستبين تحت باب غرفته وظل مثبتا عينيه فى هذا النور الى ان اختفى وساد الظلام ؛ ولم يعد يسمع صوتا غير تنفس زينه الثقيل بتأثير الربو . وشعر ايتان فى اضطراب أن هنالك أشياء كثيرة يجب ان يفكر فيها ولكن عروقه النافرة لم تنبض بغير شعور واحد هو حرارة كتف ماتى وهى ملتصقة بكتفه فلماذا لم يقبلها وهو ممسك بها عندئذ .. ؟ لم يكن ليسأل هذا السؤال قبل ساعات قلائل ، بل لم يكن يجرؤ على التفكير فى تقبيلها قبل دقائق قليلة ، وهما واقفان فى وحدتهما خارج الباب ، ولكنه منذ رأى شفتيها فى ضوء مصباح زوجته شعر بأن هاتين الشفتين خلقتا له ..

والآن فى جو الصباح اللامع لا يزال وجهها يلازمه .. وهو جزء من حمرة الشمس وبريق الثلج الساطع . وما اكبر تغير الفتاة منذ مجيئها الى ستاركفيلد : لقد تذكر كيف كانت

انسانا لا لون له حين رآها فى أول يوم عندما قابلها فى المحطة وكيف ظلت ترتعش بردا فى الشتاء الاول حين كانت عواصف الشمال تهز الواح السقف الخشبى .. وتدق الثلوج دقا .. فى انصبابها على النوافذ غير المحكمة

كان يخشى أن تكره هذه الحياة الصعبة بين البرد والوحدة ولكن لم تصدر عنها علامة واحدة على عدم الرضا . وكان من رأى زينه أن ماتى لابد أن تقبل قرية ستار كفيلد على علاتها فليس لها مأوى آخر . ولكن ايتان لم يقر هذا الرأى على أنه حقيقة نهائية فان زينة على الاقل لم تطبق هذا المدافيما يتعلق بنفسها ..

ولقد شعر بالشفقة على الفتاة لان المصائب ربطتها اليهما نوعاما . فان ماتى سيلفر كانت ابنة لاحد ابناء عمة زنوبيا فروم وكان قد أثار فى أهله مزيجا من الحسد والاعجاب ، لانه نزل من تلال كولكتيكوت وتزوج بفتاة من اهل بلدة ستامفورد ثم ورث عمل ابيها ، وهو صاحب حانوت بقالة وادوية ملىء ، على ان سيلفر أباها ، وقد كان رجلا بعيد المطامع ، توفى لسوء الحظ قبل أن تتاح له الفرصة ليثبت عبقريته فى أن الغاية تبرر الوسيلة ، وتبين من سجلات حسابه ماهى هذه الوسيلة . وكان من حسن حظ امرأته وابنته ان هذه السجلات لم تفحص الا بعد جنازته الحافلة ، وماتت امرأته وتركت ماتى وحيدة ، وهى فى العشرين من عمرها ، لتشق طريقها فى الحياة بخمسين دولارا هى ثمن بيع آلة البيانو . وكانت تجاربها فى الحياة متنوعة الا انها كانت كافية ، فهى تستطيع تزيين قبعة وعمل نوع من الحلوى العسلية . وتستطيع أن تنشد الانشودة القائلة « لن تقرع أجراس الموتى فى هذا الليل » كما تستطيع ان تغنى انشودة « الوتر المفقود » وأناشيد من « كارمن » ، ولكنها حين أرادت أن تنتقل بميدان نشاطها الى مجال الكتابة على الآلة الكاتبة وامساك الدفاتر لم تحتمل صحتها هذا العناء . ولم يكن عملها وهى على قدميها مدة ستة أشهر مما يساعدها على استرداد صحتها وكان أقرب أقربائها قد اقنعوا بأن يضعوا ما جمعوه من مال بين يدى أبيها .. واذا كانوا بعد موته قد قاموا بلا تردد واجبهم المسيحى ، وقابلوا الشر بالخير فقدموا للفتاة كل ما قدروا عليه

من نصائح ، الا أنه لم يكن ينتظر منهم ، والحالة هذه أن يقرنوا هذا النصح بالمساعدة المادية . فلما أشار الطبيب على زنوبيا بأن تبحث عمن يساعدها في الاعمال المنزلية رأى القوم ان الفرصة سانحة كي يحصلوا على شيء من التعويض من ماتي .. وكانت زينوبيا تشك في مقدرة الفتاة على العمل . ولكن غرها الفكرة بأنها ستستطيع ان تكون حرة في تأنيب الفتاة على أخطائها، دون أن تكون معرضة لفقدها وهكذا جاءت ماتي الى ستار كفيلد .

وكان التأنيب عند زينوبيا من النوع الصامت ولكنه ليس لهذا السبب أقل ايلاما ، وكان ايتان في الاشهر الاولى مورما بين الرغبة في أن يرى ماتي تتحدى زوجته وبين الخوف النتيجة .. ثم صار الموقف اقل توترا فان الهواء الطلق وساعات الصيف الطويلة في الفضاء أعادت الى ماتي الحياة والمرونة وصارت زينه أقل مراقبة لتقصير الفتاة اذ زادت أمامها فسحة الوقت الذي تقضيه في معالجة امراضها المعقدة ، فخيل الى ايتان ، وهو يعمل جاهدا ، ويكاد ينوء بعبء مزرعته المجدبة ، وطاحونة نشر الاخشاب التي لا تربح ، ان السلام مخيم في الدار .

ولم يظهر في الواقع الى ذلك الوقت أي دليل ملموس يخلف ظنه ، ولكن منذ الليلة السابقة خيم على الافق جو غامض من الخوف نشأ عن اصرار زينه على الصمت .. ونظرة التحذير الفجائية من ماتي ، وعن ذكريات عابرة لا يكاد المرء يشعر بها ، وكأنها تلك النذر التي تنبئه في صباح بعض الايام الصافية أن الليل لا يأتي حتى ينهمر المطر .

كان خوفه شديدا ، وأراد ان يرجيء الوصول الى الحقيقة ـ كشأن بني الانسان ـ فظل منهمكا في قطع الاخشاب الى الظهيرة . ولما كانت هذه الاخشاب قد أعدت للمقاول اندرو هايل فقد كان من ابسط الامور أن يرسل يوتام باول الرجل الاجير الى مزرعته ماشيا وينزل هو نفسه بالمركبة الى القرية حاملا الاخشاب معه ، وكان قد تسلق فوق كتل الاخشاب واتخذ له مقعدا بالقرب من جواديه الرماديين حين ارتسمت امامه بين عنقيهما نظرة التحذير التي رمقته بها ماتي في الليلة السابقة .

وجاءه خاطر غامض بأنه يفضل أن يكون بالدار لو حدثت متاعب فأمر بوتام أمرا غير منتظر بأن يحل الجوادين من المركبة ويسير بهما الى حظيرتهما ..

وعادا فى بطء يسيران بالجوادين بين الحقول وحين دخل الرجلان الى المطهى كانت ماتى تحمل القهوة من الموقد وكانت زينه جالسة الى المائدة ، وبوغت زوجها برؤيتها فقد كانت مرتدية خير ثيابها ، وهو ثوب من صوف المارنيو الاسمر بدلا من ثوب البيت المصنوع من الشيت ، وبدلا من الشال الذى تضعه فوق كتفيها . ووضعت فوق شعرها المتموج قعز الدبابيس الخاصة ، قبعة عالية جامدة يذكر ايتان انه انفق فى شرائها من محل الازياء ببتسبريدج خمسة دولارات . وكان الى جانبها على الارض حقيبته القديمة وصندوق يدوى صغير لف فى جرائد .

فصاح : « الى أين يازينه ؟»

أجابت فى نغمة واقعية وكأنها تعلن انها ذاهبة الى غرفة خزن المأكولات ، او صاعدة الى سطح الدار للاشراف على الاغطية المنشورة : « لقد اشتدت بى الآلام ، وسأذهب الى بتسبريدج لامضى الليلة عند خالتى مارتا بيرز واستشير الطبيب الجديد .. ! »

لم تكن تلك القرارات الفجائية بجديدة عليه فى حياته مع زينه بالرغم من طول ملازمتها للدار .. فقد حدث قبل ذلك مرتين او ثلاثا ان حملت حقيبته فجأة وسافرت الى بتسبريدج أو سبرنجفيلد لاستشارة طبيب جديد ، وكان زوجها يخشى مثل هذه الرحلات لما يتحمله فى سبيلها من نفقات ، وكانت زينه تعود منها وفى جعبتها أدوية غالية الثمن ، وقد رسخت زيارتها الاخيرة لسبرنجفيلد فى ذاكرته اذانها عادت بعد أن دفعت عشرين دولارا ثمنا لبطارية كهربائيه لم تعرف مطلقا كيف تستعملها . على أن شعور الارتياح فى المرة الحاضرة كان طاغيا على المشاعر الاخرى ولم تنتبه الشكوك فى صدق قول زينه وانها فى الليلة السابقة لم تغمض جفنيها بسبب آلامها . وان قرارها الفجائى بزيارة الطبيب أمر طبيعى لانها كعادتها لاتهتم لغير صحتها .

وكأنها كانت تنتظر مراجعته لها فى السفن فعادت الى القول: « اذا كنت لاتجد فراغا من قطع الاخشاب ، فأظنك تستطيع أن تسمح لبوتام بأن يسير بى بالزاحفة والجواد الاسمر كى اركب القطار من المنبسطات ».

ولم يكن زوجها يستمع لما تقول وكانت المركبات السيارة بين ستاركفيلد وبتسبريدج تنقطع عن السير فى الشتاء ، وتقف القطارات عند منبسطات كه ربرى، وهى قطارات بطيئة وقليلة . وتبين لايتان بتقدير سريع أن زينه لن تعود الى المزرعة ، قبل مساء اليوم التالى ...

وعادت زينه تقول ، وكأن صمته ينطوى على الرفض . وكانت الكلمات تتدفق منها دائما عندما تكون على أهبة الرحيل :

« لم أكن أظن أنك تعترض على أن يذهب بوتام باول بى فى المركبة أن كل ما أعرفه هو أنى لا أستطيع الصبر على ما أنا فيه أكثر من ذلك فان الآلام قد وصلت الآن الى ركبتى ، ولولا هذا لمشيت حتى ستاركفيلد على الاقدام بدلا من ارهاقك . ثم أطلب من ميكائيل ابدى أن ينقلنى فى مركبته الى المنبسطات حين يرسلها لتأتى له ببضاعته وحينئذ انتظر القطار ساعتين فى المحطة . ولكنى أفضل ذلك على أن تقول .. »

فتنبه ايتان لنفسه بحيث استطاع أن يجيب « ان وهام سيذهب بك بلا ريب » وقد شعر فجأة أنه ينعم النظر فى ماتى بينما زينه تحادثه ، وبذل جهدا كى يوجه نظرته الى زوجته ، وقد جلست أمام النافذة ورا النور الباهت المنبعث من جموع الثلج، فى تقلص وجهها واصفراره، وأظهر بوضوح تلك التجاعيد الثلاثة المتوازية بين الاذن والخد ورسم خطوطا أخرى من الانف النحيل الى جوانب الفم . ولم تكن زينه تكبر زوجها بأكثر من سبع سنوات ، وكان ايتان فى الثامنة والعشرين من عمره ومع ذلك بدت عليها علائم الكهولة .

وحاول ايتان جاهدا أن يقول شيئا مناسبا ، ولكن عقله أبى أن يفكر الا فى شىء واحد : هو أن زينه ستغيب ليلة لاول مرة مذ جاءت ماتى لتعيش بينهما . وقد ساءل نفسه هل تفكر الفتاة فى هذا الامر أيضا ؟..

وكان يعلم أن زينه تسائل نفسها : لم لم يعرض أخذها بالمركبة الى المنبسطات ، ويرك يوهام باول ليقوم بنقل الاخشاب الى ستاركفيلد ؟ ولم يهتد فى بادىء الامر الى حجة يتعلل بها للتخلص من هذا الواجب ثم قال : « كنت أود أن أذهب بك بنفسى لو لم أكن مضطرا لجمع ثمن الاخشاب »

وما نطق بهذه الكلمات حتى ندم عليها ـ لا لمجرد أنه غير صادق فيها اذ لم يكن من المنتظر أن يدفع هايل الثمن فى الحال ـ بل لانه عرف بالتجربة انه ليس من الحكمة ان تظن زينه أن سيكون لديه أموال قبل سفرها فى احدى هذه الرحلات العلاجية . على أنه فى تلك اللحظة لم يك يرغب فى شىء مثل رغبته فى تجنب الركوب بعد مدة طويلة خلف الجواد الهرم الذى لايقوى على غير المشى

ولم تجب زنيه وكأنها لم تسمع ماقاله ، وكانت قد نحت صفحة طعامها جانبا واخذت تقيس جرعة دواء من زجاجة كبيرة على مقربة منها

ثم قالت : « انى لم استفد من هذا الدواء أية فائدة ومع ذلك يجب أن أشرب بقية الزجاجة » ثم أزاحت الزجاجة الفارغة ناحية ماتى وقالت « ان هذه الزجاجة تصلح للمخللات اذا امكنك ازالة طعم الدواء منها »

ماسارت الزوجة فى طريق رحلتها حتى تناول ايتان سترته وقبعته من الشماعة وكانت ماتى تغسل الاطباق وهى تترنم بأحدى الالحان الراقصة التى سمعتها فى الليلة السابقة . فقال لها : « ها نحن بعد وقت طويل ياماتى ! » فأجابت فى سرور : «بعد وقت طويل يا ايتان !» وكان هذا كل ماقالاه

كان الجو دافئا براقا فى المطهى .. وخيوط الشمس تخترق النافذة الجنوبية الى الفتاة ، والى الهرة النائمة على الكرسى .. والى أزهار الجيرانيوم التى نقلت من مدخل الباب حيث زرعها ايتان فى الصيف لينشىء حديقة لماتى . ولكنه كان أشد رغبة فى تقطيع الاخشاب والعودة الى المزرعة قبل الليل

وكان على طول الرطيق فى ذهابه يفكر فى ماتى . وكان المطهى مكانا حقيرا غير منظم ولا لامع لا كما عرفه فى طفولته حين كانت ترعاه أمه ، ولكن من المدهش أنه صار مكانا ترتاح اليه النفس لمجرد غياب زينه عنه . ولاول مرة ينفرد الاثنان فى داخل الدار ويجلس كل منهما على جانب من جانبى الموقد كانهما زوجان : هو لايغطى قدميه الا بالجوارب ويدخن غليونه ، وهى تضحك وتتحدث فى فكاهتها المعهودة التى كانت لها عنده طلاوة وكأنه لم يسمعها من قبل

لقد طابت نفسه بحلاوة تلك الصورة واطمأن اذ تبين ان مخاوفه مما قد تحدثه زينه من « متاعب » ليس لها اساس فأخذ ، وهو الذى يلزم الصمت عادة يصفر ويغنى بصوت عال وهو يسوق زاحفته قاطعا الحقول المجللة بالثلج . ولقد بقيت فيه شرارة نائمة من الميل الى معاشرة الناس لم تقتلها فصول الشتاء الطويلة فى ستار كفيلد . وكان بطبيعته يميل الى الجد ولا يتكلم كثيرا لذلك يجب اعجابا كبيرا بالجراة والمرح فى الآخرين ويؤثر فيه الاتصال الودى تأثيرا شديدا . ولقد اشتهر فى وستر بأنه منطو على نفسه وانه لايشارك كثيرا فى اللهو ولكنه كان فى الحقيقة فخورا اذ كان رفقاؤه يقرعون ظهره وينادونه قائلين « يا ابتى الكهل » أو « أيها الكهل الجامد! » وكان وقف هذه العلامات الدالة على الزمالة فى ستار كفيلد مما زاد شعوره بالوحدة

وزاد صمته سنة بعد سنة فقد ترك وحيدا يحمل عباء المزرعة وطاحونة الاخشاب بعد حادث والده فلم يعد لديه الوقت لاجتماعات اللهو فى القرية . ثم مرضت والدته فصارت الوحدة فى الدار أشد وحشة منها فى الحقول . وكانت أمه تحب الحديث فى أيامها ولكنها بعد « متاعبها » صار صوتها لا يسمع الا نادرا ، وان لم تفقد القدرة على الكلام . وكانت أحيانا فى ليالى الشتاء الطويلة حين سألها انها فى يأسه : لماذا لا تقول شيئا؟ ترفع أصبعها وتجيب : « لانى نصت ! » . وفى الليالى العاصفة حين يخترق جوانب الدار صفير الريح تشكو اليه اذا تحدث قائلة : « انهم يجأرون بالحديث هنالك فلا اسمعك »

ولم يعد يسمع حديث انسان فى تلك الدار الا فى أواخر ايام مرض أمه : حين جاءت ابنة خالته زنوبيا سبيرز من الوادى الآخر لتساعده فى تمريضها .. وكان حديث زينه ولغوها بعد السكوت المميت الذى أحاط به طويلا فى سجنه ، كأنه الموسيقى فى أذنيه . وقد شعر أنه كان على وشك أن يصاب مثل أمه لو لم يأت صوت جديد ليعيد اليه عقله . ويظهر أن زينه فهمت حالته لاول وهلة ، فكانت تضحك منه لانه لا يعرف أبسط واجبات التمريض وتطلب منه أن يبارح الدار فى الحال ، ويتركها لتنظيم الامور . وكان مجرد اطاعته لاوامرها وشعوره بالحرية فى العودة الى عمله ثانية والتحدث الى امثاله من الرجال مما أعاد اليه توازنه ، فبالغ فى شعوره بفضلها عليه . وقد أخجلته مهارتها وأدهشته ، وبدا له كأنها حائزة بالغريزة لكل الفضائل المنزلية التى لم يستطع اكتسابها مع طول مرانه . وحين جاءت النهاية كانت هى التى طلبت منه أن يتشجع ويذهب لاحضار اللحاد . وأعربت عن دهشتها اذ لم يقرر من قبل لمن يعطى ثياب أمه وآلة الحياكة التى تمتلكها . ولما رآها بعد الجنازة تستعد للرحيل تملكه جزع لا يقاوم من أن يظل وحيدا فى المزرعة ، فطلب منها أن تبقى الى جانبه دون أن يدرى ماهو فاعل . وكان كثيرا ما يفكر ان هذا لم يكن ليحدث لو ان والدته توفيت فى الربيع بدلا من الشتاء

وقد اتفقا بعد زواجهما على انهما بمجرد ازالة الصعوبات التى

نشأت من طول مرض السيدة فروم ، يبيعان المزرعة وطاحونة الاخشاب ويذهبان ليجربا حظهما فى مدينة كبيرة . ولم يكن حب ايتان للطبيعة يتخذ شكل الميل للزراعة . فقد كان يرغب دائما فى أن يكون مهندسا ويسكن المدن ، حيث المحاضرات والمكتبات الكبيرة ، وحيث يوجد اناس يفامرون ويعملون . وكان قد مارس عملا هندسيا صغيرا فى فلوريدا وكل اليه اثناء دراسته فى وستر . فزاده العمل ايمانا فى مقدرته وأذكى عنده الرغبة فى أن يرى بلاد العالم . وكان على ثقة من أنه مع زوجة «نشيطة» تعاونه مثل زينه لا يمضى وقت طويل حتى يخلق لنفسه مركزا

وكانت القرية التى نشأت فيها زينه اكبر قليلا من ستار كفيلد واقرب الى السكة الحديدية . وقد افهمت زوجها من البداية أن الحياة فى مزرعة منفردة ليس ماتنتظره بعد زواجها . ولكن الشاريين لم يسرعوا للشراء ، وبينما ايتان ينتظرهم تبين له انه من المستحيل الانتقال بها الى جهة اخرى . فلقد اختارت ان تنظر بعين الاحتقار الى ستار كفيلد ولكنها لاتستطيع السكنى فى مكان لايحفل بها ، ولو انتقلت الى بلاد صغيرة كبسبريدج أو منحدرات شار لما شعرت بها تلك البلاد . ولوانها ذهبت الى مدن أكبر من ذلك وهي التي تجذب ايتان لفقدت شخصيتها تماما . ولم تمض سنة على زواجهما حتى بدت عليها أعراض هذا « المرض المستمر » الذى جعلها معروفة حتى بين جماعة القرية الغنية بالحالات المرضية . وكانت تمثل الصحة التامة لدى ايتان حين جاءت لتعنى بأمه ولكنه مالبث أن رأى أن مهارتها كممرضة اكتسبت من ملاحظة أحوال مرضها نفسه

ثم أصيبت هى أيضا بالصمم ولعله النتيجة المحتومة لتأثير الحياة فى المزرعة ، أو ربما كما تقول أحيانا : لان ايتان لايحسن الاستماع . ولم تكن هذه التهمة بغير أساس فهى لاتتكلم الا بالشكوى ، وتشكو من أشياء ليس فى مقدوره علاجها . ولكى يوقف لديه الميل الى الاجابة التى تدل على الامتعاض ، تكونت لديه عادة عدم الرد ، ثم عادة التفكير فى غير ماتتكلم فيه ، وهى تتحدث اليه . ولكنه فى الايام الاخيرة قامت لديه الاسباب

لمراقبتها عن كثب ، فقد اخذ صمتها يثير هواجسه . وتذكر ما اعترى أمه من صمت متزايد فسأل نفسه : هل اصيبت زينه أيضا « بالخبل » . وهى حال تصيب النساء كثيرا . وقد ذكرت زينه التى تعرف المرضى فى تلك المنطقة حق المعرفة حالات كثيرة من هذا النوع وهى مرض أمه . وهو نفسه يعرف بعض المزارع المنفردة فى الاراضى المحاورة حيث يذوى مصابون بهذا المرض ، وحيث وقعت مآس فجائية فى مزارع أخرى من اثر وجودهم . وفى بعض الاحيان كان يبدو له ان صمتها يخفى أغراضا بعيدة وله نتائج خفية .. وقد قام فى نفسها شك واستياء من أمور من المستحيل معرفتها . وقد قلق لهذا الفرض أكثر من قلقه للمرض . فكان هذا الاحتمال هو الذى تسلط عليه حين رآها واقفة عند باب المطهى

والآن وقد رحلت الى تسمبريدج هذا باله وتحولت أفكاره الى فرصة المساء مع ماتى . ولم يعد يشغل فكره الا قوله لزينه انه سيتسلم ثمن الاخشاب .. ولقد وضحت نتائج هذا لتهور جلية امامه حتى انه قبل بعد تردد كثير أن يسأل اندرو هايل ان يقدم له جزءا من الثمن

دخل ايتان بزاحفته الى ساحة منزل هايل ، وكان هذا المقاول ينزل من زاحفته

فقال : « مرحى يا ايتي ! انك اتيت بالاخشاب فى وقتها »

وكان اندرو هايل رجلا ممتلىء الوجه أحمره ، له شاربان كبيران وخطهما الشيب ورقبة قصيره مترهلة لاتضايقها ياقة . ولكن قميصه النظيف نظافة تامة ذو دائما يضم بمشبك ماسى صغير . على أن هذا المظهر من مظاهر الثراء لم يكن حقيقيا . فهو يقوم بأعمال كثيرة ولكنه مع ذلك سهل فى الانفاق ، ومطالب اسرته الكبيرة جعلته فى رأى أهل ستار كفيلد « متأخرا » . وكان صديقا قديما لاسرة ايتان وداره هى احدى الدور التى تزورها زينه أحيانا ، لعلمها ان السيدة هايل كانت فى شبابها تعلم من امر الامراض أكثر من أية امرأة أخرى فى ستار كفيلد . ولا تزال مشهورة بمعرفة وصف الامراض ووسائل علاجها

وذهب هايل الى الجوادين الرماديين وربت على مؤخرتهما وقال انك ياسيدى تعنى بهما عنايتك بحيوان أليف

واخذ ايتان ينزل الاخشاب فاذا أتم عمله فتح الباب الزجاجى للحظيرة التى يستعملها المقاول مكتبا وكان هايل قد جلس ومد قدميه نحو الموقد واسند ظهره الى منضدة قديمة نناثرت عليها الاوراق وكان المكان كصاحبه دافئا سمحا وغير منتظم

ورحب بايتان قائلا « اجلس ومد قامتك ! »

ولم يعرف الآخر كيف يبدىء الحديث . ولكنه أخيرا أعرب عن رغبته فى الحصول على خمسين دولارا ورأى دهشة هايل لذلك الطلب . فصعد الدم لجلده الرقيق تحت لذعة هذه الدهشة وكان من عادة المقاول أن يدفع بعد ثلاثة أشهر ولم يتحدث بينهما من قبل أن دفع الرجل الثمن بمجرد تسلمه الاخشاب .

وشعر ايتان انه لو ألح لحاجته العاجلة ، فان هايل قد يضغط نفسه ليدفع له ماطلبه . ولكن كبرياءه وغريزة الحذر فيه حالا دون استعماله هذه الحجة . فلقد مضت فترة من الوقت بعد وفاة أبيه قبل أن يستطيع رفع رأسه فوق الماء ولم يكن يريد أن يظن اندروهايل أو غيره من أهل سنار كفيلد ، انه ينحدر نحو الغرق مرة ثانية . ثم انه يكره الكذب فاذا كانت به حاجة للمال فذلك لانه فى حاجة اليه وليس من شأن أى انسان أن يسأله . لذلك نراه قد طلب هذا الطلب فى شىء من عدم التوفيق الملازم للرجل المتكبر الذى لايريد أن يعترف لنفسه أنه ينحنى أمام غيره . فلم يدهشه اذن ان قابل هايل طلبه بالرفض

ورفض المقاول طلبه فى رجاحة صدر شأنه فى كل شىء . واعتبر الطلب نوعا من الفكاهة العملية . فتساءل عما اذا كان يريد شراء بيانو كبير أو يضيف قبة لداره وعرض عليه فى الحالة الاخيرة أن يتبرع بخدماته

وكان ايتان قليل الحيلة . وبعد فترة خجل حيا هايل ، وفتح باب المكتب ، وعندخروجه ناداه المقاول صائحا : « قل لى ، الست فى شدة الحاجة الى المال ؟ »

ونطقت كبرياؤه قبل أن يتدخل عقله « لاحاجة بى مطلقا »

فقال : « هذا حسن لانى فى شىء من الازمة المالية والواقع انى كدت أسألك ان تمهلنى على هذه الصفقة أكثر من الوقت العادى . فالعمل غير ناشط . ثم انى ابنى منزلا صغيرا لند وروث

عندما يتزوجان وانى لسعيد بهذا العمل ولكنه يكلف بعض المال » وكانت نظرته تنظر العطف من ايتان ثم أتم حديثه قائلا « ان الشباب يحب أن تكون الاشياء جميلة . وانك لتعلم ذلك اذ لم يمض وقت طويل منذ اخذت تهيء دارك لزينه »

ترك ايتان جواديه فى مربط الخيل لدى هايل ، وذهب ليعمل آخر فى القرية . وكانت العبارة الاخيرة التى قالها المقاول رنت فى أذنيه وهو يسير . وكان يفكر فى أن السنوات السبع التى امضاها مع زينه لا تظهر للاسف عند الغير بأنها وقت طويل .

وكان الغروب يقترب . ويرى هنا وهناك النور من وراء الالواح الزجاجية يخترق الضباب الرمادى مما يزيد منظر الثلوج بياضا . وكان البرد القارص قد طرد الناس الى دورهم ، فبدا الطريق الزراعى الطويل خاليا . على انه سمع فجأة رنين اجراس زاحفة واجتازته مركبة زاحفة يجرها جواد مرح عرف فيه ايتان مهر ميكائيل ايدى واصل عليه الشاب دنيس ايدى محييا من زاحفته وقد وضع على رأسه طاقية جميلة من الفرو وصاح « مرحى يا ايتى » .. ثم مرت الزاحفة .

وكانت الزاحفة قاصدة وجهة مزرعة فروم وانقبض قلب ايتان وهو يسمع رنين الاجراس المتباعد : أليس من الراجح ان ايدى سمع بسفر زينه الى بتسبريدج ، وانتهز الفرصة ليمضى ساعة مع ماثى ؟ لقد خجل ايتان من عاصفة الغيرة التى هبت فى صدره ، وبدا لديه انه لا يليق به أن تكون أفكاره عنيفة الى هذا الحد

وسار الى ركن الكنبسة ودخل تحت ظلال أشجار فارنوم التى وقف عندها فى الليلة السابقة ورأى أمامه شبحا غير واضح فما اقترب منه حتى رآه يتحول الى شبحين يجتمعان لحظة ، وسمع قبلة وضحكا مكتوما وصيحة أثارها اكتشاف اقترابه . وانفصل الشبحان على عجل ، وسمع باب دار فارنوم يغلق واسرع احد الشبحين فى الطريق أمامه . وابتسم ايتان لما سببه من ارتباك . فماذا يهم كلا من ند هايل وروث فارنوم اذا بوغتا فى قبلة ؟ ان أهل ستار كفيلد جميعا يعلمون انهما خطيبان . ولقد سر ايتان اذ فاجأ عشيقين فى البقعة التى وقف فيها هو وماثى ، وفى قلب كل منهما ظمأ نحو الآخر . واستشعر

وخز الالم حين فكر ان لاحاجة بهذين الاثنين الى اخفاء سعادتهما

وعادا يتان فاخذ جواديه من مربط خيل هايل ، وابتدأ طريقه الصاعد قافلا نحو المزرعة وكان البرد اقل شدة منه فى أثناء النهار . وكانت السماء المبدة بالسحب المتراكمة تنذر بسقوط الثلج فى الغد ، وهنا وهنالك ، يطل نجم من بين السحب ويظهر خلفه بئر عميق ازرق . ولاتمضى ساعة او ساعتان حتى يبرز القمر من وراء التلال خلف المزرعة فيصبغ أطراف السحب الممزقة بحلة ذهبية ، ثم لايلبث ان تبتلعه هذه السحب . وكان سود الحقول هدوء حزين كأنها شعرت بان البرد خفف قبضته فتمطت فى نومها الشتوى الطويل

وكانت اذنا ايتان متيقظتين لسماع اجراس الزاحفات ، ولكن لم يقطع سكون الطريق المنزل اى صوت . ولما صار على مقربة من المزرعة رأى من خلال الاشجار القليلة نورا يضيء من الدار فوقه ، فقال لنفسه : انها فى غرفتها تعد نفسها للعشاء . وتذكر نظرة السخرية التي بدت فى عينى زينه حين جاءت ماتى فى ليلة وصولها الى العشاء بعد ان رتبت شعرها ووضعت شريطا فى رقبتها

ومر على القبور فى فناء الاضرحة وادار رأسه ناظرا الى احد الاضرحة ، وكان يهتم له بصفة خاصة وهو صبى ، لانه يحمل اسمه وقرأ :

« انه مكان مقدس لذكرى ايتان فروم وزوجته اندیورانس .. اللذين عاشا معا فى سلام مدة خمسين عاما .. »

كان يظن من قبل ان خمسين عاما زمن طويل للمعيشة معا ولكن هذه الفترة تبدو له الآن وكأنها تمر مرور البرق . ثم اصابه سهم من السخرية فاذا به يسائل نفسه هل تكتب هذه الكتابة نفسها حين يسجى هو وزينه فى قبرهما عند ما يحين الاجل ؟ .

وفتح باب مخزن الغلال واطل فى الظلام وهو يخشى أن مهر دنيس ايدى فى مربط خيله الى جانب جواده الهرم . ولكنه وجد الجواد يمضغ طعامه بفكين فقدا الاسنان فأخذ ايتان يصفر فى ارتياح وهو يزيل اربطة السرج من الجوادين الرماديين ويضع كمية من القرطم حيث يأكلان ولم تكن حنجرته جميلة ، ولكنه مع

ذلك اخذ فى الغناء بصوت قبيح، وهو يقفل الجرن ويصعد التل الى الدار . ووصـــل الى باب المطهى وادار أكرة الباب ، ولكن الباب لم ينفتح امامه

واخذته الدهشة حين رجـا الباب مغلقا وعالج أكرة الباب فى عنف ولكنه تذكر ان ماتى وحدها ومن الطبيعى أن تقيم الحواجز دونها فى المســـاء . ووقف فى الظلام ينتظر ان يسمع خطوها، ولكنه لم يسمع وعبثا أنصـت بأذنيه . فنادى فى صوت يرتعش سرورا « أين أنت يامات ؟ »

لم يجبه الا الصمت ولكـن بعد دقيقة او دقيقتين سـمع صوتا على السلم ورأى نورا يتحت الباب ، كما رآه فى الليلة السابقة . وكانت حوادث الليلة السابقة تتكرر فى دقة غريبة ، حتى كاد يعتقد وهو يسمع صوت المفتاح يدور فى القفـل : انه سيشاهد امرأته أمامه . ولكن الباب فتح وواجهته ماتى بدلا منها .

وكانت واقفة كما وقفت زينه وفى يدها مصباح ، ومن ورائها المطهى المظلم . وكان الضـوء فى مستوى الامس وقد رسـم فى وضوح الامس رقبتها الجميلة الدقيقة ، وساعدها الاسمر الذى لا يزيد على ساعة الطفل . ثم ارتفع الضوء فرمى بريقه على شفتيها وغطى عينيها بظـل من القطيفة واظهر البياض الناصع فوق سواد قوس الحاجب

وكانت ترتدى ثوبها العـادى القاتم ولم تغط رقبتها بشىء ، ولكنها ربطت شعرها بشريط قرمزى اللون أسبغ عليها بهاء، وبدت لاتنان أطول قامة واملأ جسما ، وعليها مظهر أكثر أنوثة فى شكلها وحركتها ووقفت الى جانب من الباب وهى تبتسم فى سكون . ثم تحركت فى كثير من الخفة والرشاقة ووضعت المصباح على المائدة . ورأى أنها أعدت مائدة العشاء فى عناية ، فعليها فطائر بالمربى صنعت منذ قريب، وفاكهة ناضجة ، والمخللات التى يحبها فى طبق من الزجاج الجميـل ، وكان الموقد يضىء بناره بينمـا تمددت هرة المنزل تراقب المائدة بعين ناعسة

وامتلأت نفس ايتان شـعورا بالرخاء . فخرج الى الممر وعلق سترته على الشماعة وخلع نعليه الممبللين فما عاد حتى كانت ماتى

قد وضعت أناء الشاى على المائدة واخذت الهرة تتمسح بقدميها فى اغراء .

وصاحت ماتى وعيناها تضحكان خلف أهدابهما : « ماذا تريدين أيتها الهرة : لقد كدت أطأ بقدمى ! »

وشعر ايتان بوخزة فجائية من الغيرة . هل هو السبب فى اضاءة هذا الوجه ؟

فألقى سؤالا وهو ينحنى فى غير عناية ليفحص الموقد : «حسنا يامات هل جاءك زائرون ؟ »

فهزت راسها بعلامة الايجاب وقالت :«نعم جاء واحد» وشعر بظلمة يريد لها جبينه

وسأل وهو ينظر اليها نظرة جانبية فى تقطيبة : «من هو ؟»

وكانت عيناها ترقصان خبثا وهى تقول : « ومن يكون غير يوتام باول الذى عاد وطلب جرعة من القهوة قبل أن يقصد منزله ؟ »

وارتفعت الظلمة وعاد اليه الضوء وقال « هذا كل شىء ؟ ارجو ان تكونى قد أجبته الى رغبته » . ثم بعد فترة سكون رأى من اللائق أن يسأل : « أظنه قد سار بزينه الى المنبسطات دون حادث » ؟

قالت : « أى نعم لقد رجد فسحة من الوقت لذلك »

وانشأ هذا الاسم نوعا من الحاجز بينهما . ووقف الاثنان ينظر كل منهما نظرة جانبية الى الآخر قبل أن تقول ماتى فى وضحك وخجل « أظن الوقت حان للعشاء ! »

وجذبا مقعديهما الى المائدة . وقفزت الهرة دون أن تدعى الى مقعد زينه الخالى بينهما .. فصاحت ماتى « ايتها الهرة ! » وضحك الاثنان

كان ايتان قبل لحظة يشعر بانه يريد ان يفيض بالحديث ولكن ذكر زينه عقد لسانه ..ويظهر ان عدوى ارتباكه سرت الى ماتى فجلست وقد خفضت أهدابها تتجرع الشاى . بينما أظهر هو شهية لا تشبع للفطائر والمخللات . واخيرا بعد أن بحث عن بداية مؤثرة للحديث تجرع جرعة طويلة من الشاى وجرب

صوته وقال « يظهر أن الثلج سيتساقط »

فزعمت انها تهتم لذلك اهتماما كبيرا . وقالت : « هل هذا حق ؟ وهل تظن ذلك ؟ وهل يؤثر فى موعد عودة زينه ؟ » واحمر وجهه كثيرا بعد هذا السؤال ووضعت فنجان الشاى بعد أن همت بأخذ جرعة منه

ومد ايتان يده ليتناول بعض المخللات مرة أخرى وقال «ليس من السهل معرفة ذلك فى هذا الوقت من السنة فان الثلج يتراكم فى المنبسطات » وقد شغله الاسم مرة أخرى وشعر كأن زنيه فى الغرفة بينهما

وصاحت ماتى فى مداعبة : « انك نهمة ايتها الهرة ! »

وكانت الهرة قد شبت بقدميها الاماميتين فى غير ضجة من مقعد زينه الى المائدة ، دون أن يلاحظ ذلك أحد . ومدت حسدها فى اتجاه ابريق اللبن وهو بين ايتان وماتى وقد انحنى الاثنان فى الوقت ذاته واجتمعت يداهما على قاعدة الابريق وكانت يد ماتى هى الاسرع ونزلت يد تطبق عليها لحظة أكثر مما يجب وانتهزت الهرة هذه الظاهرة غير العادية فحاولت أن تعود الى وضعها السابق ، وفى عودتها جرت طبق المخللات فسقط الى الارض وتحطم فى ضجة

وفى لحظة كانت ماتى قد قفزت من مقعدها وركعت الى جانب الشظايا .

وصاحت : « أواه يا ايتان انها شظايا كثيرة ماذا تقول زينه ؟»

وفى هذه الفرصة وجد شجاعة فقال وهو يضحك : « لابد ان تعرف بان الهرة هى السبب عنى كل حال » وركع الى جانب ماتى ليجمع بقايا المخللات العائمة

ورفعت اليه عينين متألمتين وهى تقول : « ولكنك ترى انها لم تكن تريد استعماله حتى ولو جاء ضيوف . ولقد ارتقيت سلما لاصل اليه فى اعلى دولاب الادوات الخزفية حيث يحتفظ بخير أشيائها ، ولا ريب فى أنها تريد ان تعرف لماذا فعلت »

وكان الامر جديا حتى ان ايتان جمع اطراف عزيمته وقال . لاحاجة لان تعرف بالامر اذا كنت تسكتين وسآتى بآخر مثله تماما

فى الغد من المكان الذى أتت به منه ! سأذهب الى شلالات شاو
إذ لزم الامر »

قالت : « لن تجد آخر هناك ، فقد كان هـــدية عرس
ألا تذكر ؟ لقد جاء هامس فيلادلفيا حيث تقيم خالة زينه التى تزوجت
من قس ، وهذا هو السبب فى أنها لاتستعمله ابدا .. ماذا افعل
الآن ؟ ماذا ترى ؟ »

وبدأت تبكى وشـعر بكل دمعة من دموعها تتساقط عليه
كأنها الرصاص المصهور وتوسل اليها قائلا : « لا تفعلى يا مات!
لا تفعلى ! »

وهبت على قدميها وتبعها وهو لايعرف ماذا يفعل ثم أخذت
تضع الشظايا على المائدة كأنها بقايا ليلهما الذى تحطم
وقال لها فجأة فى صوت الآمر « اعطينى هذه الشظايا ! »
فأفسحت له المكان اطاعـة لامره بالغريزة ، وهـى تقول :
« ماذا تريد أن تفعل يا ايتان !»

فلم يجبها بل جمع شـظايا الطبق فى كفه الكبيرة وسار بها
من المطهى الى الممـر الخارجى ثم أوقد طرف شـمعة وفتح
دولاب الخزف ومد ذراعه الطويلة الى أعلى قسـم فيه ووضـع
الشـظايا الى جانب بعضها فى مهارة . ودقق النظر حتى ثبت
له أن من المسـتحيل أن يرى الطبق مكسورا من أسفل فاذا
الصقه بالغراء فى الصباح التالى فقد تمر أشهر قبل أن تلاحظ
زوجته ما حدث . وبعدئذ قد يستطيع شراء بديـل لـه من
شلالات شاو أو من بتسبريدج . فلما تبـين له أن لا خوف من
اكتشـاف ما حدث عاد الى المطهى فى خطوة خفيفة . ووجد
ماتى تزيل بقايا الطعام المتساقطة على الارض وهى فى يأس

فأمرها قائلا : « ان الامر يمكن اصلاحه يا مات فعودى بنا الى
العشاء ! »

واطمأنت الى قوله ونظرت اليه بعينين براقتـين من خلال
أهدابها المبللة بالدموع . وامتلأت نفسه فخرا حين رأى أن نغمته
هدأت من ألمها فلم تسأله حتى ماذا فعل ؟ وهو لم يتذوق هذا
النوع من السـيطرة الا وهو يدحرج فى مهارة قطعة كبيرة من
الاخشاب من فوق الجبـل الى طاحونته .

أتما العشاء وأخذت ماتى فى ازالة بقايا الطعام من المائدة . وذهب ايتان فى هـــذه الاثناء ليلقى نظرة على أبقاره ثم يدور فاحصـــا أرض المنزل . وكانت الارض مظلمة تحت سماء ملبدة وكان الهواء ساكنا حتى ليسمع سقوط قطعة من الجليـد بين حين وآخر من الاشجار البعيدة على حافة غابة الاخشاب

ولما عاد الى المطهى كانت ماتى قد وضعت مقعده على مقربة من الموقد وجلست بجانب المصباح وأخذت تحيك بعض الثياب وكان المنظر مثل ما تصوره فى مخيلته أثناء الصباح . فجلس وأخرج غليونه من جيبه ، ومد قدميه نحو وهج الموقد . وكان العمل الشاق الذى قام به أثناء النهار فى الجو البارد قد جعله يشـعر بالكسل وبالنشاط فى الوقت ذاته وشعر كأنه انتقل الى عالم آخر ملؤه الدفء والانسجام والاطمئنان الى أحـداث الزمان . وكان كل ما يضـايقه فى جلسته انه لا يرى ماتى من المكان الـــذى يجلس فيه . ولكنه يشعر بالكسل بحيث لا يريد التحرك . فقال لها بعد لحظة : « تعالى هنـــا واجلسى الى جانب الموقد »

وكان مقعد زينة المتحرك فى مواجهته وهو خال فقامت ماتى اطاعة له ، وجلست فيه وأسندت رأسها الصغير الى المخدة المطرزة التى كان يبرز من اطارها عادة ذاك الوجه الضخم . فشـــعر ايتان برجة وقتية ، اذ خيل اليه ان ذاك الوجه ، وجه المـــرأة الاصيلة التى نحيت قد مسح معالم وجه المرأة الدخيـــلة . ويظهر أن ماتى نفسها تأثرت بشىء من هذا الحرج . فعدلت من جلستها وانحنت الى الامام لتنكب على عملها . فلم يعـــد يرى غير طرف أنفها الـــدقيق واللون الاحمر فى تموجات شعرها ثم هبت على قـــدميها وقالت « لا أجد من الضـــوء ما يكفى لحياكة ! » وعادت الى مقعدها الاول بجانب المصباح

وزعم ايتان انه يريد أن يزيد جذوة النار اشتعالا فى الموقد فلما عاد الى مقعـــده نحاه جانبا ، فصار يرى صفحة وجهها وضوء المصباح يسقط عليها . وكانت الهرة ترقب فى حيرة هذه التنقلات التى لم تألفهـــا فقفزت الى مقعـد زينه وجمعت أطراف جسدها حتى صـــارت كالكرة ، وجلست ترقبهما وقد حسرت نظرتها .

وساد السكون العميق ارجاء الغرفة وكانت الساعة الكبيرة تدق فى حركتها المنتظمة فوق المنضدة ، وتتطاير بين حين وآخر قطعة من الفحم المحترق الى جوانب الموقد ، بينما تمتزج رائحة ازهار الجيرانيوم برائحة الدخان المتصاعد من فم ايتان . وأخذ هذا الدخان يعقد ضبابا أزرق حول المصباح ويملأ أركان الغرفة بضباب رمادى يشبه نسيج العنكبوت .

وارتفع كل حجاب بين الاثنين وأخذا يتحدثان فى طلاقة لسان . وتكلما عن أمور اليوم وما ينتظر من تساقط الثلج وعن الاجتماع القادم لاسر القرية فى الكنيسة ، وعن حوادث الحب والخصام فى ستار كفيلد وكانت بساطة الحديث وتناول الامور العادية ، قد أثر فى ايتان ، فتوهم ان بينهما صداقة بعيدة الامد ، لا يمكن ان ينشأ مثلها من العواطف الجياشة ، واستسلم للخيال وقام فى نفسه انهما كانا ينفقان مساءهما كل ليلة هكذا ، وانهما سيظلان هكذا ...

وقال أخيرا : « هذه هى الليلة التى كنا نريد الذهاب فيها لممارسة الانزلاق يا مات ! » قالها فى شعور قوى كأنهما يستطيعان ذلك فى أى مساء يختارانه وأمامهما فسحة من الوقت .

فردت اليه ابتسامته بمثلها وقالت : « أظنك نسيت ! »

فقال لها « لا لم انس ! ولكن الظلام عميق خارج الدار وقد نذهب غدا اذا ظهر القمر ! »

فضحكت سرورا ورمت برأسها الى الخلف وكان ضوء المصباح يلمع على شفتيها واسنانها وقالت : « أظن اننا نمضى وقتا جميلا يا أيتان ! »

وظل مثبتا عينيه فيها وهو فى دهشة من طريقة تغير وجهها مع كل تغيير فى حديثها ، كما يتموج ويتغير حقل القمح مع هبوب نسيم الصيف . وقد تمل بما بدا له من ان كل كلمة عادية ينطق بها تنقلب لديها سحرا دون أن يجرب طرقا أخرى لاستعمال هذا السحر .

فسألها : « هل تخافين اذا انزلقنا فى طريق كوربرى فى مثل هذه الليلة ؟ »

فزادت وجنتاها احمرارا وقالت : « لا أخاف اكثر منك ! »

فقال « انى لا أخاف فعلا . ولن أقدم على ذلك فهناك ركن

فظيع عند شجرة البلوط الكبيرة واذا لم ينتبه المرء كل الانتباه فلا بد من أن يصطدم بالشجرة » وتمتع بشعور الحماية والسلطة التى تنقلها كلماته ولكى يطيل هذا الشعور ويزيد منه قال « اظننا فى أمان هنا »

فأسبلت اهدابها فى بطء بالطريقة التى يحبها وتنهدت قائلة « نعم نحن فى امان ! »

وكانت نبرة صوتها حلوة بحيث اخرج غليونه من فمه واقترب من المائدة ، وانحنى الى الامام ولمس طرف القماش الاسمر الذى تحيكه وابتدأ يقول فى ابتسامة : « قولى لى يا مات ! ماذا تظنين انى رأيت تحت ظلال أشجار فارنوم وأنا عائد الى المنزل الآن ؟ لقد رأيت احدى صديقاتك يقبلها احد الناس ! »

وكان يريد ان يطلق هذه الكلمات طول المساء ولكنه بعد أن نطق بها تبين له انها الفاظ غير لائقة مطلقا ولا مناسبة لها .

أحمر وجه ماتى احمرارا شديدا واسرعت مرتين أو ثلاثا بابرتها بحيث جذبت طرف القماش منه دون أن تشعر وقالت فى صوت منخفض كأنه خاض موضوعا جديا : « اظنك تعنى روث وند ؟ »

خيل الى ايتام أن اشارته قد تفتح الطريق امام بعض النكات المألوفة . وهذه تمهد لقبلة لا ضرر منها أو لمجرد ضغط بى يدها ولكنه شعر الآن ان ذلك الاحمرار قد اقام حراسة ملتهبة حولها ، وان ظن ان تحفظه الطبيعى هو الذى يجعله يشعر بمثل هذا الشعور . فهو يعلم ان اكثر الشبان لا يبالغون فى معنى تقبيل فتاة جميلة . وتذكر ان ماتى لم تمانع فى الليلة السابقة حين أحاطها بذراعه . ولكن هذا كان خارج الدار وتحت جناح الليل المنبسط ، ولكنه الآن فى الغرفة المضاءة بالمصباح وما تنطوى عليه من معنى النظام والخضوع للقواعد المتعارفة ، وهى أكثر بعدا منه بما لا يقاس حتى كأن لا تقارب بينهما .

ولكى يخفف ما أصابه من تحفظ قال : « أظنهما سيحددان يوما للزواج فى وقت قريب »

فأجابت : « نعم ! لن أدهش اذا تم زواجهما فى الصيف القادم ! » ونطقت بكلمة الزواج وكأن صوتها يتغنى بهذه الكلمة وكأنه ممر مجلل بالاشجار يؤدى الى وديان ساحرة . وشعر

ايتان بوخز فى جسده وقال وهو يتململ فى مقعده : « لن أدهش اذا كان دورك يجىء بعدها مباشرة » .

فضحكت ضحكا ينم على شىء من الشك وقالت : « لماذا تظل تردد هذا المعنى ؟ »

فضحك ضحكا هو صدى لضحكها : « اظننى اردد هذه الفكرة كى آلفها ! »

وعاد فاقترب من المائدة ، وظلت فى حياكتها وهى صامتة ، وقد أسبلت أهدابها على عينيها . وجلس ايتان وهو مأخوذ بمراقبة الطريقه التى بها ترتفع يداها فوق قطعة القماش وتنزلان وكأنهما عصفوران فى طيران متواز يبنيان عشا . وأخيرا قالت فى صوت منخفض من غير أن تدير رأسها أو ترفع نظرتها : « ألا يكون سبب دركك هذا ان زينه مستاءة منى ؟ »

وعاد اليه خوفه السابق كاملا ، وقال متلعثما : « ماذا تعنين ؟ »

فرفعت اليه عينين مضطربتين ، وتركت القماش يسقط على المائدة بينهما ، وقالت : « لا أعلم ولكن دار فى خلدى فى الليلة الماضية انها غاضبة ! »

فزأر قائلا : « أحب أن أعرف لماذا ؟ »

فأجابت : « لا يعرف أحد من أمر زينة شيئا » وكانت هى المرة الاولى التى تكلما فيها صراحة فى موقفها نحو ماتى . وكأن ذكر اسمها قد وصل الى أقصى أركان الغرفة ثم عاد اليهما ثانية وقد تردد مرارا فى اصداء كثيرة . وانتظرت ماتى كأنها تترك لهذا الصدى فرصه كى يزول واستمرت تقول : « ألم تقل لك شيئا ؟ »

فهز رأسه قائلا : « لم تفه بكلمة » .

ومالت برأسها الى الخلف كى ترد شعرها الذى تدلى فوق جبينها وضحكت قائلة : « لقد تخيلت ذلك لضعف اعصابى اذن ولن أفكر فى هذا من بعد ! »

فقال لها : « لا تفكرى فى هذا الامر يا مات ! »

وبعثت الحرارة الفجائية فى لهجته الدم الى وجهها مرة ثانية ولكنه لم يصبغ الوجه مرة واحدة بل تدريجيا وفى رقة كأنه انعكاس فكرة تستولى فى بطء على قلبها وجلست صامتة وقد

شبكت يديها على عملها وخيـــل اليه ان تيارا دافئا تدفق نحوه عن طريق قطعة القماش التى لا تزال مطوية بينهما فمـد يده ، فى حذر وراحة الكف الى أسفل ومست أصابعه طرف القمـــاش واهتزت أهدابها هزة خفيفة دلت على ما يبدو ، انها شعرت بحركته وان هذه الحركه أرسـلت تيارا معارضا اليها فتركت يديها بلا حراك على الجانب الآخـــر من القماش ٠

وبينما كانا جالسـين سمعا حركة خلفهما فأدارا رأســيهما فكانت الهرة وقد قفزت من مقعد زينه المتحرك لتـــدرك فأرا فى الدائر الخشبى حول الحـائط ٠ وكان من نتيجة الحركة الفجائية ان ظل المقعد يتأرجح كأن شبحا يجلس عليه ٠

وفكر ايتان « فى مثـــل هذا الوقت من الغد سيتأرجح هـذا المقعد وهى جالسة فيه ، لقـــد كنت فى حلم وهذا هو المســـاء الوحيد الذى نخلو فيه معـا » وكانت عودته الى الحقيقه المؤلمة كالعودة الى اليقظة بعد تنـــاول المخدر ٠ فصار جسده وعقله نهبا لألم ناشىء عن تعب لا يمكـــن وصفه ٠ ولم يجد سبيلا الى ما يقـــوله أو يعمله لوقف تلك الاويقات فى مرورها الجنـــونى السريع ٠

ويظهر ان التغير فى حالتـــه انتقلت عدواه الى ماتى ٠ فنظرت اليه فى حنان وكأن عينيهـــا مقفلتان بالنوم حتى لتجد صعوبة فى فتحهما ٠ وانتقلت نظرتهـــا الى يده التى كانت تغطى طرف قماشها وتقبض عليه كأنه جـزء منها ٠ فرأى رعشة لا تكاد ترى تمر على وجهها فانحنى على طرف القماش دون أن يعرف ما يفعله وقبله ٠ وبينما كانت شفتاه فوق القماش شعر بأن القماش ينساب من تحتهما فى بطء ٠ فاذا ماتي قد نهضت من مكانهـــا وطوت قماشها فى سكون ، ثم شبكته بمشـــبك ، وتناولت المقص وملبس الاصابع ووضعتهما مـع القماش ، فى صـــندوق مغطى بورق مزخرف كان قد اشتراه ها من بتسبريدج ٠

فنهض ايضا ووقف يتنقل بنظره فى الغرفة من غير غرض ودقت الساعه احدى عشرة دقـة ٠٠

فسألت فى صـوت منخفض : « هل النار كافية ؟ »

فانحنى وفتح باب الموقد وقلب النـــار ، ولما نهض رآهـا تجـــر الى جانب الموقـــد ، صندوق الصابون الذى وضعت فيه قطعة من الســـجاد ليكون للهرة فراشا ٠ ثم قطعت أرض

الغـــرفة ورفعت آنيتين بهما ازهار الجرانيوم لتبعـدهما عن النافذة وبردها • فتبعها ونقل اوانى الجرانيوم الاخرى ونبات الهيـــاكنت الـــذى غـرس فى اناء من الصفيح ، والنبـــات الالمانى المتعلق الذى امتد فعلق الى مسمار قديم •

فلما تمت تلك الواجبـــات الليليه ، لم يبق أمامه ما يعمله الا حمل الشمعدان من الصفيح من الممر واشعاله •• وأطفـــأ ايتان المصباح ووضع الشمعدان فى يدها وسارت به من المطهى امامه . وكان منظر شـــعرها الاسود وهى تحمل الضوء أمامها كغمامة تمر على القمر •

وقال لها حين وطأت بقدمها درجة السلم الاولى « سـعدت مساء يا مات ! »

فاستدارت ونظرت اليه لحظة واجابت « سعدت مساء يا ايتان » وصعدت السلم •

فلما ان أقفلت باب غرفتها تذكـــر انه لم يمســس حتى يدها •••

كان يوتام باول بينهما عند الفطور فى صباح اليوم التالى . وحاول ايتان أن يخفى سروره العظيم بأن بالغ فى مظهر عدم المبالاة . فكان يستند بظهره على المقعد ليلقى بشىء من الطعام للهرة أو يبدى استياء من الجو ولم يتعرض لمساعدة ماتى حين نهضت لتحمل الاطباق .

لم يعرف السبب فى سعادته الى هذا الحد اذ لم يتغير شىء فى حياته أو فى حياتها . فانه لم يمس أطراف أصابعها ، ولم تواجه عيناه عينيها ، ولكن المساء الذى قضياه معا صور له ماقد تكون عليه الحياة الى جانبها . وكان سعيدا الآن لأنه لم يأت شيئا يعكر من صفو السهرة ، وقد خيل اليه أنها عالمة بما رده عن ذلك ..

كان هنالك حمل من الاخشاب ينقل الى القرية ، وكان يوتام باول الذى لايعمل بانتظام لدى ايتان فى الشتاء قد جاء ليساعد فى نقله . ولكن ثلجا مبللا ذاب وتحول الى مطر مثلج قد سقط فى أثناء الليل فصارت الطرق كالزجاج ، وكان الجو مشبعا بالرطوبة وقدر الرجلان أن تهدأ الحالة بعد الظهر فيكون الذهاب الى القرية أسلم منه فى الصباح ولذلك اقترح ايتان على مساعده أن يضعا الاخشاب على الزاحفة كما فعلا فى الصباح السابق ، ولا تنقل الاخشاب الى ستاركفيلد الا بعد انتصاف اليوم . وبذلك يتمكن من ارسال يوتام الى المنبسطات ليقابل زنوبيا ويذهب هو بالاخشاب الى القرية وقد طلب من يوتام أن يذهب ليعنى بالجوادين الرماديين ، وعلى ذلك ظل لحظة على انفراد مع ماتى فى المطهى . وقد وضعت الاطباق التى استعملت فى طعام الفطور فى جردل من الصفيح وانحنت عليها بذراعين نحيلتين عريتا الى الكوع . وكان البخار المتصاعد من الماء الساخن قد تجمع قطرات على جبينها وعقد شعرها فى حلقات صغيرة .

وظل ايتان ينظر اليها وقلبه فى حلقه وكان يود لو يقول «اننا لن نكون على انفراد مرة ثانية كما نحن الآن » ولكن بدلا من ذلك امتدت يده الى حافظة الاطباق الموضوعة على رف الدولاب ووضعها فى جيبه وقال « أظن انى أستطيع العودة للغداء » .

فأجابته « فليكن يا ايتان » . وسمعها فى خروجه تغنى وهى تعنى بالاطباق .

وقد عزم على أنه بمجرد وضع الأخشاب فى الزاحفة يرسل يوتام الى المزرعة ويسير مسرعا على قدميه ليشترى غراء للطبق الذى كسر ، ولو سارت الامور سيرا عاديا لتمكن من تنفيذ فكرته ولكنها سارت على غير هواه من البداية . ففى طريقه الى غابة الأخشاب انزلق أحد الجوادين على الثلج البراق وأصيب بجرح فى ركبتيه ، وبعد أن رفعاه عاد يوتام الى الحظيرة ليأتى بقطعة من القماش يربط بها الجرح ، ثم عندما ابتدأ أخيرا تحميل الزاحفة بالاخشاب ، نزل المطر المثلج مرة أخرى ، وصارت جذوع الاشجار لزجة ، فاستغرق من الزمن مرتين أكثر من العادة .. وقد أحسن يوتام حين وصف اليوم بأنه صباح غاضب . ويظهر ان الجوادين كانا غير راضيين أيضا وهما يرتعدان ويضربان الارض بحوافرهما تحت أغطيتهما المبللة ، وعلى ذلك لم ينته من العمل الا بعد ساعة الغداء بوقت طويل ، وعدل ايتان عن الذهاب لأنه كان يريد أن يسير بالجواد الى حظيرته ويغسل الجرح بنفسه .

وظن أنه لو قام بالحشب بعد الغداء مباشرة فقد يعود الى المزرعة بالغراء قبل أن يعود يوتام بالجواد الاسمر الهرم من المنبسطات . ولكنه كان يعلم أن الفرصة ضئيلة جدا فهى تتوقف على حالة الطرق ، وعلى تأخر قطار بتسبربدج عن موعده . وقد صار يفكر فيما بعد بنوع من الاحتقار لنفسه أية أهمية علقها على هذه الاحتمالات .

وما انتهى من الغداء حتى قصد غابة الأخشاب ولم يجرؤ على الانتظار الى أن يرحل يوتام باول . وكان الرجل الاجير لايزال يجفف قدميه المبللتين على نار الموقد . ولم يستطع ايتان الا أن يلقى نظرة سريعة على ماتى وهو يهمس : « ساعود مبكرا » .

وخيل اليه أنها أحنت رأسها دلالة على الفهم ، وبهذه الترضية البسيطة خرج الى الامطار .

ولم يبلغ منتصف الطريق حتى أدركه يوتام بأول وهو يحث الجواد الاسمر على السير الى جهة المنبسطات . وفكر ايتان فى انه يجب أن يسرع فى القيام بهذا العمل . وانحدر بالزاحفة فى منحدر بناء المدرسة ، وعمل فى سبيل انزال الاخشاب بسرعة ما يعمله عشرة من الرجال ، ولما انتهى من عمله أسرع الى حانوت ميكائيل ايدى ليشترى الغراء ، فعلم ان ايدى ومساعده يمران « بالسوق » وان دنيس الشاب الذى قلما يتنازل ليجل محلهما ، قد جلس أمام الموقد مع عصبة من خلاصة شباب ستار كفيلد . وقابلوا ايتان بترحاب لايخلو من السخرية ،

ودعوه الى مشاركتهم فى مجلسهم ولكن أحدا منهم لم يكن يعرف مكان الغراء . وكان ايتان فى تلهفه على لحظة انفراد أخيرة بماتى واقفا ينتظر بفارغ صبر ، بينما دنيس يبحث بحثا لاجدوى منه فى جوانب المخزن غير المعروفة لديه

وقال « يظهر أن كل الغراء قد بيع ولكنك اذا انتظرت حتى يعود الكهل فقد يجد شيئا منه .

فأجاب ايتـــان وهو يتأهب للذهاب « أشكرك ولكنى سأحاول أن أجـد بعض الغراء فى حانوت السيدة هومان . »

فأقسم دنيس بغريزته التجارية على أن مالا يوجد فى حانوت ايدى لايمكن أن يوجد لدى الارملة هومان ، ولكن ايتان لم يهتم بهذا القول وصعد الى الزاحفـة وسار بها الى الحـانوت المنافس وهنالك بعد بحث طويل وأسئلة تدل عـــلى العطف ، عن سـبب حاجته الى الغراء ، وهـــلا يصلح عجين الدقيق العادى بدلا منه ، عثرت الارملة هومان أخـيرا على زجاجة الغراء الوحيـدة وسط كمية غير متجانســة من أقراص السعال وأربطة لشـــد خصور السيدات .

نادته صاحبة الحـانوت وقد نوى عنان جواديه الى طريق منزله « لعل زينه لم تكسر شيئا تعتز به » .

تحـــول المطـر المثلج غـير المنتظم الى مطر منتظم . وكانت مهمة الجوادين شاقة بالرغم من عدم وجود الأحمال ، وسمع ايتان مرة أو مرتين رنين أجراس زاحفة فكان يتلفت الى الوراء وهو يتخيل ان زينة ويوتام قد أدركاه ، ولكنه لم ير الجواد الاسمر الهرم فكان يعود بنظره مواجها المطر ليستحث الجوادين الضـخمين . وكانت الحظيرة خالية عنـدما وضع فيها الجوادين وبعد ان عنى بهما أقل عناية سار الى الدار وفتح باب المطهى ، وكانت ماتى منفردة كما تصورها ، منحنية على اناء المطهى فوق الموقد ، وعنـــدما سمعت خطوته بوغتت وقفزت اليـه . فصاح بها وهو يريها الزجاجة فى يده ، بينما كان ينحيها فى خفة جانبا : « انظرى ياماتى .. لقد جئت بشىء يصـلح الطبق : فلنهتم بهذا العمل سريعا » ولكن يظهر انها لم تسمع لهذا القول ، فقد همست وهى تمسك بكمه : « لقد عادت زينة يا ايتان »

فوقفا وكل منهما يحملق فى وجه الآخر وقد امتقع وجهاهما كشريكين فى جرم .

وغمغم ايتـــان قائلا « ولكن الجواد الاسمر ليس فى الحظيرة . »

فقالت له مفسرة «لقداشترى يوتام باول أشياء لزوجته من المنبسطات » وذهب بالزاحفة الى دارها

ونظر فى ذهول حول المطهى الذى بدا باردا حقيرا فى غروب الشمس وفى ذاك اليوم المطير من أيام الشتاء .

وسأل ماتى وقد خفض صوته الى همس : كيف حالها :

فحولت نظرها وقالت وهى فى شك : « لاأعلم فقد قصدت غرفتها مباشرة » .

فسأل « ألم تقل شيئا » ؟

فأجابت « لا : »

وأبدى ايتان حيرته فى صفير منخفض وأعاد الزجاجة الى جيبه وقال : « لاتخافى ! سأنزل وأصلحه أثناء الليل » ثم ارتدى ثانية سترته المبللة وذهب الى الحظيرة لاطعام الجوادين .

وبينما كان هنالك عاد يوتام باول بالزاحفة فلما انتهى ايتان من عنايته بالجياد قال له « تعال لنأكل شيئا هنا » وكان يحب أن يتأكد من وجود محايد على مائدة العشاء لان زينة تكون دائما « عصبية » بعد عودتها من رحلاتها ولكن الرجل الاجير الذى قلما يرفض طعاما لايحتجز ثمنه من أجره ، فتح فكيه القويين ليجيب فى بطء « انى شاكر لك ولكنى أفضل أن أعود لمنزلى »

ونظر اليه ايتان فى دهشة وقال « خير لك أن تأتى ليجف ماء المطر من ثيابك ويظهر أن لدينا عشاء ساخنا » .

ولم يتأثر وجه يوتام بهذا النداء ولما كانت عباراته محدودة فقد كرر القول « انى أفضل أن أعود لمنزلى »

رأى ايتان فى هذا الاصرار على رفض الطعام والدفء دون مقابل ماينذر بشر ، وأخذ يتساءل : ماذا حدث فى أثناء عودة زوجته مما جعل يوتام قنوعا الى هذا الحد . ربما أن زينة لم تتمكن من استشارة الطبيب الجديد أو لعلها لم ترتح الى نصائحه . فقد كان ايتان يعرف أنه فى مثل هذه الاحوال تعتبر زينة أول شخص تقابله مسئولا عن سبب مضايقتها .

ولما عاد الى المطهى وجد أن المصباح يرسل ضوءه على نفس المنظر الذى يبعث على الارتياح كشأنه فى المساء السابق . وقد أعدت المائدة بمثل العناية السابقة وكانت نار قوية تلمع على الموقد والسهرة تنعس من الدفء وجاءت ماتى تحمل طبقا من الفطائر

ونظرت الى ايتان ونظر اليها فى صمت ثم قالت كما قالت فى الليلة السابقة « أظن الوقت قد حان للعشاء »

خرج ايتان الى الممر حيث علق ثيابه المبللة وأخذ ينصت لخطوات زينة . فلما لم يسمع شيئا نادى اسمها فلم تجبه . ولقد تردد لحظة ثم صعد الى غرفتها وفتح الباب . وكانت الغرفة تكاد تكون مظلمة ولكنه رآها في الظلام جالسة الى النافذة منتصبة القامة . وعرف من جمود ظلها على زجاج النافذة أنها لم تخلع الثوب الذى كانت ترتديه فى سفرها .

واجترأ على أن يقول وهو على عتبة الباب « مرحى يازينة ! » ولم تتحرك من مكانها فاستمر يقول « لقد أعد العشاء فهلا تنزلين ؟ »

فأجابت : « لاأظن انى أستطيع أن أذوق لقمة ! »

وكانت هذه العبارة مألوفة لديه . وكان ينتظر بعد ذلك أن تقوم كالعادة وتتبعه للعشاء، ولكنها ظلت جالسة ولم يوفق لشيء أكثر من قوله « أظنك متعبة بعد ركوبك طويلا »

فالتفتت اليه عندئذ وأجابته فى جد « ان مرضى أشد مما تظن »

فسقطت هذه العبارة على أذنيه ذات وقع عجيب ، فكثيرا ما سمعها تفوه بهذه الالفاظ من قبل ، وماذا يكون لو انها كانت صادقة .

وتقدم خطوة أو خطوتين فى الغرفة المظلمة وقال : « ارجو الا لايكون الامر كذلك يازينة ! »

ظلت تطيل النظر اليه فى ظلام الغرفة بسمة صاحب السلطة الذى يعلم أنه اختير لأمر خطير ثم قالت : « لقد حدثت لدى مضاعفات ! »

وعرف ايتان أن لهذه الكلمة معنى استثنائيا فكل فرد بين جيرتهم كان يشعر بشيء من متاعب الامراض أما المضاعفات فانها للخاصة المختارة وهذه المضاعفات اذن ميزة ولو انها فى كثير من الاحوال تكون ايضا وثيقة الموت . فالناس تمر بهم سنوات ومعهم متاعب أمراضهم ولكنهم يسقطون صرعى بسبب « المضاعفات » .

وكان قلب ايتان يتأرجح ذهابا وجيئة بين شعورين ولكن الشفقة فى هذه اللحظة هى الغالبة . فما أشد صلابة امرأته وما أشد وحدتها وهى جالسة فى الظلام مع مثل هذه الافكار

سألها وقد خفض صوته بالغريزة « أهذا ماقاله لك الطبيب؟ »

فأجابت : « نعم انه يقول ان الطبيب العادى كان يجب عليه أن يشير باجراء جراحة »

وكان ايتـــان على علم برأى نساء الجيرة فيما يختص بتدخل الجراحـة ففريق يفخـر بالمكانة التى تسبغها الجراحـة ، وفريق يبتعد عنها ويراها غير لائقـــة وكان ايتان مغتبطا دائما لاسباب اقتصادية بأن زينـــة من أنصار الرأى الاخير .

وحاول أن يهـدىء من روعها بأيسر سبيل على أثر القلق الذى سببه خطورة اعلانها فقال «وماذا تعرفين عن هذا الطبيب ؟ على كل حال لم يقل أحد من الاطباء بمثل ماقاله من قبل ! »

وتبين له فى الحال الخطأ الذى وقع فيه فقد كانت تريد العطف لا التيسير فقالت : « لم أكن بحاجة لان يخبرنى أحد بما بى فى كل يوم من تقهقـر فكل الناس يرون ذلك ماعداك ، وكل الناس يعرفون من هو الدكتور بك فى بيتسبريدج وهو يأتى مـرة كل أسـبوعين الى شـلالات شـادو بيتسبريدج للاستشارات ولقد كادت اليزا سبيرز تفقد حيـاتها بمرض الكلية قبل أن تذهب اليه ولكنها الآن غادرت فراشها وهى تخرج وتشترك فى جوقة الغنـاء بالكنيسة ! »

فأجاب ايتان فى عطف : « انى سعيد لذلك ، ويجب أن تفعلى مايخبرك به هذا الطبيب » .

فقـالت وكانت لاتزال تنظر اليه « انى عازمة على ذلك ! » وقد استرعى انتباهه نغمة جديدة فى صوتها ليس فيها تألم ولا تأنيب وانما تدل على العزيمة الثابتة .

فسألها وقد بدأ يتوقع نفقات جـديدة « وماذا يريد منـك أن تفعلى ؟ »

فقـالت « انه يريد أن تكون معى فتاة أجيرة ويقول انه لاينبغى لى أن أقوم بأى عمـل فى خـدمة الدار »

فصاح ايتان فى دهشة «فتاة أجيرة ؟ »

فأجابت « نعم وقد دبرت لى خالتى مارتا فتاة فى الحال ويقول الجميع انى حسنة الحظ اذ وجدت فتاة ترضى بالاقامة هنا واتفقت على أن أمنحهـا دولارا زيادة فى أجـرها لكى أتأكد من قدومهـا وستأتى غدا بعد الظهر .

وتراوح بين الغضب واليأس فقد كان يتوقع طلبا عاجلا للنقود،

ولكنه لم يكن يتوقع عبئا مستمرا على موارده الضئيلة ، ولم يعد يعتقد فيما قالته زينة عن تفاقم حالتها ، ولم ير فى رحلتها الى بيتسبريدج الا مؤامرات دبرت بينها وبين أقاربها من آل بيرنس كى يحملوه أجر خادم . وتغلب الغضب فى تلك اللحظة وقال «اذا كنت تريدين الاتفاق مع خادمه فقد كان من الواجب أن تخبرينى قبل رحيلك »

فأجابته : « وكيف أعلم بذلك قبل رحيلى ؟ وكيف كنت أعرف ماقاله الدكتور بك ؟ »

فضحك ايتان ضحكة قصيرة تدل على عدم التصديق . وقال « آه ! الدكتور بك ! وهل أخبرك الدكتور بك كيف أدفع لها أجرها ؟ »

وارتفع صوتها فى غضب بارتفاع صوته وقالت « لا لم يخبرنى ! لأنى كنت أخجل من أن أخبره بأنك تبخل على بالمال الذى يرد على الصحة التى خسرتها فى تمريض أمك ! »

فسألها « هل حسرت صحتك فى تمريض أمى ! »

فأجابت « نعم وقد قال لى جميع أقربائى عندئذ انه لم يكن فى وسعك الا أن تتزوجنى بعد»!

فقاطعها صائحا « زينة »

وكانت أفكارهما فى الظلام الذى يخفى وجهيهما أشبه بثعبانين يتقاتلان وينفث كل منهما السم نحو منافسه وقد استولى على ايتان شعور بفظاعة هذا المنظر ، اذ كانت المعركة وحشية لا معنى لها كأنها صراع جسدى بين خصمين فى الظلام .

واستدار الى الرف فوق الموقد وبحث فى الظلام عن الكبريت وأضاء الشمعة الوحيدة فى الغرفة ولم يستطع نورها الضعيف فى مبدأ الامر أن يبدد شيئا من الظلام ثم ظهر وجه زينه عابسا فى زجاج النافذة العارى عن الستائر ، وقد تحول من أسود الى رمادى .

كان ذلك أول غضب سافر بينهما فى السنوات السبع الحزينة التى قضياها معا . وشعر ايتان انه خسر مزية لاتعوض بنزوله

الى مستوى الجدال معها ولكن المشكلة العملية كانت قائمة ولا بد من معالجتها .

فقال لها « انك تعلمين يازينة انى لاأمتلك نقودا لأجر الفتاة فلتعيديها من حيث أتت ! فلن أستطيع دفع أجرها . »

فقالت « قال الطبيب اننى أسير الى الموت اذا ظللت أعمل كالعبيد على الصورة الحالية وهو لايفهم كيف قويت على ذلك الى الآن !»

فاندفع يقول « تعملين كالعبيد ! » ثم راجع نفسه وقال «لن تضعى يدك فى شىء اذا كان هذا غرضه . سأقوم أنا بكل شىء فى الدار » .. .

فقاطعته قائلة « لقد كفاك انك تهمل أمور المزرعة الآن ! » وكانت صادقة فى قولها ولم يجد مايرد به عليها وأتاح لها الفرصة لتقول ساخرة : « خير لك أن ترسلنى الى الملجأ وتستريح .. اظن ان بعض أعضاء أسرة فروم كان لهم مثل هذا المصير » !

وآلمته الاهانة كالنار ولكنه تركها تمر وقال « انى لا أملك مالا . وهذا ينهى كل شىء »

ومرت فترة هدوء فى نضالهما وكان المتبارزين يجربان مضاء أسلحتهما ثم قالت زينة فى صوت متزن: «اظنك تسلمت خمسين دولارا من أندرو هايل ثمنا للاخشاب » ـ فقال :ـ

« ان أندرو هايل لا يدفع قبل ثلاثة أشهر ! »

ولم ينطق بهذه العبارة حتى تذكر العذر الذى اعتذر به كى لا يرافق زوجته الى المحطة فى اليوم السابق فصعد الدم الى حاجبيه المقطبين . فقالت: « قد قلت لى بالامس انك اتفقت معه على أن يدفع الثمن فورا، وقلت ان ذاك هو السبب فى أنك لا تستطيع أن ترافقنى الى المسطحات »

لم يكن لدى ايتان مرونة فى الخداع ، ولم يسبق له أن عرف الاكذوبة ولم يوفق الى وسائل التهرب فتمتم قائلا : « أظن ذلك كان خطأ فى الفهم »

فقالت « اذن أنت لا تمتلك المال »
قال « لا ! »

فقالت « لا ! وهل كنت أعرف ذلك عندما اتفقت مع الخادمة؟»

قال « لا » ثم سكت فترة ليسيطر على صوته وأتم الكلام «ولكنك تعرفين ذلك الآن! وانى لآسف ، ولكنى لا أستطيع أن أفعل شيئا . انك زوجة رجل فقير يا زينة وسأبذل ما أستطيع فى خدمتك ! »

وظلت لحظة جالسة بلاحراك وكأنها تفكر وقد مدت ذراعيها فوق ذراعى المقعد وعيناها مثبتتان فى الفضاء ثم قالت فى هدوء « أظن من الممكن تدبير هذا الامر »

فطمأنه تغير لهجتها وقال « لاشك أن ذلك من الممكن وانى لاقدر على عمل الكثير فى سبيلك وماتى ... »

ويظهر أن زينة كانت تقوم فى ذهنها بحساب معقد بينما هو يتكلم ، وخرجت من التفكير الى القول « على كل حال سوف نوفر طعام ماتى »

وكان ايتان قد ظن أن المناقشة انتهت واستدار ليذهب للعشاء فوقف فجأة وهو لا يفهم ماسمعه وسأل : « نوفر طعام ماتى »

وضحكت زينة وكانت فى صوتها رنة غير مألوفة لم يذكر أنه سمعها من قبل وقالت « هل تظن انى كنت أريد الاحتفاظ بفتاتين ؟ لعل ذلك ما أخافك من النفقات »

وكان لا يزال غير مدرك تماما لما تقوله ، فقد تجنب بالغريزة منذ بداية المناقشة أن يذكر اسم ماتى وهو يخشى أمرا لا يكاد يعرفه! أهو النقد لها أو الشكوى منها أو الاشارات الغامضة لاحتمال زواجها قريبا ، ولكن فكرة التخلص النهائى لم ترد على خاطره ولم تدخل حتى الآن فى حيز ادراكه .

فقال لها « انى لا أفهم ماذا تقصدين فان ماتى سيلفر ليست فتاة أجيرة وهى من أقربائك »

فصاحت « انها فتاة معدمة رمى عبؤها علينا بعد أن عمل أبوها ما عمل لخرابنا وقد بقيت لدى سنة كاملة وجاء دور غيرى ليؤويها »

وفى اللحظة التى خرجت فيها تلك الكلمات الصارخة سمع ايتان دقا خفيفا على الباب الذى أقفله خلفه وسمع صوت ماتى

المرح وهى تنادى من السلم « ايتان ، زينة هل تعلمان بمرور الوقت ؟ ان العشاء حاضر منذنصف ساعة ! »

وسادت لحظة سكوت داخل الغرفة ثم نادت زينة وهى جالسة: «سوف لاانزل للعشاء!»

فقالت الفتاة « انى لآسفة !هل تشعرين بتعب؟ وهل أحضر لك لقمة من طعام ؟ »

وانتبه ايتان الى نفسه فى جهد وفتح الباب قائلا « انزلى يا مات ليس بزينة شىء غير التعب . وانى سوف أجىء للطعام » .

فسمعها وهى تقول « ليكن ذلك » وسمع خطواتها السريعة على السلم ثم أغلق الباب وعادالى الغرفة وكان مكان زوجته لم يتغير وكان وجهها جامدا لايرق وشعر باليأس من أن يقدر على عمل شىء .

وقال لها « انك لن تفعلى يازينة ! »

قالت وقد مدت شفتيها «لن افعل ماذا ؟ »

قال « أن تطردى ماتى هكذا»

قالت « اننى لن أتعهد بأن أحتفظ بها مدى الحياة ! »

فاستمر يقول فى فصاحة متزايدة « انك لا تستطيعين طردها من البيت كاللصة وهى فتاة مسكينة بلا مال ولا أصدقاء . وقد بذلت أقصى جهدها من أجلك . وليس لها مأوى تلجأ اليه ولربما نسيت انها من لحمك ودمك ولكن الناس جميعا سيذكرون ذلك ! واذا انت أقدمت على شىء من هذا فماذا يقول الناس عنك ؟ »

وانتظرت زينة لحظة وكأنها ارادت أن تتيح له من الوقت ما يستطيع أن يقدر فيه التباين بين تحمسه وهدوئها ثم أجابته فى صوت هادىء « انى أعرف جيدا ما يقال بسبب بقائها هنا طويلا »

وسقطت يد ايتان من أكرة الباب ، وكان ممسكا بها منذ

أغلقه لتلقى ماتى فى الخارج فقد كان رد زوجته كالسكين نفذ الى أضلاعه . وشعر فجأة بضعف وخوار وكان عازما على أن ينزل عن كبريائه فيناقشها فى أن ماتى لا تكلفهما كثيرا ، وانه سيعمل على شراء موقد واعداد مكان للفتاة الاجيرة فى غرفة السطح . ولكن كلمات زينة كشفت له عن الخطر الذى تنطوى عليه مثل هذه المناقشة .

فقاطعها فى تلعثم وهو يخشى من أن تتم الزوجة عبارتها «هل أنت عازمة على ابلاغها ضرورة ذهابها فى الحال ؟ »

فأجابته وكأنها تحاول أن تريه وجه الصواب فى أقوالها : « ان الفتاة ستحضر من بتسبريدج فى الغد وأظن من الواجب أن تجد مكانا لنومها »

ونظر اليها ايتان فى كراهية فهى لم تعد تلك المرأة المنطوية التى عاشت الى جنبه لا تهتم الا بنفسها . بل سارت قوة غريبة سرية ، قوة سوء تجمعت اثر سنوات طويلة من التفكير الصامت وزاد من حدة كراهيته شعوره بالعجز . ولم يكن فيها ما يمكن للمرء أن يحبه ولكن مادام يستطيع أن يتجاهل هذا الامر وينفذ اغراضه فقد ظل غير آبه ولكنها الآن تغلبت عليه فملأت نفسه بالكراهية ، وليست ماتى الا قريبة لها ، لا قريبته ، فلم يكن أمامه من وسيلة ليرغمها على الاحتفاظ بالفتاة فى ظل دارها . فهبت فى نفسه ذكرى ماضيه الذى لم يتحقق وفشل شبابه والمتاعب والجهد الذى لا جدوى معه . وانقلبت الى مرارة تتمثل فى تلك المرأة التى كانت تسد الطرق فى وجهه أينما يتجه . لقد انتزعت منه كل شىء وهى تريد الآن ان تنتزع الشىء الوحيد الذى يعوضه عن كل شىء آخر . وقد اشتعلت نار الكراهية فى نفسه لحظة وجرت فى ذراعه فضم قبضته وتقدم بلا وعى خطوة الى الامام ثم وقف .

وقال فى صوت المتحير « هل ـ هل ستنزلين الآن ! »

فأجابت فى هدوء « لا أظن ! سأرقد على فراشى بعض الوقت» فاستدار وغادر الغرفة .

وكانت ماتى جالسة بجوار الموقد ورقدت القطة بين ركبتيها،

فهبت واقفة عندما دخل ايتان وحمل طبق فطير اللحم الذى كان مغطى الى المائدة .

فسألت « أرجو ألا تكون زينة مريضة ؟ »

فأجاب « لا »

وكانت تضىء له المائدة بجلوسها على الجانب الآخر وقالت « فلنجلس اذن للطعام فى الحال اذ لابد أنك تشعر بشدة الجوع» ورفعت الغطاء ووضعت الطبق أمامه وكان عينيها تقولان: « اذن سنمضى ليلة سعيدة اخرى معا»

فأصاب شيئا من الطعام فى حركة آلية وأخذ يأكل ثم شعر باشمئزاز فى حلقه وأعاد الشوكة

ونظرت اليه ماتى فى رقة ولاحظت ما فعله .

وقالت « ماذا جرى يا ايتان؟ الا يعجبك طعم الفطير ! »

فقال « نعم ! انه جيد جدا ،ولكننى... » وأبعد عنه الطبق . وقام من مقعده ومشى الى جانبها من المائدة ... فقامت واقفة وفى عينيها خوف

قالت « ان فى الامر شيئا يا ايتان ! أرى ذلك ! »

وكأنها ذابت أمام ما اعتراها من خوف فأمسك بها بين ذراعيه وضمها اليه وشعر بأهداب عينيها تضربان خديه كالفراشة الحبيسة

ثم تمتمت « ماذا هنالك ؟ ماذا هنالك ؟ » وكان قد وجد شفتيها فأخذ يرشف من فيها بلا شعور ونسى كل شىء الا لذة التمتع بها

وظلت ملتصقة به لحظة وقد جذبها التيار القوى ثم تخلصت منه فى رفق وارتدت خطوة أو خطوتين وامتقع لونها وقلق خاطرها وقد أثارت نظرتها عطفه فصاح وكأنه يراها غريقة فى حلم : «لن تذهبى يا مات ولن أسمح بذلك! »

فغمغمت سائلة « اذهب ! أذهب ؟ هل يجب أن أذهب ! »

وكانت الكلمات تتجاوب فيما بينهما كمشعل للتحذير ينتقل من يد الى يد فى ظلام الليل

وغلب ايتان الخجل لانه لم يسيطر على نفسه حين قذفها بالخبر فى وحشية ودارت رأسه فاضطر الى ان يستند الى المائدة وكان طول هذا الوقت يشعر كأنه لايزال يقبلها ولكنه يموت تعطشا الى شفتيها .

وصاحت سائلة : « ماذا حدث يا ايتان ؟ هل جن جنون زينة من أجلى ؟ »

فأيقظته صيحتها من أحلامه، ولو انها زادته غضبا وشفقة ، وأكد لها قائلا « لا ! لا ! ليس الامر كذلك ولكن الطبيب الجديد زادها قلقا على نفسها وانك لتعلمين أنها تعتقد فى كل مايقوله الاطباء فى أول مرة تراهم فيها . ولقد قال لها هذا الطبيب أنها لن تعود اليها صحتها اذا لم تمتنع عن عمل أى شىء فى الدار — لمدة شهور ستة »

وانقطع عن الكلام وقد حول عينيه فى تعاسة فظلت صامتة لحظة أمامه وقد ذبلت كالنور المنكسر وبدت صغيرة وضعيفة فتقطع قلبه ولكنها رفعت رأسها فجأة ونظرت اليه مباشرة وقالت « وهل تريد فتاة اكثر مهارة فى مكانى ، أليس كذلك ؟ »

قال « هذا ما تقوله الليلة »

فقالت « ان ما تقوله الليلة ستقوله غدا »

وأحنى الاثنان رأسيهما امام كلمة صدق لاشك فيها فهما يعلمان ان زينة لا تغير رأيها ، واذا أصرت على شىء فلابد أن يكون .

وساد بينهما صمت طويل ثم قالت ماتى فى صوت منخفض « لا تحزن ولا تبتئس لذلك يا ايتان ! »

فتأوه قائلا « رباه ! رباه » وقد خبا بريق العاطفة التى شعر بها وذاب . فصار شفقة اليمة ورأى جفون عينيها وهى تحاول ان تحتجز الدمع وود لو يضمها بين ذراعيه ليهدىء من روعها .

وقالت وقد حاولت أن تكون مرحة :

« لقد تركت عشاءك يبرد ! »

وصاح قائلا « أين تذهبين ؟ يا مات ! أين تذهبين ! »

فغضت من عينيهـــا ومرت رعشة على وجهها ورأى أن فكرة المستقبل بدت لها واضحة لأول مرة وقالت فى تردد « قد أجد عملا من الاعمال فى ستامفورد» وكأنها عالمة بأنه يعرف أن لا أمل فى ذلك

وسقط فى مقعده وغطى وجهه بيديه وتملكه اليـــأس اذ فكر فى أنها ستشقى وحدها جاهدة لتجدد البحث عن عمل · ففى المكان الوحيد الذى تعرفه كانت محوطة بعدم الاهتمـــام او بالعـــداء ، وماذا تكون فرصتها بين الملايين من الباحثين عن الخبز فى المدينة وقد عـادت الى ذاكرته قصص تعيسة سمعها فى ووستر ووجوه الفتيات اللاتى بدأن حياتهن فى الامـل مثل ماتى ··· انه من المستحيل أن يفكر فى مثل هذه الاشياء دون أن تثور نفســـه وهب واقفا فجأة وقال :

« لا يمكنك أن تذهبى يا مات ... لا أدعك ترحلين! انها دائما تنفذ رغبتها ولكنى عازم على أن أنفذ رغبتى الآن ··· »

ورفعت ماتى يدها فى اشارة سريعة ، وسمع خطوات امـراته من خلفه ·

ودخلت زينة الغرفة فى خطوتها المتئدة الهادئة وجلست سريعا فى مقعدها المعتاد بينهما ·

وقالت فى صوتهـــا الدائم الشكوى: « شـــعرت بذرة من تحسن وقد قال لى الدكتور بك أن من الواجب أن آكل ما استطعت كى أحتفظ بقوتى حتى ولو لم تكن لدى شهية للطعام » ومدت يدها الى ماتى لتناولهـا ابريق الشاى ، وكانت قد بدلت ثوب الخروج الثمين لديها بثوبها من الشيت الاسود وعلى كتفيها الشال الاسمر اللون ، وهذا لباسهـــا اليومى وقد بدت فى ســـحنتها العادية ومســـلكها المـألوف ، وصبت لنفسها الشاى ومزجته بكمية كبيرة من اللبن، واقتطعت قطعة كبيـــرة من فطيرة اللحم وبعض المخللات ثم أتت اشارتها العادية اذ تعدل من أسنانهـــا، وبدأت الاكل وتمسحت القطة بها بها لتسترضيهـــا فانحنت عليها قائلة : « انك هرة طيبة » واعطتها قطعة من اللحم من طبقها وجلس ايتان صامتا ، بينما كانت ماتى تلوك طعـــامها فى شـــجاعة ، وســـألت زينـــة سؤالا أو سؤالين عن زيارتهـــا

لبتسبريدج ، واجابت زينة فى صوتها العادى ثم اندفعت فى الحديث فقصت عليهما عدة اوصاف بارزة لامراض باطنية بين اصدقائها واقربائها وكانت تسدد نظرها لماتى وهى تتكلم وظهرت على وجهها ابتسامة باهتة زادت من عمق الخطوط بين انفها ورقبتها .

فلما انتهى العشاء قامت من مقعدها وضغطت بيدها الجزء المسطح من جسمها فيما فوق القلب وقالت فى لهجة لا تنطوى على الشر : « ان فطيرة اللحم التى تعملينها يامات تكون دائما ثقيلة على » وكانت قلما تختصر اسم الفتاة واذا فعلت فهى علامة الود .

وأتمت كلامها قائلة : « أظن من الخير أن اذهب لابحث عن مسحوق المعدة الذى جئت به فى السنة الماضية من سبرنجفيلد فأنى لم أستعمله منذ زمن بعيد وقد يفيد فى ازالة الالتهاب

ورفعت مات عينيها وجرأت على القول : « هل آتى به لك يا زينه ؟ »

فأجابت زينه فى غموض وقد ألقت احدى نظراتها السرية : « لا فانه فى مكان لا تعرفين عنه شيئا »

وخرجت من المطبخ وقامت ماتى وأخذت فى نقل الصحاف عن المائدة . وعندما مرت بمقعدايتان تقابلت عيناهما فى نظرة طويلة يائسة . وكان المطهى الدافىء لا يزال هادئا كشأنه فى الليلة السابقة وقفزت الهرة الى مقعد زينة المتحرك ، وبدأت حرارة النار تقوى من عبيق ازهار الجيرانيوم وقام ايتان وهو متعب واقفا على قدميه .

وقال : « سأنطلق الى الخارج لادور حول البيت » وذهب الى الممر ليحمل الفانوس .

وما آن وصل الى الباب حتى قابل زينه عائدة الى الغرفة . وكانت شفتاها ترتجفان غضبا وعلى وجهها الباهت حمرة التأثر وقد انحسر الشال عن كتفيها وهى تجرجره تحت أقدامها وكانت تحمل فى يديها قطع الطبق من الزجاج الاحمر .

وقالت وهى تنظر الى ايتان مرة ومرة الى ماتى « أحب أن أعرف من عمل هذا »

ولم تتلق جوابا واستمرت تقول فى صـــوت مرتعش ، ذهبت لاحضر المسحوق الذى خبأته فى علبة نظارة والدى القديمة ، فى أعلى دولاب أوانى الخـــزف حيث أضـــع الاشياء التى أريد الاحتفـاظ بهـــا ولا أحب أن تتداولها أيدى الناس » وهنـــا انقطع صوتها وظهرت دمعتـــان صغيرتان على أهدابها وانحدرتا فى بطء على خديها • ثم عادت الى قولها : « ولا يمكن الوصول للرف الاعلى الا باستعمال سـلم وقد وضعت الطبق الذى أهدته لي خالتي فياورا مابل عمـدا فى ذاك المكان حين تزوجنا ولم انزله من مكانه الا عند تنظيف الدار فى الربيع وكنت عندئذ أرفعه بيدى حتى لا ينكسر ! ثم وضعت قطع الزجاج باحترام على المائدة وقالت فى صـــوت مرتعش : « أريد أن أعرف من فعل هذا »

وعند هذا التحدى استدار ايتان عائدا الى الغرفة وواجهها قائلا : « استطيع ان أذكر لك الآن لقد كسرته الهرة »

« الهرة ؟ »

« هذا ما أقوله ! »

فصوبت نظرتها اليه ثم أدارت عينيها نحو ماتى التى كانت تحمل مجموعة الاطباق الى المائدة •

ثم قالت « أريد أن أعرف كيـــف دخلت الهـــرة دولاب الاوانى ؟ »

أجاب ايتان « أظنها كانت تطارد الفئران ، فقد رأيت فأرا فى المطهى ليلة امس » •

فظلت زينـه تجول بنظرها بينهما ثم أخرجت ضحكتهـــا القريبة وقالت فى صوت عال : « انى أعرف ان هذه الهرة ذكية ولكنى لم أتصور انها من الذكاء بحيث تجمع قطـــع الطبق الذى كسرته وترجعها كل قطعـة الى جانب الاخرى فوق الرف بعـد أن سقط بفعلها »

وجذبت ماتى ذراعها من الماء الساخن وقالت : « ليس لايتان من ذنب يا زينه ، فالهرة هى التى كسرت الطبق ولكنى أنا

التى أنزلتـــه من دولاب الاوانى الخزف وأنا التى تستحق اللوم على كسره » .

ووقفت زينه الى جانب بقايا كنزها وقد انتصب جسدها حتى لكأنها تمثال الغضب ثم صاحت « انت التى انزلت طبقى ؟ لماذا »

واصطبغ خدا ماتى بلون أحمر براق وقالت : « اردت أن يكون منظر مائدة العشاء جميلا ! » فقالت زينة :

« أردت أن تكون مائدة العشاء جميلة فانتظرت الى أن أدرت ظهرى وأخذت الشىء الذى اعتز به اكثر من اى شىء آخر أمتلكه ولم أستعمله قط حتى عندما يأتى قس الكنيسة للغـداء أو تأتي العمـة مارتابيرس من بتسبريدج ! »

وانقطعت زينة عن اتمام عبارتها بشهقة كان تعبر بهـا عن الخوف الذى انتابها لتدنيس هذا الشىء المقدس ثم عادت تقول :

« انك فتـــاة شريرة يا ماتى سيلفر واني أعرف ذلك دائمـا فيك فهى الطريقة التى ابتدأ بها أبوك ، وقد حذرنى الناس منك فحاولت أن أحتفظ بأشيـائى حيث لا تصل يدك اليها . ولكن يدك امتدت الى أنفس ما أحرص عليه » واندفعت فى البكاء فترة قصيرة عابرة ثم عادت الى شأنها المعهود كتمثال من الحجارة .

وشرعت تقول : «لو أنى أصغيت الى رأى الناس لذهبت قبـل الآن ولما حدث منك هذا »ثم حملت قطع الزجاج المكسور وخرجت بها من الغرفة وكأنها تحمل جثـة هامدة .

- ٨ -

عندما دعى ايتان الى المزرعة على أثر مرض أبيه دبرت له أمه غرفة صغيرة لاستعماله الخاص فيما وراء غرفة الضيوف التى لايقيم بها أحد وفى هذه الغرفة أقام رفوفا كثيرة ثبتها الى الحائط بمسامير وصنع مقعدا واسعا على هيئة صندوق من بعض الالواح وعلق على الحائط المصنوع من جص صورة لابراهام لنكولن ونتيجة زمنية عليها آراء للشعراء وحاول بهذا الاثاث الضئيل أن يقلد بعض التقليد غرفة المكتب لدى قس عرفه فى ووستر ، كان يعيره بعض الكتب ، وكان لا يزال يستعمل هذه الغرفة فى الصيف ولكن حين جاءت ماتى للمعيشة بالمزرعة فى الصيف أعطاها الموقد فصارت الغرفة لاتسكن لعدة شهور فى السنة .

قصد هذا المأوى بمجرد أن ساد السكون الدار وتأكد من تنفس زينة المنتظم أن مشادة المطهى ليس وراءها ما يعقبها . ولقد ظل ايتان وماتى صامتين بعد أن غادرتهما زينة ، لا يحاول أحدهما أن يقترب من الآخر . ثم عادت الفتاة الى عملها فى تنظيف المطهى بعد العشاء وحمل هو الفانوس وذهب لدورته العادية حول الدار . وكان المطهى خاليا حين عاد اليه ولكن غليونه وكيس دخانه وضعا على المائدة وتحتهما قطعة ورق انتزعت من غلاف اعلان بائع الحبوب ، وقد كتب عليها ثلاث كلمات « لا تحزن يا ايتان »

فلما ذهب الى غرفته المظلمة الباردة وضع الفانوس على المنضدة وقرأ هذه الرسالة مرة ومرة ، وكانت أول مرة كتبت له فيها ماتى رسالة . وكان امتلاكه لهذه الورقة يشعره بشعور جديد غريب هو أنها قريبة منه . ولكنها زادت من ألمه اذ ذكرته بأنهما منذ الآن سوف لايجدان وسيلة للاتصال غير هذه الوسيلة فلا يجد من الحياة فى ابتسامتها والحرارة فى صوتها غير الورق البارد والكلمات الميتة .

هبت فى نفسه حركات ثورية غامضة ففيه من الشباب والقوة وعصارة الحياة ما لا يخضع بسهولة لتحطيم آماله . فهل يقضى سنى حياته ويبليها الى جانب امرأة عنيدة تنطوى نفسها على المرارة ؟ لقد كانت أمامه فرص وظروف ضاعت واحدة فواحدة أمام ضيق ذهن زينه وجهلها واى نفع نشأ عن ذلك ؟ كانت أشد مرارة وأقل رضا ائة مرة عما كانت عليه حين

زواجها ٠وكانت اللذة الوحيدة التى بقيت لها هى ان تسبب له الالم ولقد قامت فى نفسه الغريزة الطبيعية وهى الدفاع عن النفس أمام مثل هذا العبث ٠

انه يعرف حالة رجل على الجانب الآخر من الجبل ، وهو شاب فى مثل سنه ، تخلص من مثل هذه الحياة التعيسة بان ذهب الى الغرب مع الفتاة التى أحبها ، وقد طلق من زوجته وتزوج هذه الفتاة ونجح فى الحياة ، ورأى ايتان هذين الزوجين فى الصيف السابق فى شلالات شاد حين جاءا لزيارة بعض الاقرباء ٠وكانت لهما أبنة صغيرة شقراء الشعر تضع فى صدرها حلية من الذهب وكانت ثيابها كثياب أميرة صغيرة ولم يكن نصيب المرأة المهجورة أسوأ من الزوجة فقد نزل لها الزوج عن مزرعة واسع استطاعت بيعها ٠ وبثمنها وبالنفقة المقدرة لها افتتحت مطعما صغيرا فى بتسبريدج ، وازدهرت أعمالها وصارت لها مكانتها ٠ وقد أشعل هذا التفكير جذوة فى نفسه :لماذا لايرحل فى اليوم التالى مع ماتى بدلا من ان يدعها ترحل وحدها وسيخفى حقيبته تحت مقعد الزاحفه ولا تشك زينه فى شىء الى أن تصعد لغرفتها للراحة بعد ظهر ذاك اليوم فتجد رسالة على فراشها ٠

كانت دوافعه لاتزال سطحية ،فهب من مقعده وأشعل الفانوس وجلس الى المنضدة ، وبحث عن ورقة فوجدها وابتدأ الكتابة :

« انى فعلت من أجلك يازينة كل ماأستطيع فعله ، ولم أر أن لذلك فائدة ، ولا ألومك على ذلك كما لا ألوم نفسى وقد يكون من الخير أن ننفصل ، وسأذهب لاجرب حظى فى الغرب وتستطيعين أنت أن تبيعى المزرعة والطاحونة وتحتفظى بالثمن ٠٠»

وهنا وقف القلم عند هذه الكلمة التى نبهته الى ظروفه التى لاترحم : فاذا وهب زينه المزرعة والطاحونة فماذا يبقى له لابتداء حياة جديدة ؟ انه ليس على يقين من انه سيجد عملا فى الغرب ، ولم يكن ليخشى على نفسه من المحاولة وهو وحيد ،ولكن الموقف يتغير حين تكون ماتى معتمدة عليه ٠وماذا يخبىء القدر لزينة؟ ان المزرعة والطاحونة مرهونتان الى حدود قيمتها ، واذا وجدت مشتريا ، وهو أمر مستبعد ،فمن المشكوك فيه أن يتبقى لها ألف دولار من الثمن ٠٠ وكيف تدبر أمور المزرعة ؟ ان ايتان لايخرج منها مايقيم أوده الا بالعمل المستمر ، والملاحظة

الشخصية الدائمة ، ولا يمكن لزوجته أن تتحمل هذا العبء وحدها ولو كانت فى صحة أقوى منى عليه .

تستطيع اذن أن تعود الى أهلها وترى ماذا يفعلون من اجلها . . انه القدر الذى تريد أن تجبر ماتى عليه فلم لا تجربه هى ؟ والى أن تكتشف مقره وتقيم قضية طلاق يكون على الراجح قد وجد عملا يربح منه مايمكنه من أن يدفع لها نفقة مناسبة . أما الجانب الاخر من المسألة فهو ان يدع ماتى تذهب وحدها دون أن يكون هنالك أمل فى أن تجد من يعينها .

كان قد بعثر محتويات درج المكتب فى بحثه عن فرخ من الورق واذ أمسك بالقلم سقطت عيناه على نسخة من جريدة « نسر بتسبريدج » وكانت صفحة الاعلانات مطوية أمامه فى القسم الاعلى وقرأ فيها الكلمات المغرية : سياحة الى الغرب بأسعار مخفضة .

وجذب الفانوس الى قرب وقرأ الاجور بلهفة ، ثم سقطت الجريدة من يده ودفع الرسالة التى لم يتمها جانبا ، وكان منذ لحظة يفكر فيما يعيش عليه هو وماتى عندما يبلغان الغرب ، ولكنه رأى الآن أنه لا يجد حتى المال الذى يأخذها به الى الغرب ولم يكن الاقتراض مستطاعا فانه منذ ستة أشهر قدم ضماناته الوحيدة للحصول على المال ولعمل اصلاحات ضرورية فى الطاحونة وهو يعلم انه لن يستطيع اقتراض عشرة دولارات فى ستاركفيلد من غير ضمان . وأطبقت عليه الحقائق التى لايمكن تجاهلها كما يفعل حراس السجن حين يضعون مذنبا فى الاغلال ـ لم يكن هنالك من سبيل ـ لاسبيل فانه سجين طول الحياة ، وسينطفىء الآن بصيص النور الوحيد فى حياته

عاد متثاقلا الى الاريكة ومد أعضاءه المرهقة حتى ليشعر أنه لن يتحرك من بعد وارتفعت الدموع الى حلقه ثم سارت فى طريقها فى بطء الى جفنيه وهى كالنار المحرقة .

وبينما هو فى رقدته أخذ زجاج النافذة المواجه له يضىء تدريجيا ، ورصع الظلام حوله مربعا من سماء أنارها ضوء القمر ، وكان غصن من شجيرة يقطع أحيانا هذا الضوء ، وهو غصن شجيرة التفاح التى كان يجد ماتى جالسة تحتها أحيانا فى ليالى الصيف عند عودته من الطاحونة . وقد اشتعلت بالضوء أطراف السحب الممطرة ، ثم ذهبت السحب وبرز ضوء القمر خالصا فى سماء زرقاء ، واستند ايتان الى رسغه وأخذ

يراقب المنظر وهو يزيد بياضـاثم يزداد وضـــوحا تحت تأثير القمر . وفى تلك الليلة كان يجب أن يأخذ ماتى الى ممارسة الانزلاق وهنالك كان المصباح الذى يضىء لهما الطريق . وأطل على منحنيات الجبال فى بريقهـــا ورأى ظلال الغابات التى طليت أطرافهـــا بالفضة واحمرار التلال كالاشباح وهى على وجه السماء وكأن الليل بدا فى أبهى حلة ليســـخر من تعاسته .

وغلبه الكرى وحين استيقظ كان برد الفجر فى الشتاء قد بلغ الغـــرفة فشعر بالبرد وتصلب جسده بالجوع وأحس بالخجل لانه جاع . ففرك عينيـــه وذهب الى النافذة وكانت شمس حمراء قد ظهرت على أطراف الحقول الرمادية اللون وراء أشجار تبدو سوداء منكسرة وقال لنفسه .. هذا هو اليوم الأخير لمات وحاول أن يتخيل الدار بغيرها .

وبينما هو واقف سمع خطوة من خلفه ودخلت ماتى سألتـــه : « أكنت هنـــا طول الليل يا ايتان ؟ »

وكانت تبدو صغيرة ضئيـــلة فى ثوبها الرخيص وهى ملتحفة بشالها الاحمر وقد بدل الضوء الابيض لون بشرتهـــا من اللون الباهت الى الشـــحوب حتى ان ايتان وقف أمامها لايستطيـــع الكلام

وأستمرت تقول وقد صوبت اليـــه عينين زال عنهما البريق « لايد أن اطرافك تجمدت »

وأقترب منها خطوة وسألها : « كيف عرفت بوجودى هنا ؟ »

قالت : « انى سمعتك تنزل مرة ثانية بعد ان أويت الى فراشى وأصغيت طول الليل فلم أجدك تصعد ثانيا »

واجتمع كل ما يشعر به من عطف عند شفتيه فنظر اليهـــا وقال : « سأذهب معك الآن لايقاد النار فى المطهى » .

وعاد الى المطهى وأتى بالفحم والاخشاب ونظف لها الموقد فى حين انها أتت باللبن وبقايا فطيرة اللحم وعندما بدأت الحرارة تشع من الموقد ونفذ أول شعاع من الشمس الى أرض المطهى بدأت أفكار ايتـــان السوداء تذوب وتتحول الى أفكار أكثر رقة فخيل اليه وهو يرى ماتى تقوم بعملها كعادتها فى كل صبـــاح أنه من المستحيل أن تنقطع عن أن تكون جزءا من المنظر وقال لنفسه انه

بالغ بلاريب فى معنى تهديدات زينة ، وانها أيضا ستكون أعقل مع طلوع النهار .

وذهب الى ماتى وهى منحنية على الموقد ووضع يده على ذراعها وقال لها وهو ينظر فى عينيها بابتسامة « أريد منك ألا تقلقى أيضا »

فاحمر وجهها فى حـــرارة وهمست ترد عليه « لا يا ايتان! سوف لا أقلق »

فأضاف قائلا « أظن أن الامور ستتحسن » .

فلم يتلق اجابة عن ذلك غير حركة سريعة لجفنيهـا واستمر يقول « هل لم تقل شيئا فى هذا الصباح ! »

فأجابت : لا ! لم أرها بعد !

فقال : لا تهتمى اذا رأيتها !

تركها بعد هذا الرجاء وخرج الى حظيرة البقر وقد رأى يوتام باول يصعد التـل خلال ضباب الصباح وكان هذا المنظر الذى اعتاده مما زاد الطمأنينة فى نفسه

وبينما كان الرجلان ينظفان أمكنة طعـام البقر ارتكن يوتام على منجلته وقال « سـيذهب دانيل بيرن الى المنبسطات فى ظهر اليوم ويستطيع أن ينقل حقيبة ماتى معه مما يسهل على أخذها معى فى الزاحفة »

ونظر اليه ايتان فى ذهول فاستمر يقول « وتقول السيدة فروم ان الفتاة الجديدة ستبلغ المنبسطات فى الساعة الخامسة ويجب أن أذهب بماتى عنـدئذ كى تركب قطار الساعة السادسة الى ستامفورد »

شعر ايتـــان بالدم يدب فى عروقه ومضت فتـرة قبـل أن يستعيد صوته ليقول « ليس من المؤكد ذهاب ماتى ! »

فقال يوتام فى عدم اهتمام « أهذا صحيح؟ » وعادا لعملهما

وعندما عادا الى المطهى كانت المرأتان تأكلان فطـورهما وكان يبدو على زينه اليقظة والنشاط غير المعتـاد وشربت فنجانين من القهوة وأطعمت القطة بنتف من فطيرة اللحم ثم قامت من مقعدها وسـارت الى النافذة وشدت ورقتين أو ثلاثا صفراء من نبـات الجيرانيوم وقالت فى تفكير « لا توجد ورقة صفراء لدى العمـة مارتا ولكن النباتات تذبل اذا ما أهمل شأنها » ثم التفتت الى يوتام وسألت « تقول متى يأتى دانيل بيرن ؟ »

فألقى الرجل الاجير نظرة تردد نحو ايتـــان ثم قال « قرب الظهر »

والتفتت زينـــه الى ماتى وقالت « ان حقيبتك أثقـــل من أن تحملها الزاحفة وسيأخذهادانيل بيرن معه »

فقالت ماتى : شكرا لك يا زينه ٠

وأتمت زينه كلامها فى صوت ثابت « أحب أن أفحص معك الاشياء أولا فانى أعرف أن هنالك فوطة لا أجدها ، ولا أعرف ماذا عملت بخزانة الكبريت التى كانت موضوعة وراء البومة المحنطة فى غرفة الضيوف » ٠

وخرجت تتبعها ماتى ولما اختلى الرجلان قال يوتام لرئيســـــه « أظن الأوفق أن أحبر دانيل بالمرور هنا »

وانتهى ايتان من أعمال الصباح العـادية فى الدار وفى الجرن ثم قال ليوتام « سأذهب الى ستاركفيـــــلد ، قل فى الدار انى لا أحضر للغداء »

وقد هبت فيه روح الثورة مرة ثانيـة فان الذى بدا له غـير مصدق فى ضوء النهـار الذى يحمل على التعقل قد حدث فعلا وعليه أن يشهد ابعاد ماتى وهو كالمتفرج الذى لا شأن له به ٠ ولقد أهينت رجولته بالدور الذى كان عليه أن يلعبه وبالتفكير فيما لابد أن يكون لماتى من رأى فيه ٠ وتنازعت نفسه دوافع غامضة وهو يسير فى القرية وعقد العزم على أن يعمـل شيئا ولـكنه لم يعرف ما يفعله ٠

اختفى ضباب الصباح وبدت الحقول كأنها درع فضـــيه تحت ضـوء الشـمس وكان يوما من الايام التى يبدو فيها بريق الشتاء تحت غلالة باهتة من الربيع ٠ وكانت صورة ماتى ماثلة أمامه طول الطريق ولا يكاد يكون هنالك غصن يظلل السماء أو كومة من الاعشاب المتشابكة على جانبه يخلو من ذكرى براقة لها ٠ وذات مرة اخترق السكون نداء طير فى حرج جبلى فكان شديد الشبه بضحكتها حتى أن قلبـه انكمش ثم تمدد ٠ وكل هـذه الامور أرته أن من الواجب ان يفعل شيئا فى الحال ٠

وفجأة خطرت له فكرة ، هى أن أندرو هايل ، وهو رجل ذو قلب رحيم ، قد يعدل رفضه ويقدم له مبلغا صغيرا من ثمن الاخشاب لو علم أن حالة زينه الصحية تتطلب استئجـار خادمة ٠ وكان هايل يعلم ما فيه الكفـاية عن موقف ايتان ، فمن المستطاع ان يجدد له

الرجاء دون أن ينزل كثيرا عن كبريائه . وفضلا عن ذلك ما قيمة الكبرياء أمام غليان العواطف في صدره ؟

وكلما فكر في مشروعه كبر في نفسه الامل ، واذا كان يؤثر في أذن مسز هايل فلابد له من النجاح واذا كان في جيبه خمسون دولارا فلا شيء يحول بينه وبين ماتى

كان غرضه الاول أن يبلغ ستار كفيد قبل أن يبرحها هايل لعمله فهو يعلم أن النجار يقوم بعمل في طريق كاربورى ومن الراجح أن يغادر منزله مبكرا فزادت سرعة ايتان في خطواته الواسعة مع سرعة تفكيره وحين وصل الى أسفل تل المدرسة رأى زاحفة هايل تبدو من بعيد ، فأسرع ليقابلها ولكنه حين اقترب منها رأى أن الذى يقودها هو ابن النجار الاصغر وان الجالس الى جانبه ويبدو كشرنقة كبيرة وضعت مستقيمة وألبست نظارة

ان هى الا السيدة هايل فأشار ايتان اليهما بالوقوف وأطلت عليه السيدة هايل وقد أبرقت أساريرها وتجاعيدها بعلائم العطف

قالت له « انك تسأل عن مستر هايل ؟ نعم ستجده في الدار الآن فهو لا يذهب للعمل فيما قبل الظهر ، وقد استيقظ فاذا به يشعر بشيء من آلام النقرس فحملته على أن يضع احدى لزقات الدكتور كايدر الكهل ويجلس الى جانب النار »

وكانت تنظر الى ايتان نظرة الوالدة فانحنت لتقول « انى سمعت أخيرا من مستر هايل أن زينة ذهبت الى بتسبريدح لترى الطبيب الجديد . واني لآسفة حقا لاشتداد وطأة المرض عليها مرة ثانية ، فهل تظن أحدا هنا يستطيع أن ينفعها ؟ انى لا أعرف أحدا في هذا المكان شعر بوطأة المرض أكثر من زينه . واني لأتساءل ومستر هايل دائما : ماذا يكون من أمرها لو لم تجدك للعناية بها ، وكنت أقول مثل هذا عن أمك فلقد كان القدر شديد الوطأة عليك يا ايتان فروم »

وأحنت له رأسها أخيرا علامة العطف بينما أخذ ابنها يستحث الجواد ووقف ايتان في منتصف الطريق وأخذت الزاحفة تتوارى عنه وهو يحدق فيها

لم يتكلم اليه أحد بمثل العطف الذى أظهرته له السيدة هايل منذ وقت بعيد وكان أكثر الناس لا تهمهم متاعبه أو أنهم يرون من الطبيعى أن شابا في مثل سنه يحتمل بلا شكوى عبء

حياة ثلاثة أشخاص عاجزين . ولكن السيدة هايل قالت له «ان القدر كان شـديد الوطأة عليك يا ايتان فروم ! » وشعر انه أقل انفرادا بالتعاسة فاذا كانت أسرة هايل آسفة له فمن المؤكد أنها تجيب نداءه .

وابتدأ ينزل فى الطريق الى دار الاسرة ، ولكنه بعد أن قطع بضع ياردات توقف عن السـير فجأة وقد ارتفع الدم الى وجهه . ولأول مرة رأى فى ضوء الكلمات التى سمعها ماهو قادم على فعله فهو ينوى الاستفـادة من عطف أسرة هايل للحصـول على المال منهم بوسيلة احتيـالية . هذا هو الواقع الصريح للغرض الغامض الذى دفعه رأسا الى ستاركفيلد

ولما أن رأى فجأة الى أى حد دفعه جنونه زال هذا الجنون عنه ورأى حياته أمامه كما هى : انه رجل فقير متزوج من امرأة مريضة اذا هجرها صارت وحيدة معدمة واذا وجد القوة على هجرها فانه لن يفعل ذلك الا بخداع شخصين عطوفين أشفقا عليه

فاستدار وعاد أدراجه الى المزرعة فى بطء

—٩—

كان دانيل بيرن جالسا على باب المطهى فى زاحفته خلف جواد رمادى اللون غليظ العظام يدق الثلج بحافره ويقلب رأسه الطويل من جانب الى جانب

وذهب ايتان الى المطهى ووجد زوجته الى جانب الموقد ملتحفة بشالها فوق رأسها . وهى تقرأ فى كتاب « أمراض الكلى وطرق علاجها » جاءها بالبريد منذ أيام ناقصا بعض الطوابع فاضطرت لدفع رسوم البريد الزائدة عليه

ولم تتحرك زينه من مكانها ولم تنظر اليه حين دخل وبعد لحظة سأل « أين ماتى ؟ » فأجابته دون أن ترفع عينيها من صفحة الكتاب « ذهبت على الغالب لنقل حقيبتها ! »

فارتفع الدم الى وجهه وسأل « تنقل حقيبتها .. وحدها ؟ »

فردت قائلة « ان يوتام باول يقطع أخشابا ويقول دانيل بيرن أنه لا يجرؤ على ترك الجواد »

ولم ينتظر زوجها حتى يسمع تتمة العبارة بل ترك المطهى وارتقى الدرج مسرعا وكان باب غرفة ماتى مغلقا فتردد لحظة أمام الباب ثم همس مناديا « مات ! » ولكنه لم يسمع جوابا فوضع يده على مقبض الباب

لم يدخل غرفتها من قبل الا مرة فى أوائل الصيف حين أراد أن يغطى بالجص شقا ظهر فى السقف ولكنه يذكر جيدا منظر كل شىء فيها فيذكر عطاء الريش بلونه الاحمر والابيض ومخدة الدبابيس الجميلة على الصندوق ذى الادراج وصورة أمها فى اطار من المعدن المطلى ووراءها باقة من الحشائش الملونة بالاصباغ ، وقد اختفت الآن كل هذه العلائم الدالة على سكناها الغرفة فصار منظر الغرفة عاريا جامدا كما كانت عندما دخلتها مع زينه فى أول يوم وصولها . وقد رآها جالسة فوق الحقيبة فى وسط الغرفة وهى فى الثوب الذى ترتديه يوم الاحد وقد أدارت ظهرها الى الباب وغطت وجهها بكفيها ، فلم تسمع نداء ايتان لانها تبكى ولم تسمع خطوته الى أن وقف خلفها ووضع يديه على كتفيها .

وقال : « مات ! كفى ! لا تبكى يا مات ! »

فهبت واقفة ورفعت اليه وجهها المبلل بالدموع وقالت : « ظننت يا ايتان انى لن أراك مرة ثانية »

فضمها بين ذراعيه واحتضنها بشدة ورفع الشعر الذى تدلى على جبينها بيد مرتعشة

وقال : « لن ترينى مرة ثانية .. ! كيف .. ؟ »

فقالت وهى تبكى : « أخبرنى يوتام ألا ننتظرك فى الغداء وظننت ... »

فأتم عبارتها فى خشونة قائلا : « ظننت انى أردت ان انتهى من كل ذلك .. ! »

وتعلقت به دون أن تجيب فوضع شفتيه على شعرها الناعم الغزير كالحشائش فى المنحدرات الدافئة ، العطر برائحة كرائحة فتات الاخشاب تحت أشعة الشمس .

ونفذ صوت زينة من الباب اليهما وهى تنادى من أسفل :

« يقول دانيل بيرن فلتسرعى اذا أردت أن تنقلى هذه الحقيبة »

فافترقا وقد اربدت ملامحهما وارتفعت الى شفتى ايتان كلمات المقاومة ، الا أنها ماتت عندهما . ووجدت ماتى منديلها وجففت عينيها ثم انحنت وأمسكت بمقبض الحقيبة .

ونحاها ايتان جانبا وهو يأمرها : « دعيها يا مات .. ! »

فأجابت : « انها تحتاج الى شخصين لنقلها الى خارج الغرفة » ونزل عند هذا الرأى وأمسك بالمقبض الآخر .. ! وتمكنا من نقل الحقيبة الى الخارج ثم كرر القول : « دعيها .. ! »

ورفع الحقيبة الى كتفيه وحملها نازلا بها من السلم وقطع بها الممر الى المطهى . وكانت زينة قد عادت للجلوس الى جانب الموقد ، ولكنها لم ترفع رأسها من كتابها وهو فى سيره ، وتبعته ماتى الى خارج الباب وساعدته فى وضع الحقيبة فى مؤخرة الزاحفة ، ثم وقفا جنبا الى جنب على عتبة الباب يرقبان دانيل بيرن يتخذ مكانه خلف جواده العنيف .

وخيل الى ايتان أن قلبه مشدود الى رباط تزيد من شده يد غير منظورة كلما دقت لحظات الساعة فى سيرها . وفتح ايتان شفتيه مرتين ليخاطب ماتى فلم يجد صوتا ينطق به ، وأخيرا حين استدارت للعودة الى الدار وضع يده عليها ليوقفها قليلا .

وهمس : « سأكون أنا السائق لزاحفة فى سفرك يا مات » .

فتمتمت قائله : « أظن زينة تريد أن أذهب مع يوتام » .

فكرر القول : « سأكون أنا السائق لزاحفتك يا مات » ..

ودخلت الى المطهى دون أن تجيبه ..

ولم يستطع ايتان ان يأكل فى الغداء وكان اذا رفع عينيه

وقعتاعلى وجه زينة المجعد، وبدا له أن جوانب فمها تنفرج فى ابتسامة وقد اكلت بشهية معلنة أن حالتها الصحية تحسنت بتحسس الجو ، ودعت يوتام باول الى تناول نصيب آخر من الفول وكان من عادتها تجاهل امره ..

فاذا انتهى الطعام أخذت ماتى تقوم بعملها العادى من نقل ما وضع على المائدة وتنظيفها وغسيل الاطباق ، وجلست زينة بعد اطعام الهرة على المقعد المتحرك بجوار الموقد وبارح يوتام باول مقعده فى تردد وهو عادة آخر من يقوم عن الطعام وتحرك نحو الباب .

وحين بلغ الباب استدار ليسأل ايتان : « فى أية ساعة أعود لاسافر بماتى .. ؟»

وكان ايتان واقفا بقرب النافذة يملأ غليونه بحركة آلية وهو يراقب ماتى فى حركتها ذاهبة وجائية ، فأجاب : « لا حاجة لمجيئك فسأذهب أنا بماتى الى المحطة »

ورأى خد ماتى يصطبغ بالاحمرار وزينة ترفع رأسها فى سرعة ..

وقالت الزوجة : « أحب ان تبقى هنا بعد ظهر اليوم يا ايتان ويستطيع يوتام أن يذهب بماتى ! »

وألقت ماتى نحوه نظرة توسل ولكنه كرر فى اختصار : « سأذهب معها بنفسى » !

وقالت زينه فى صوتها المتزن : « اردت أن تبقى لتصلح الموقد فى غرفة ماتى قبل أن تأتى الفتاة الاجيرة فمنذ شهر لم يكن الدخان ينسحب جيدا » .

فارتفع صوت ايتان فى غضب : « أظن أن ماكان مقبولا لدى ماتى يصح أن تقبله فتاة أجيرة!»

وأصرت زنيه فى صوتها المتزن على القول : « أعلنتنى الفتاة القادمة أنها معتادة الاقامة بمنزل فيه فرن »

فرد فى سرعة : « اذن كان يحسن بها أن تبقى حيث هى !»

والتفت الى ماتى وقال لها فى صوت جاف : « فلتستعدى فى الساعة الثالثة يا ماتى ، فان لدى عملا فى كربورى »

كان يوتام باول قد قصد الى الجرن وتبعه ايتان اليه وهو يستشيط غضبا وعارضاه ينتفضان بشدة وعلى عينيه غشاوة ويسير فى عمله وهو لا يدرى أية قوة تسيره ويمشى بقدمين ويعمل بيدين لا يكاد يدرى من أمرهما شيئا ، ولم ينتبه الى نفسه الا بعد أن خرج الجواد الاسمر وأوقفه بين مقبضى الزاحفة ورمى

باللجام على رأسه ، وربط المقبضين وشدهما فتذكر اليوم الذى تأهب فيه مثل هذا التأهب ليذهب الى المنبسطات ويأتى بقريبة زوجته . كان ذلك منذ اكثر من سنة بقليل بعد ظهر يوم رائق مثل هذا اليوم فى جوه نفحة الربيع ، وفى ذاك اليوم التفت الجواد الاسمر بعينيه الواسعتين وشم بأنفه يده كما يفعل الآن فعادت اليه ذكرى الايام الخالية بين فترتين ، واصطفت أمامه يوما بعد يوم .

ورفع الغطاء من فرو الدب فى الزاحفة وصعد الى مقعده فيها ، وسار بها الى الدار وعندما دخل المطهى وجده خاليا ، ولكن حقيبة ماتى اليدوية ودثارها كانا الى جانب الباب ، فذهب الى أسفل السلم وأصغى فلم يسمع صوتا من الطابق الاعلى ولكنه ما لبث أن سمع حركة فى الغرفة المهجورة التى اتخذها للبحث . ففتح الباب ورأى ماتى واقفة فى قبعتها رسرتها الى جانب المائدة وظهرها اليه .

وبوغتت بدخوله واستدارت فى الحال وقالت :

« هل حان الوقت .. ؟ »

فسألها : « ماذا تفعلين هنا يا مات .. ؟ »

فنظرت اليه فى خجل واجابت فى ابتسامة مترددة :

« كنت ألقى نظرة الى ما حولى .. هذا كل شىء . . »

وعادا الى المطهى دون أن يكلمها ، وحمل ايتان حقيبتها اليدوية ودثارها وسأل : « أين زينة ؟ »

فأجابته : « لقد صعدت الى غرفتها بعد الغداء مباشرة وقالت انها تشعر بتلك الآلام المبرحه تعود اليها ، وانها لا تريد أن يقلقها أحد » ..

سأل : « ألم تودعك ؟ ! »

فأجابت : « لا .. ! هذا كل ما قالته ! »

ونظر ايتان فى بطء حول المطهى وارتعد اذ قال لنفسه أنه سيعود بعد ساعات اليها وحده ثم تغلب عليه الاغراق فى الخيال فلم يستطع أن يصدق أن ماتى تقف أمامه للمرة الاخيرة ..

فقال لها فى لهجة تكاد تنم على الانشراح : « هيابنا » وفتح الباب وحمل كيسها الى الزاحفة ثم قفز الى المقعد وانحنى ليدثرها بالغطاء فدلفت الى جانبه ثم صاح بالجواد :

« انطلق » ، بعد أن هز اللجام فسار الجواد فى هدوء ينحدر من التل .

وصاح قائلا : « ان لدينا الوقت لنزهة طريفة » وبحث عن يدها تحت الفرو وضغطها فى يده ، وكان وجهها مختفيا ، وشعر بدوار كأنه وقف فى أحدأيام العطلة يتناول خمرا فى مقهى ستار كفيلد .

ووصل الى المدخل الخارجى للدار فعرج بالجواد الى اليمين صاعدا فى الطريق الى بتسبريدج بدلامن السيرفى طريق ستاركفيلد وجلست مانى ساكنة لا تبدى أية علامة تدل على الدهشة ، ولكنها قالت بعد لحظة : « هل أنت عازم على الذهاب عن طريق بحيرة الظلال ؟ »

فضحك وأجاب : « حذرت أنك ستعرفين .. »

وزادت التصاقا به تحت فرو الدب ، ولو أنه نظر جانبيا حول كم سترته لما رأى غير مقدمة انفها وخصلة متطايرة من شعرها الاسمر وكانت الزاحفة تسير بهما فى بطء صاعدة فى الطريق بين حقول تلمع تحت ضوء الشمس الباهتة . ثم اتجهت الى اليمين نازلة فى طريق ضيق ، غرست على جانبيه الاشجار وكانت أمامهما سلسلة من تلال ترى عليها بقع من الغابات السوداء وتؤلف هذه التلال دوائر بيضاء متتابعة الى ما وراء السماء . ثم انتقلت بهما الزاحفة من هذا الطريق الضيق الى غابه صنوبر مليئة بكرات الصنوبر .. صبغتها الشمس بالحمرة فيما بعد الظهيرة وتلقى أشجارها ظلالا خفيفة زرقاء على الثلج ، وحين دخلا الغابة هدأت الريح وكان الدفء والسكون خيما مع ابر الثلج المتساقطة من الاغصان .. وكان الثلج هنا ناصعا حتى أن الآثار الدقيقة لحيوانات الغابة قد تركت عليه ما يشبه نقوش الدانتلا ، وتبدو كرات الصنوبر التى سقطت على سطحه كحلى من البرونز .

واستمر ايتان يسير بالزاحفة فى صمت الى أن بلغا قسما من الغابة كانت الاشجار فيه أقل تكاثفا ، فوقف الزاحفة ، وساعد ماتى على النزول منها . ومرا بين الجذوع العطرة والثلج يتكسر فى جفاء تحت أقدامهما الى أن بلغا بحيرة صغيرة مجللة بالاشجار ، وعلى سطحها المتجمد من الجانب المقابل لهما تل واحد يرتفع الى كبد الشمس الغاربة ويلقى ظلا طويلا كالقمع ، ولذلك سميت بحيرة الظلال ، وكانت بقعة سرية منزوية تنطوى على مثل الحزن الصامت العميق فى قلب آيتان !

وبحث فى جوانب ذلك الشاطىء ذى الجص والاحجار الى أن وقع نظره على جذع شجرة ملقى كاد يغطيه الثلج ، وأخذ

يوقد ذاكرتها قائلا : « هنا جلسنا عندما قمنا برحلة صغيرة »

وكانت تلك النزهة احدى النزهات القليلة التى اشتركا فيها معا وهى رحلة نظمتها الكنيسة بعد ظهر يوم طويل من أيام الصيف السابق . فامتلأ المكان بمرح المتنزهين وكانت ماتى قد رجته فى أن يذهب معهم ولكنه رفض ، ثم حدث قبيل الغروب أن كان نازلا من الجبل حيث كان يقطع أخشابا فقابل فريقا من المتنزهين أوغلوا الى ناحيته فجذبوه الى الجماعة حول البحيرة . فرأى ماتى وحولها عدد من الشبان المعجبين بها وهى فى مثل نضرة التوت تحت قبعتها تعدلهم القهوة تحت نار هيئت فورا كما يفعل الفجر وقد تذكر الخجل الذى اعتراه حين اقترب منها فى ثياب العمل الرثة وكيف ان وجهها أضاء حين رأته وكيف انها اقتحمت الحشد من حولها لتأتى اليه وفى يدها قدح من القهوة وقد جلس ابن ضع دقائق على هذا الجذع الملقى الى جانب البحيرة وكانت قد سقطت حلية صدرها الذهبية وأخذ الشبان يبحثون عنها ولكن ايتان هو الذى رآها بين الحشائش .. كان هذا كل شىء .. ولكن جميع اتصالاتهما تتألف من مثل هذه اللحظات المبهمة التى تباغتهما فيها السعادة كأنها فراشة عرضت لهما فى غابات الشتاء

قال : « لقد كانت حليتك هنا » ووضع قدمه على باقة من أعشاب الاعناب البرية .

فأجابت : « لم أر أحدا له مثل هاتين العينين الحادتين » ..

وجلست على جذع الشجرة فى الشمس وجلس الى جانبها وقال : « لقد كنت جميلة فى تلك القبعة الوردية كأنك صورة من رسم فنان ..

فضحكت سرورا وقالت : « أظن القبعة هى الجميلة » .

ولم يكونا قد اعربا عن ميولهما من قبل بطريقة ظاهرة وخيل الى ايتان فى لحظة انه رجل طليق يغازل الفتاة التى يريد أن يتزوجها فنظر الى شعرها وودلو يستطيع لمسه مرة ثانية ويستطيع ليقول لها أن رائحته كرائحة الغابات ولكنه لم يكن قد اعتاد قول هذه الاشياء مطلقا .

وهبت واقفة فجأة وقالت : « يجب الا نبقى هنا أكثر من هذا .. ! »

واستمر يطيل النظر اليها وهو لم يستيقظ بعد من أحلامه ثم أجاب : « لا تزال امامنا فسحة من الوقت .. »

ووقفا ينظر كل منهما الى الآخر كأن عينى كل منهما تحاولان جاهدتين أن تتشبع بصورة الآخر وتحتفظ بها .. وكانت

هناك أمور يرى أن يقولها قبل افتراقهما ولكنه لايستطيع قولها فى هذا المكان وبه ذكريات الصيف فاستدار وتبعها فى صمت الى الزاحفة ، وتحركا ، بينما كانت الشمس تغيب خلف التلال وتتحول الوان كرات الصنوبر من الاحمر الى الرمادى ..

وعاد الى طريق ستاركفيلد بعد أن اخترقا ممرا ملتويا وكان الضوء لايزال ماثلا فى السماء ولا يزال ينعكس لون أحمر جاف على التلال الشرقية وكانت جذوع الاشجار المتجمعة بين الثلج تبدو كطيور وضعت رءوسها تحت أجنحتها ثم بهت لون السماء فكأنها ارتفعت أكثر مما هى تريد الابتعاد عن الارض

فلما بلغا طريق ستاركفيلد قال ايتان « ماذا تزمعين أن تفعلى يامات ؟ »

فسكتت قليلا ثم قالت أخيرا : « سأحاول أن أجد عملا فى أحد الحوانيت الكبيرة »

فقال : « انك لتعلمين انك لاتستطيعين مزاولة مثل هذا العمل فالوقت الطويل وقلة الهواء الطلق كادا يقتلانك من قبل »

قالت : « لقد صرت أكبر قوة بكثير منى قبل المجىء الى ستاركفيلد »

فقال : « والآن ستضحين بكل ماستفدته فى هذه الفترة ! »

ويظهر أنها لم تجد جوابا لهذا القول وسارا فترة دون أن يتكلما وكان ايتان فى كل ياردة من الطريق يجد بقعة ضحكا عندها أو صمتا فتعود به الذكرى الى الماضى .

وسألها : « ألا يوجد أحد من أقارب أبيك يساعدك »

قالت : « لا يوجد بينهم من أحب أن أسأله المساعدة »

وكان صوته منخفضا حين قال : « أنك تعلمين انى أقدر على أى شىء من أجلك ! »

فأجابت : « انى لأعلم ذلك »

وقال : « ولكننى لا أستطيع »

وسكتت ولكنه شعر برعشة خفيفة فى الكتف الملاصقة له ، فباح قائلا : « لو انى أستطيع أن أذهب معك الآن لفعلت .. »

فنظرت اليه وأخرجت ورقة من صدرها وتمتمت قائلة : « لقد وجدت هذه الورقة يا ايتان ورأى بالرغم من الضوء الخفيف انها رسالته الى زوجته التى بدأها فى الليلة السابقة ونسى أن يمزقها وخالط دهشته شعور قوى بالسرور وصاح : « لو انى أستطيع أن أفعل يامات ! هل تقبلين ؟ »

فقالت « ماالفائدة يا ايتان ؟ » ثم مزقت الرسالة فجأة قطعا

صغيرة وأطلقتها فى الهواء حيث طارت وهبطت على الثلج .

فكرر سؤاله صائحا « أخبريني يامات! أخبريني انى أرجوك ، فصمتت فترة من الزمن ثم قالت فى صوت منخفض حتى اضطر الى احناء رأسه ليسمعها: «كنت أفكر فى هذا أحيانا فى ليالى الصيف فقد كنت لا أستطيع النوم عندئذ حين يسطع ضوء القمر »

وثمل قلبه بخمر هذا الاقرار وتمتم قائلا : « أكان الامر هكذا من زمن بعيد ؟»

فأجابته وكأن التاريخ ثابت لديها « كانت المرة الاولى عند بحيرة الظلال »

فقال : « هل كان ذلك هو السبب فى أنك قدمت الى القهوة قبل الآخرين ؟»

فأجابت : « لا أعلم انى فعلت ولقد تضايقت كثيرا عندما أبيت الذهاب معى الى الرحلة، ثم حين رأيتك نازلا من الطريق فكرت فى انك ربما أردت الذهاب الى الدار عن هذا الطريق عمدا فابتهجت لذلك »

وصمتا مرة ثانية . ووصلا الى مكان ينحدر فيه الطريق سريعا الى حفرة عميقة وهو قريب من طاحونة ايتان وبنزولهما نزل الظلام كأنه ستار أسود اسدل من غصون اشجار الهملوك .

فبدأ يقول : « انى موثق اليدين والقدمين يا مات فلا أستطيع أن أفعل شيئا ! »

فأجابته : « يجب أن تكتب الى أحيانا يا ايتان »

فقال : وما الفائدة من الكتابة؟ » انى أريد أن أمد يدى فألمسك، انى أريد أن أعمل من أجلك وأعنى بك ؛ انى أريد أن أكون حين تمرضين وحين تشعرين بوطأة الوحدة »

فقالت : « يجب ان تفكر انى لابد واجدة سبيلا للنجاح ! »

فقال : « تقصدين انك لاتحتاجين الى؟» أظن أنك ستتزوجين!؟

فصاحت « ايتان ! »

قال : « لست أدرى الشعور الذى ينتابنى اذا مافكرت فى هذا الامر يامات ! انى لأفضل موتك على ذاك ! »

فبكت صائحة : « ياليت ذلك! ياليت ذلك ! »

وأزاح صوت بكائها من نفسه ذلك الغضب المظلم وحل محله شعور بالخجل

وهمس قائلا : « دعينا من الحديث على هذا النحو »

فقالت : « لماذا نترك الحديث فى الموت جانبا وهو أمنيتى فى

كل لحظة من لحظات النهار ! »

فقال لها : « اسكتى ياماتى !لا تقولى هذا القول »

فقالت : « انى لم أجد حنانا قط من أحد الا أنت ! »

فقال : « لا تقولى هذا القول أيضا وأنا لا أستطيع أن أرفع يدا من أجلك . »

فقالت « نعم ومع ذلك فانى أقول الصدق ! »

وكانا قد وصلا الى أعلى تل المدرسة وبدت ستار كفيلد تحتهما فى ضوء الشفق ومرت بهما مركبة زاحفة وهى صاعدة من القرية وللأجراس التى علقت بها رنين بهيج فاعتدلا فى جلستهما ونظرا الى الامام وقد جمد وجهاهما وكانت الاضواء فى الشارع الرئيسى قد بدأت تلمع من واجهات المنازل وأخذ أناس منتشرون هنا وهنالك يقبلون الى الابواب الخارجية لدورهم ومس ايتان ظهر الجواد بسوطه فركض فى تراخ

ولما اقتربا من أطراف القرية وصل اليهما صياح أطفال ورأيا عصبة من الغلمان واقفين فى الفضاء أمام الكنيسة ووراءهم الزلاقات

فقال ايتان وهو ينظر الى السماء الهادئة أظنها آخر مرة يمارسون فيها رياضة الانزلاق قبل يوم أو يومين

وسكتت ماتى فأضاف « كنا نريد الانزلاق فى الليلة الماضية! »

ولم تتكلم مع ذلك وشعر برغبة غامضة فى أن يسرى عن نفسه ويسرى عنها فى هذه الساعة الاخية التعسة ، فقال : « أليس من العجب أننا لم نذهب للانزلاق معا غير مرة واحدة فى الشتاء الماضى »

فأجابت « انى لا أنزل للقرية الا نادرا ! »

فقال « هذا صحيح »

وكانا قد وصلا قمة طريق كوربرى، وبين المعالم غير الواضحة للكنيسة فى بياضها اللامع والستار الاسود لاشجار فانورم، كان المنحدر يمتد تحتهما دون أن تكون عليه زلاقة واحدة .

فاذا بدافع فجائى يحمل ايتان على أن يقول « هل تحبين أن نمارس الانزلاق الآن »

فاغتصبت ضحكة وقالت :« كيف ! لم يبق لدينا وقت لذلك ! »

قال : « ان أمامنا من الوقت متسعا لما نريد ! هيا بنا» وكانت أمنيته الوحيدة الآن أن يؤجل لحظة الاتجاه بالجواد الى المنبسطات

فقالت فى تلعثم: «ولكن الفتاة !! الفتاة ستكون منتظرة فى المحطة »

قال « فلتنتظر ! انك كنت تنتظرين اذا تأخرت هى ! هيا بنا ! »

وكانت فى صوته نبرة الآمر فتغلب على اعتراضها ولما قفزمن الزاحفة سمحت له بأن يساعدهاقائلة فيما يشبه بقية من تردد « ولكنى لا أرى زلاقةواحدة على مقربة من هنا » .

فقال : « هنالك تجدينها!تحتظلال الشجر »

ورمى بجلد الدب على ظهرالجواد الذى وقف هادئا الى جانب الطريق وقد أحنى راسهفيما يشبه التفكير ثم أمسك بيد ماتى وجذبها وراءه نحوالزلاقة

فاتخذت مقعدها كرغبته وجلس هو خلفها ملاصقا لها حتى مس شعرها وجهه وناداها قائلا : « هل أنت فى راحة يامات » وكأنعرض الطريق كان يفصل بينهما

فأدارت رأسها لتقول : « ان الظلام شديد ! فهل أنت واثق من الرؤية ؟ »

فضحك فى احتقار قائلا : «انى لاأستطيع النزول فىهذا المنحدر وأنا مغمض العينين ! »وضحكتوقد سرتها جرأته . على أنه ظل لحظة يصوب نظره الى أسفل التل الطويل اذ كانت هذهالساعة أشد الاوقات المحيرة فى المساءفهى الساعة التى يختلط فيها آخر مابقى من ضوء السماءالعليا مع الليل المسرع فتختفى معالم الارض ويخدع الناسفىالمسافات

وصاح « الآن » !

وقفزت الزلاقة وطارا فى الظلام وهى تزيد سرعة فى انحدارها بينما الليل البهيم فاغر فاهتحتهما والهواء يصفر لمرورهما كأنه صفير أرغن . وجلستماتى ساكنة ولكن عندما بلغا المنحنى فى أسفل التل حيثتمدشجرة البلوط الكبيرة ذراعا مميتا خيل اليه أنه أصابها شىءمن الخوف فازدادت التصاقا به

فصاح فى حماسة قائلا : « لاتخافى يامات » وقد مرا بها فى سلام وطارا مندفعين فى المنحدرالثاني وحين وصلا الى الارض المستوية بعد ذلك وبدأت تخفسرعة الزلاقة سمعها تضحك ضحكة ارتياح صغيرة

ونزلا من الزلاقة وأخذا يصعدان التل قافلين سيرا علىالاقدام وكان ايتان يجر الزلاقة بيدويمسك باليد الاخرى ذراع مات .

وسألها فى ضحك أشبـــه بضحك الصبية « هل خفت أن أصطدم بك فى شجرة البلوط »

فأجابت « قلت لك انى لاأخاف من شىء وأنا معك !»

وكأن الحماسة الغريبة التى استولت عليه قد أصابته باحدى النوبات النادرة التى ينتابه فيهاحب الزهو فقال لها « ومع ذلك فان هذا المكان خداع ولو أننـــا أتينا أقل حركة لما عدنا مرة ثانية ولكنى أستطيع قياس المسافات فلا أخطىء قيد شعرة ـ وكنت دائما كذلك »

وتمتمت قائلة : « انى أقول دائما أن عينك من أحد العيون !»

وخيم الســـكون العميق مع الليل الخالى من النجوم واستند كل منهما الى الآخر دون أن يتكلم ولكن فى كل لحظة من صعودهما كان ايتان يقول لنفسه « انهـــا آخر مرة نكون فيها معا »

وصعدا فى بطء الى قمة التل، ولما وصلا أمام الكنيســـة أحنى رأسه ليسألها « هل أنت متعبة » فأجابت وهى تتنفس فى سرعة: « كان هذا عظيما »

وقادها بضغط ذراعه الى الاشجار النرويجية وقال: «أظن هذه الزلاقة هى لند هايل وعلى كل حال سأتركها حيث هى» وذهب الى الباب الخارجى لدار فارنوم وانحنى واسندها الى الســـور وعندما انتصبت قامتـــه . شعر بماتى قريبة منه فى الظلال .

وهمست وهى لاتكاد تسيطر على أنفاسها « هل هذا المكان الذى قبل فيه ند خطيبته روث؟» ورمت ذراعيها حـــوله وكانت شفتاها فى بحثها عن شفتيـــه تمران على وجهه وقد ضمها اليه فى قوة وهو فى نشوة الدهشة .

وتمتمت تقول : « وداعا ! وداعا » وقبلته مرة ثانية »

وصاح مكررا صيحته القديمة « لا أســـتطيع يامات أن أدعك تذهبين ! »

وتخلصت من ذراعيه وسمعها تبكى وتقول « لا أســـتطيع أنا فراقك ؟ »

فسألها « ماذا نفعل يامات ؟ ماذا نفعل يامات ؟ »

وأمسك كل منهما بيد الآخر كطفلين وكان جسداهما يهتزان بعبرات اليأس وســـمعا ساعة الكنيسة تقطع الســـكون وتدق خمس دقات

فصاحت « ايتان ! ايتان لقد حان الوقت ! »

وجذبها اليه وهو يقول « أى وقت حان ؟ هل تظنين انى أتركك الآن ؟ »

فقالت « اذا لم أدرك القطار فأين أذهب ؟ »

فقال « واذا أدركتـــه فأين تذهبين ؟ »

فسكتت وقد بردت يدها وتراخت فى يده

قال « ما الفائدة فى أن يذهب أحدنا الى أية جهة دون الآخر؟»

وظلت بلاحراك كأنها لم تسمعه ثم سحبت يدها من يده ولفت ذراعيها حول رقبته وأسندت خدها لله الدمع الى وجهـــه وقالت :

« ايتان.. ايتان ! أريد أن تنزل بى مرة ثانية . »

قال : « أنزل بك أين ؟ »

قالت: « الى المنحدر حيث لا نصعده قط مرة ثانية »

فسألها : « مات ؟ ماغرضك وماذا تعنين ؟ »

والصقت شفتيها بأذنه وقالت : «لنتسلق شجرة البلوط الكبيرة! لقد قلت انك تقدر على ذلك فلا نفترق بعدها مطلقا »

قال : « بماذا تتحدثين ؟» هل أنت مخبولة ؟

فقالت : « لست مخبولة ولكنى أجن اذا تركتك !»

فنادى اسمها فى أنين :« مات! مات ! »

فزادت قوة تعلقها برقبتـــه والتصق وجهه بوجهها .

وقالت : « لا أعلم يا ايتان أين أذهب اذا تركتك ؟ ولا أعرف كيف أسير وحيدة لقد قلت أنت ذلك الآن ! ولم أجد فى حياتى عطفا الا منك .. وستأتى تلك الفتاة الغريبة الى الدار .. وتنام فى سريرى حيث كنت أرقد فى الليالى وأنصت لأسمعك تصعد فى السلم .. »

كانت هذه الكلمات كأنهـــا فلذات اقتطعت من قلبه وجـــاء معها شبح الدار الكريهـــة التى سيعود اليها ، والسلم الذى يجب أن يصعد فيه كل ليلة ، والمرأة التى تنتظره هناك وكان ماينطوى عليه اعتراف ماتى من حـلاوة ، ودهشته الجامحة حين عرف أخيرا أن ماحدث له قد حدث لها أيضا مما زاد كراهيتـــه للاخـرى ، واستقرت عنده الرغبة فى عدم العودة للحياة معها .

وكانت توسلات ماتى تصل اليه فى بكاء متقطع ولم يعد يسـمع ماتقوله وقد انحرفت القبعة عن رأسها فأخذ ينظم شعرها بيده ، وأحب أن تشعر يده بملمس هذا الشـعر ، وأن تظل راقدة فى ثنايـاه ، كمـا ترقد البـــذرة تحت الاديم فى الشتاء . ووجد فمها مرة أخرى وخيل اليهمـــا أنهما الى جانب البحيرة معا فى

شمس أغسطس المحرقة . ولكن خده مس خدها فاذا هو بارد مبلل بالدموع ورأى الطريق أمامه الى المنبسطات وسمع صفير القطار على السكة الحديدية .

وكانت الاشجار المحيطة تكسوهما بحلة من السواد والسكون ، وكأنهما فى تعشيهما راقدان تحت الثرى ، وقال لنفسه « ربما أشعر هكذا ! ثم بعد ذلك لا أشعر بشىء ! »

وسمع فجأة صهيل الجواد الأسمر وفكر فى أن الجواد يستغرب لماذا لم يقدم له عشاؤه !

وهمست ماتى وهى تشد يده « هيا بنا »

وقد تراجع لعنفها الحزين وكأنها يد القدر . فجذب الزلاقة وأهدابه ترتعش كأنه طائر ليلى وهو يمر من ظلال الاشجار الى ظلام الفضاء النقى . وكان المنحدر من تحتهم مهجورا وقد جلس أهل ستاركفيلد الى عشائهم . ولم يمر انسان بذاك الفضاء الواقع أمام الكنيسة . وقد تلبدت السماء بغيوم تنذر بتساقط ثلج غزير وكانت السحب منخفضة كما تكون قبل عواصف الصيف

وأجال عينيه فى الظلام وكأنهما أقل نفاذا وأقل مقدرة على الرؤية من عادتهما

وجلس فى الزلاقة وجلست ماتى فى الحال أمامه وقد سقطت قبعتها على الثلج وكان فمه فى شعرها ومد رجليه وثبت قدميه فى الطريق ليحول دون اندفاع الزلاقة بين يديه ثم قام فجأة من مقعده وأمرها قائلا : « قومى »

قالها فى النغمة التى تعودت أن تحفل بها دائما ولكنها تسمرت فى مكانها وأجابت فى شدة « لا ! لا ! لا ! »

ـ « قومى ! »

ـ « لماذا ؟ »

ـ « أريد أن أجلس فى المقدمة ! »

ـ « لا! لا! كيف تستطيع تسيير الزلاقة من المقدمة ؟ »

ـ « لسنا فى حاجة الى ذلك فسنتبع أثر الطريق » .

وكانا يتكلمان فى همس خافت كأن الليل يسترق السمع .

ولمح قائلا « قومى ! قومى » ولكنها ظلت تتساءل: « لماذا تريد الجلوس فى المقدمة ؟ »

تمتم قائلا « لأنى أريد أن أشعر بك ممسكة بى » وجرها من مكانها لتقوم

ويظهر أنها رضيت بهذه الاجابة ! وانها خضعت لما فى صوته من قوة وانحنى يبحث فى الظلام عن الطريق الذى شقه المنزلقون وتركوا أثره على الثلج وثبت قوائم الزلاقة عليه فى عناية وانتظرت الى أن جلس فى المقدمة وانزوت هى خلفه ولفت ذراعيها حوله وشعر بأنفاسها فى رقبته فارتعد ثانية وكاد يقوم من مقعده ولكنه فى مثل البرق تذكر ماينتظره : انها على حق فهذا خير من الفراق واستدار وجذب فمها الى فمه ..

وحين ابتدأ السير سمع صهيل الجواد مرة ثانية وتذكر النداء المعروف والصور المبهمة التى أثارها وقد انحدرت كل هذه الذكريات معه فى المرحلة الاولى من الانحدار وكان فى وسط الطريق منحدر شديد الانحدار ثم ارتفاع ثم انحدار طويل سريع كالاحلام وشعر حين بدأ هذا الانحدار كأنه يطير حقا ، يطير فى ليل تكتنفه السحب وتقع ستار كفيلد تحتهما على مسافة لاتقاس وانه ليبتعد كأنه ذرة فى الفضاء .. ثم ظهرت الشجرة الغليظة فجأة فوجد رءوسهما تتربص لهما فى منحنى الطريق وقال وهو يصر على أسنانه : اننا نستطيع أن نقصدها ! انى أعرف اننا نستطيع أن نقصدها .. »

وفى طيرانهما نحو الشجرة اشتدت ماتى فى قبضة ذراعيها حوله وكأن دما هاسرت فى عروقه واهتزت الزلاقة مرة أو مرتين تحته ومال بحدة كى يدفعها نحو الشجرة ، وهو يكرر مرة بعد مرة « أعرف اننا نستطيع أن نقصدها » واخترقت ذهنه بعض العبارات التى نطقت بها وظلت تتراقص أمامه فى الهواء وأخذت الشجرة تتبين لهما ويزداد حجمها أمام عينيهما وهما يقتربان منها ودار فى خلده أنها فى انتظارهما وكأنها تعرف أمرهما ولكن تمثل لعينيه فجأة وجه زوجته بغضونه الفظيعة وقد ارتسم بينه وبين غايته . فأتى بحركة غريزية ليبعد هذا المنظر عنه وتأثرت الزلاقة بهذه الحركة فتحولت ، ولكنه عدل من سيرها وسار بها الى تلك الكتلة الضخمة السوداء البارزة ، وفى اللحظة الاخيرة كان الهواء يمر بهما كأنه ملايين من الاسلاك المحماة ثم كانت الشجرة ..

كانت السماء لاتزال مثقلة بالغيوم ولكنه فى نظرته المصوبة نحوها رأى نجما واحدا وظل يفكر فى ابهام هل هو النجم

« سيروس » أو هو ماذا ؟ ولكن جهد هذا التفكير أتعبه فأغمض عينيه وفكر فى أن ينام ٠٠ وكان السكون شاملا بحيث سمع صوت حيوان صغير راقد تحت الثلوج وكان صوتا خافتا كأنه صوت فأر صغير، وفكر وهو متعب هل أصابه ضرر ثم فهم انه لابد أن يكون فى ألم ، ألم شديد حتى لكأنه انتقل اليه بطريقة غريبة وسرى فى جسده ٠ وحاول عبثا أن يزحف نحو هذا الصوت الصغير ومد ذراعه اليسرى فوق الثلج فاذا به يشعر بهذا النقيق الصغير أكثر مما يسمعه ٠ وكان الصوت تحت راحة يده التى وقعت على شىء ناعم طرى ٠ وكانت فكرة تألم الحيوان تزعجه ، وحاول أن يقوم من رقدته ولكنه لم يستطع وكان صخرا أو كتلة ضخمة ترقد فوقه ٠ ولكنه ظل يتحسس بأصابعه فى حذر لعله يستطيع أن يجد هذا المخلوق الصغير ويعاونه ، ثم عرف فجأة أن هذا الشىء الناعم الذى لمسه هو شعر ماتى وأن يده على وجهها ٠

فزحف الى أن جلس على ركبتيه، وكان الثقل فوقه يتحرك بحركته ويده تمر على وجهها وشعر أن هذا الصوت الضعيف يخرج من بين شفتيها

واقترب وجهه منها وأذنه الى فمها ورأى عينيها تفتحان فى الظلام وسمعها تهتف باسمه ٠

وتمتم متألما « لقد ظننت اننا بلغنا ما أردناه يامات » ثم سمع صهيل الجواد من بعد ودار فى فكره أنه كان يجب عليه الآن أن يطعمه ٠ ٠ ٠

أما المرأة الاخرى فأكثر شحوبا ونحولا وكانت جالسة فى غير نظام على مقعد كبير الى جانب الموقد وعندما دخلت ادارت رأسها نحوى فى حركة سريعة دون أن تقابلها حركة من جسدها ، وكان شعرها قد شاب كشعر زميلتها ووجهها تقلص وذهب لونه كزميلتها ولكنه كان فى لون الكهرمان وفيه أغوار جعلت الانف اكثر بروزا وزادت فى عمق الخدين وكان جسدها تحت ثوبها الذى لا شكل له ثابتا لا يتحرك وعيناها السوداوان فيهما تلك النظرة الثابتة التى هى أشبه بنظرات السحرات ، وهى اعراض الاصابة فى السلسلة الفقرية .

وكان المطبخ حتى فى ذلك الجانب من البلاد بادى الفاقة ، فالاساس من أخشن الانواع ، فيما عدا المقعد الذى تجلس عليه المرأة ذات العينين السوداوين ، وهو بقية من أثاث غرف الترف وابتيع من أحد المزادات . وكانت هنالك ثلاثه أطباق من الصينى الخشن ، وابريق للبن كسر فمه ، موضوع على مائدة عليها آثار السكين . ويوجد به كرسيان قاعدتهما من قش ، ومنضدة طويلة للمطبخ من الخشب غير المدهون أسندت الى الحائط المطلى بالجير .

قال فروم بلهجة تدل على الاعتذار ، وهو يتبعنى فى دخولى الى المطبخ : « رباه ! ما أشد البرد هنا ! لا بد أن النار قد انطفأت »

ولم تهتم المرأة الطويلة التى قامت نحو المنضدة بقوله ، ولكن الاخرى أجابة شاكية فى صوت عال رفيع ، وهى جالسة فى مقعدها من حولها المساند : « ان النار لم تشعل الا فى هذه اللحظة ، فقد أخذ زينه النعاس ، وطال نومها ، وشعرت أن أعضائى تكاد تتجمد من البرد قبل أن أقدم على ايقاظها وأرجوها العناية بالنار . »

فعرفت أنها هى التى كانت تتكلم حين دخولنا .

أما زميلتها فقد عادت الى المائدة تحمل بقايا فطير بارد محشو باللحم فى صحن قديم معوج من صحون الفطير . ووضعت حملها الذى لا تستجيب له الشهية وكأنها لم تسمع اتهام الاخرى لها .

ووقف فروم مترددا أمامها وهى تتقدم ثم نظر الى وقال « هذه هى زوجتى السيدة فروم » . وبعد فترة تحول الى الجالسة فى المقعد الكبير وقال « وهذه هى الآنسه ماتى سلفر »

تصورت السيدة هايل فى رقة قلبها أنى هالكت فى طريق المنبسطات ودفنت تحت زوبعة من الثلوج ، وكان سرورها

كبيرا عندما رددت اليهـــا فى الصباح التالى وشـــعرت انى ارتفعت وزدت مقاما فى عينيهـــا لما تعرضت له من أخطار

وكانت دهشـــتها ودهشـــة السيدة فارنوم العجـوز شديدة حين علمت أن جواد ايتان فروم القديم حملنى الى وصلة كوربرى وعاد بى منها فى أسوأ عاصفة ثلجية فى ذاك الشـــتاء وكانت دهشتهما أكبر عندما علمـا أن صاحبه آوانى ليلة فى داره ٠

وشـــعرت أن فى طيـــات دهشتهما تطلعا خفيا لمعرفة آرائى فيما شـــاهدته فى الليلة التى قضيتها فى دار فروم وخيل الى أن خير طريقـــة للتغلب عـلى تحفظهما لى أن ادعهما تحاولان التغلب على تحفظى ،ولذلك اقتصرت على القول فى نغمة واقعية انى قوبلت مقابلة كريمة وقد دبر فروم لى فراشا فى غرفة أرضية كانت على الغالب فى أيام سعيدة أخرى غرفة للكتابة أو للدرس

قالت مسز هايل فى تفكير «أظن أنه فى مثل هذه العاصفـة لا يستطيع الا أن يؤويك فى داره ولكنى أظن مع ذلك أنه كان عزيزا على مستر فروم أن يفعل هـذا وانى لأعتقد انك الاجنبى الوحيد الذى وطأ أرض داره منذ أكثر من عشرين سـنة ، فهو معتز بنفسه ، ولذلك لايحب أن يذهب أقدم الاصدقاء الى تلك الدار ولا أعرف أن أحدا منهم يذهب اليها غيرى وغير الطبيب ٠٠»

فجرؤت على السؤال « هل تذهبين حتى الآن يامسز هايل ؟»

قالت « كنت أذهب كثيرا بعد الحادث على أثر زواجى ولكن خيل الى أنهم يشعرون بالحرج لرؤيتنا ثم توالت ظروف الايام وشغلتنى الشواغل ٠٠ ولكنى أزورهم عادة قبيل رأس السنة الجديدة ومرة أخرى فى الصـــيف ، غير انى أحاول أن أختار يوما يكون فيه ايتان بعيدا عن الدار فان منظر المرأتين فى جلوسهما فى الدار لما تنقبض له النفس ٠ وأكاد أصعق حين أرى وجهه وهو ينظر فى أركان داره العارية ٠٠ فلقـــد عرفت هـــذه الدار وأذكرها أيام أمه قبل أن تحل بهما الارزاء »

وكانت السيدة فارنوم قد أوت الى فراشها ولبثت وابنتهـــا جالسين بعد العشاء على انفراد فى غرفة الضيوف ، ونظرت الى السيدة هايل فى تطلع لتعرف الى أى مدى يمكن أن أفضى لها بشىء وعرفت انها اذا كانت قد اعتصمت بالسكوت الى الآن فذلك لانها كانت تنتظر على مر السنين شخصا يكون قد رأى مارأته ٠

وانتظرت حتى تزداد ثقتها بى رسوخا قبل أن أقول « حقا ان منظر الثلاثة معا أليم الوقع على النفوس ! »

وتقطب حاجباها الرقيقان دليلا على الالم وقالت « ان الامر كان فظيعا منذ البداية فلقد كنت هناك عندما حملا ووضعت ماتي سيلفر فى الحجرة التى أقمت فيها، وقد كنت أنا وهى صديقتين وكان من المنظور أن تكون احدى رفيقاتى من الفتيات فى حفلة زفافى فى الربيع ·· ولما تحسنت حالتها ذهبت اليها وبقيت معها طول الليل وكانوا ينجدونها بالادوية لتهدئتها · ولم تكن تدرى من أمرها الا قليلا الى قبيل الصبح ، ثم رأيتها فجأة تسترد جميع حواسها وتنظر بعينيها الواسعتين وتقول · · « لا أدرى لماذا أروى لك هذا الحديث كله؟ » وانقطعت مسز هايل عن الكلام وهى تبكى · ثم رفعت المنظار عن عينها ومسحته من الدموع ووضعته فى مكانه بيد ترتعش تأثرا، وأتمت حديثها قائلة « أشيع فى اليوم التالى أن زينه فروم أرسلت ماتى على عجل لأنها أتت بفتاة أجيرة ولكن لم يستطع أحد أن يفسر السبب فى أنها كانت تمارس الانزلاق على الثلج مع ايتان فروم مع انه كان من الواجب أن يكونا فى طريقهما الى المنبسطات للحاق بالقطار ·· ولم أعرف أنا مطلقا رأى زينه فى هذا ، حتى اليوم ولا أحد يعرف آراءها · · على كل حال حين سمعت هى بالحادث جاءت الى دار قس القرية ·· وقد حمل ايتان اليها ، وحين قال الطبيب ان ماتى يمكن نقلها أرسلت زينة فى طلبها · فنقلت الى المزرعة »

سألت : « وظلت هنالك طول الوقت » ؟

فأجابت مسز هايل فى بساطة « لم يكن هنالك مكان آخر تذهب اليه » وانقبض صدرى حين فكرت فيما يضطر اليه الفقراء اضطرارا !

واستمرت مسز هايل تقول « نعم ! لقد ظلت هنالك تقوم زينه بخدمتها وخدمة ايتان بقدر ماتستطيع ، وانه لمعجزة ماتقوم به اذا نظرنا الى شدة مرضها وكأن المرض قد زال عنها عندما جاءها هذا الواجب · وليس ذلك لعدم حاجتها الى الطبيب فما تزال تنتابها نوبات المرض ولكنها وهبت القوة على العناية بالاثنين طوال عشرين سنة وكانت تظن قبل الحادث أنها لا تستطيع العناية بنفسها »!

وتوقفت مسز هايل لحظة عن الحديث ورحت أفكر فيما أوحت الى به كلماتها ثم تمتمت «ما أفظع حظهم جميعا ! »

وقالت « نعم ! انه لأمر سيء، ولا سيما انهم جميعا ليسوا على شيء من سهولة الطباع فقد كانت ماتى سيلفر لينة الطبع قبل

الحادث ولم أعرف فتاة أرق منها ولكنها تعذبت كثيرا - وهذا ماأقوله للناس عندما يتحدثون الى عن شدة تبرمها ، أما زينه فكانت دائمة ضجرة وعنيفة ولا أعنى أنها شديدة القسوة على ماتى فهى تتحملها بما يثير الاعجاب ، على أن الاثنتين كثيرا ماتتخاصمان فيكون وجه ايتان عندئذ فى حالة يرثى لها الناظر .. وعندما أراه فى هذا الموقف أشعر أنه أكثر الثلاثة ألما .. على كل حال ليست زينه أشدهم تألما اذ ليس لديها الوقت لذلك .. وأنهت مسز هايل حديثها قائلة : «مما يؤسف له مع ذلك أن الثلاثة لايجدون مكانا غير المطهى الذى يقيمون فيه وفى شهور الصيف فى الايام الصاحية منه يأخذون ماتى الى غرفة الضيوف أو الى فناء الدار فتكون الحياة أسهل لديهم ، أما فى الشتاء فلابد من مجاورة النار وليس لدى آل فروم من المال مايمكنهم من أن ينعموا بأكثر من موقد واحد »

وتنهدت مسز هايل تنهدا عميقا كأنها استراحت الآن من عبء ماحملته من ذكريات ولم يبق لديها ماتقوله ثم أخذتها فجأة نوبة من الاعتراف الكامل

فخلعت منظارها مرة ثانية وانحنت نحوى على المائدة المغطاة بغطاء من خرز منضد ، وقالت فى صوت خفيض « ذات يوم بعد الحادث بأسبوع اعتقد الناس أن ماتى سيلفر لايمكن أن تعيش فقلت على كل حال ان حياتها مما لا يغتبط له .. وقلت ذلك لقس القرية ، فتضايق من قولى ولكنه لم يكن معى فى ذلك الصباح الذى عادت فيه الى نفسها .. وانى لأعتقد انها لو ماتت لكان ايتان اقرب للحياة منه الآن ، ففى أسلوب حياتهم الحاضر لا أرى فرقا بين آل فروم الساكنين فى أعلى المنحدر فى المزرعة ، وآل فروم الساكنين أسفل المنحدر فى القبور ، الا أن هؤلاء الاخيرين هادئون »!!

***

انتهت

غرام عانس

بقلم

إديث هوارتون

ترجمة

سامي فاشد عبد السيّد

غرام عانس

الجزء الاول

- ١ -

فى نيويورك القديمة ، حوالى منتصف القرن الماضى ، كانت أسر قليلة تسيطر على المجتمع فى بساطة ورخاء وكانت أسرة رولستون احدى هذه الاسر

فالانجليز الصلاب العود ، وأهل هولندا الحمر الوجوه الثقال الاجسام ، امتزجوا وأوجدوا مجتمعا ثريا وحذرا وسخى اليد معا . وكانت أبهة المظهر والتأنق فى كل شىء مبدأ أساسيا يسير على هديه أفراد هذا المجتمع الحذر المؤلف من أصحاب المصارف الاثرياء ومن تجار جمعوا ثرواتهم من الهند ، وأصحاب مصانع السفن ، ومتعهدى تزويد السفن بأدوات الملاحة .. فأولئك القوم الشباع الثقال الذين يبدون فى عيون سكان أوربا عصبيين مصابين بسوء الهضم ، لا لشىء الا لان تقلبات الطقس جردت جسومهم من اللحم الزائد ، وشدت أعصابهم أكثر من المعتاد قليلا ، عاشوا حياة على وتيرة واحدة ، كتلك التى يحياها أهل الطبقة العليا ، وما تأثر مظهرها الخارجى قط بما كان يعتمل فى داخلها من حين لآخر من المآسى الخرساء .. لقد كانت النفوس الحساسة فى تلك الايام ، مثل مفاتيح البيانو الذى خفت نغمات الصوت فيه ، يلعب القدر عليها دون ما صوت

فى هذا المجتمع المحكم البنيان شغلت أسرة رولستون وفروعها جزءا من أكبر أجزائه .. وقد انحدرت تلك الاسرة من سلالة انجليزية من الطبقة الوسطى لم ترحل الى المستعمرات كى تموت فى سبيل عقيدة بل لتعمل وتنشىء حسابا بالمصارف أما النتيجة فكانت اكثر مما أملوا وقد أثر نجاحهم فى عقيدتهم الدينية ، فكنيسة انجلترا المصفاة من الشوائب التى اتخذت لنفسها اسما وسطا فى البلاد الجديدة وهو «الكنيسة الرسولية للولايات المتحدة الامريكية» قد تنازلت عن العبارات الخشنة فى قداس الزواج ، ومرت مر الكرام على الفقرات التأكيدية فى المذهب «الاتناسى» فظنت أنه مما يدعو الى الاحترام القول بأن «أبانا الذى فى السموات»

بدلا من « أبانا من فى ... »وكان هـذا الاتجـاه يلائم تماما روح الوفاق التى كانت جزءامن كيان أسرة رولستون ... لقد شمل السلالة كلها ذلك التردد الغريزى ازاء المذاهب الجـديدة وهو نفس مايشعرون به ازاء الغرباء من الناس وكانوا يؤمنون بالنظام القائم فهم يمثلون العنصر المحافظ الذى يربط المجتمعـات الجديدة بعضها ببعض كما تربط الحشائش البحرية ما بين البحر وشاطئه

واذا قارنا أسرة رولسـتون بغـيرها من الأسر المتمسـكة بالتقاليد مثل آل لوفيل أو هاسى او فاندرجريفز ، بدت هذه الاسر كلها عديمة الاهتمام بأمور المال ويكاد لا يوجد لها ضابط فى اندفاعاتها وترددها . ولقد أدرك هذا الفرق جون فردريك رولستون الشيخ وهو المؤسس القوى لهذه السلالة وأبرز هذا الفرق فى حديثه لابنه فردريك جون عندما أحس بأن به ميـلا طفيفا لصحبة الكسالى والمتواكلين

قال له « يجدر بك أن تترك أسر لاننج وداجونت وسـبندر لمراهنـــاتهم ومباذلهم فأن الدم الذى يجرى فى عروقهم هو دم عائلات الريف الغنية وما لنا شأن بهذا .. أنظر كيف بدأت ريحهم تذهب أقصد الرجال منهم .. دع أولادك يتزوجون من بناتهم اذا أردت (انهن ممتلئات صحة وأنيقات) وان كنت أفضل أن أرى أحفادى يتزوجون من أسرة لوفيل أو فاندرجريفز أو من أى أسرة أخرى على شاكلتنا ولكن اياك أن تسمح لأولادك بأن يذرعوا الارض مع أولادهم دون عمل نافع يقومون به ، ولا أن يذهبوا معهم الى سباق الخيل أو يتجهوا جنوبا الى أماكن الاستشفاء اللعينة أو يذهبـــوا للمقامرة فى نيو أورليان وغيرها من الاماكن .. بهذا تقيم صرح الاسرة وتبعد عنها المتاعب وهو عين ما فعلناه دائما .. »

استمع فردريك جون لكلام أبيه وأطاعه فتزوج فتاة من أسرة هاسى وســـار هادئا فى نفس الطريق الذى سار فيه أبوه .. لقد كان من الجيل الحريص الذى ينتمى الى خاصته أهل نيويورك أولئك الذين بجلوا هاملتون وخدموا جفرسون والذين تشوقوا الى بناء نيويورك على صورة واشنطن فجعلوا منها ساحة مخططة كساحات لعب الكرة لكيلا يقال عنهم انهم غير ديمقراطيين من قوم يشعرون هم نحوهم باحتقار خفى .. ولأنهم تجار بالسليقة فقد وضعوا فى نوافذ متاجرهم من البضـــائع ما كان الطلب عليه

شديدا . بينما احتفظوا بالانواع المفضلة لديهم فى داخل محالهم حيث ذوت وحال لونها تدريجيا لعدم استعمالها ..

لم يبق للجيل الرابع من أسرة رولستون شىء من قبيل المعتقدات غير شعور قوى بالشرف فى مجال الاعمال والامور الخاصة.. لقد استمدوا آراءهم عن المجتمع والدولة من الصحف اليومية التى كانوا يشعرون نحوها بالاحتقار ولم تقم أسرة رولستون بالكثير كى تؤثر فى مصير الامة الا ماكانوا يبذلونه من مال لمعاونة مذهبهم السياسى والدينى عندما لم يكن فى مثل هذا العمل ثمة خطر .. لقد كانوا على صلة نسب بكثير من عظماء الرجال الذين أقاموا صرح الجمهورية ، بيد أنه ما من فرد من أسرة رولستون حاول الوصول حتى الآن الى مستوى العظماء .. وعلى حد قول جون فردريك الشيخ أنه من الاصوب أن يقنع المرء بفائدة مقدارها ثلاثة فى المائة فقط ، اذ أنهم كانوا يعتبرون البطولة نوعا من المقامرة ... ومع ذلك فقد تهيأ لهم بسبب كثرتهم وتشابههم مكان مهم فى المجتمع .. ويقول الناس «هكذا فعل آل رولستون» عندما يريدون أن يستشهدوا بالسوابق ، وقد أقنعت هذه السلطة الجيل الثالث بأهميته فى مجموعه شيئا فشيئا ، بينما امتاز الجيل الرابع الذى كان مه زوج ديليا رولستون بسهولته وبساطته وهما طابع الطبقات الحاكمة .

وفى حدود ما امتازوا به من الوعى العام قام أفراد أسرة رولستون بما تعهدوا به من التزامات بوصفهم مواطنيين أغنياء محترمين . فكانت أسماؤهم تظهر فى قوائم المشروعات الخيرية ذات التاريخ القديم كما منحوا المؤسسات الناجحة هبات سخية وكان لديهم أحسن الطهاة فى نيويورك وعندما سافروا الى الخارج كانوا يطلبون من المثالين الامريكيين فى روما من أصحاب الشهرة الوطيدة أن يصنعوا لهم تماثيل وقد اعتبروا أول فرد منهم أحضر لنفسه تمثالا شخصا فظا غير متمدين ولكن عند ما ذاع ان التمثال قام بتمثيل عدة طلبات لافراد الهيئة الاجتماعية الانجليزية الراقية ساد الاسرة شعور بأن هذا العمل أيضا ماهو الا مسألة استثمار بفائدة ثلاثة فى المائة ...

زيجتان مع أسرة فاندرجريفز الهولندى قد أدتا الى دعم صفات

الحرص والاسلوب الانيق في الحياة التى امتازت بها أسرة رولستون ، واصبحت الشخصية التى تميزت بها هذه الاسرة وكونتها بكل دقة وعناية أصيلة فيهم الى حد أن ديليا رولستون كانت فى بعض الاحيان تسأل نفسها هل لو أطلقت العنان لوحيدها فى منطقة من مجاهل الارض غير المسكونة أفليس من المؤكد أنه ينشىء نيويورك صغيرة هناك وينصب نفسه عضوا فى كل مجالس الادارة بها

تزوجت ديليا لوفيل من جيمس رولستون فى سن العشرين . والزواج الذى حدث فى شهر سبتمبر من عام ١٨٤٠ احتفل به حسب العادة التى كانت سائدة حينئذ فى قاعة الاستقبال بالبيت الريفى للعروس فى المكان الذى يقع الآن عند نقطة تلاقى الشارع الاول والشارع الواحد والتسعين الذى يطل على الخليج الصغير . ومن هناك أخذها زوجها فى عربة صفراء اللون تملكها الجدة لوفيل مقعدها الامامى مكسو بقماش ذى حواش مدلاة، وجاس معها خلال الضواحى البعيدة والشوارع غير النظيفة التى تظللها أشجار الدردار ، وأخذها الى دار من الدور الحديثة فى جرامرسى بارك التى كانت الطلائع الاولى للشبان قد بدأت تقيمها . وهنالك وفى سن الخامسة والعشرين صارت أما لطفلين وماكة لدخل طيب يمنح لها للصرف على ملابسها وأغراضها الشخصية وبالاضافة الى ذلك كانت باجماع الآراء واحدة من أكثر نساء عصرها أناقة ومن أحبهن الى القلوب ...

كانت تفكر فى هدوء ورضى فى تلك الاشياء وهى تجلس ذات مساء فى مخدعها الأنيق فى جرامرسى بارك ...

كان قربها الشديد من أسرة رولستون يحول دون أن يكون لها رأى واضح عنهم شبيه بالرأى الذى يمكن أن يكون لابن من أبنائهم ... لقد عاشت فى رحابهم دون تفكير كما يعيش الانسان فى ظل قوانين بلاده .. ومع ذلك فان تلك الذبذبة الخافتة كأنها صادرة عن مفاتيح البيانو الخفيض الصوت ، وتلك الاسئلة الخفية التى تضطرب فى نفسها فى بعض الاحيان كما تضطرب الاجنحة . . كانت تقيم من حين لآخر حاجزا يفصلها عنهم بحيث تستطيع للحظة عابرة أن تتأملهم من خلال الوشائج الكثيرة التى تصلهم

بأشياء أخرى .. لقد كانت اللحظة على الدوام عابرة وسرعان ما ارتدت عنها حسيرة النفس لاهثة فتيمم وجهها شطر أولادها وشئون بيتها وملابسها الجديدة وذكرها الرقيق « جيم » ..

لقد فكرت فيه اليوم بابتسامة كلها عطف وهى تذكر قوله لها بألا تبخل بالمال فى شراء قبعتها الجديدة ، وهى وان كانت فى الخامسة والعشرين من عمرها وأصبحت أما مرتين فان وجهها لا يزال جميلا ناضرا على صورة تدعو الى الدهشة .. لقد كان امتلاء الجسم فى ذلك الوقت من علامات الجمال فى زوجة شابة ولقد غطت صدرها بقطعة من الحرير الرمادى اللون . وجعلت سلسلة ساعتها الذهبية الثقيلة تتدلى على صورة غير مأمونة فى الفراغ الواقع فى أعلى خصر دقيق مشدود الى حزام من المخمل ولكن الكتفين استدارتا فى فتنة تحت شالها الكشمير وكانت تتحرك فى خفة الفتاة ..

أخذت السيدة جيم رولستون تفحص راضية زينة القبعة التى لم تقتصد فى ثمنها اطاعة لأوامر زوجها . وكانت قبعة خفيفة مصنوعة من مخمل أبيض محوطة بأشرطة حريرية عريضة ومثبتة فيها ريشة بلوريه تخطف البصر ... قبعة زفاف جديدة لتلبسها فى زفاف ابنة عمها شارلوت لوفيل الذى كان من المقرر حدوثه فى ذلك الاسبوع فى كنيسة « القديس مرقس بيورى » ، وكانت شارلوت على وشك أن تتزوج زواجا شبيها تماما بزواجها اذ تزف الى أحد أفراد عائلة رولستون من فرع ويفرلى بليس وما من زواج يفوق هذا سلامة وصحة أو يفوقه من حيث أنه شائع الحدوث مألوف فى العائلتين .. لم تكن ديليا لتدرى السبب فى أن كلمة مألوف قد قفزت الى رأسها ، فقلما تزوجت احدى بنات أسرتها من أفراد أسرة رولستون فى العادة ، بيد أن هذا الزواج كان أنموذجا صالحا لما تتمناه لنفسها أى فتاة جميلة من وسط راق .

ثم ماذا يكون بعد ذلك ؟

وما الذى يعنيه هذا السؤال الجديد ؟ بعد ذلك هناك طبعا التسليم الخانق المحير للطلبات الملحة المفهومة من الشاب الذى تمنحه الفتاة خدا ورديا فى مقابل خاتم الزواج ، وهنالك السرير الكبير العريض والرعب المنبعث من رؤية الزوج يحلق ذقنه صباح اليوم التالي فى غرفة الملابس وهو فى جلباب النوم ، ثم هنالك التهرب والتلميح والابتسامات المغتصبة والآيات المأخوذة من الانجيل المهدى من « ماما » ، وهنالك ما يذكر بالفقرة

التى تشير الى طاعة الزوجة لزوجها وقد جاءت اليها من خلال ضباب قداس الزواج على قدر ما به من تألق ... ثم أسبوع أو شهر من الحزن الغامر ، والارتباك والمتعة المخطوفة ثم ينشأ التعود وينمو وتكون الاستقامة الدائمة التى تقود الى التسليم للأمور حين تحدث فى ترتيبها الطبيعى ، ثم الغفوة التى تخلو من الاحلام فى الفراش الكبير الابيض ، ثم مناقشة المطالب اليومية التى تبدأ عادة فى الصباح الباكر والاستشارات التى تأخذ طريقها من خلال باب غرفة الملابس ذلك الباب الذى خيل اليها ذات مرة أنه يغلق على بؤرة مشبوبة تكون أذى فى عين الفضيلة ..

ثم بعد ذلك الاطفال . الاطفال .. وقد يخيل للمرء أنهم تعويض عن كل شيء - وليسوا كذلك - وان كانوا قرة العين ، وليس لدى المرء فكرة محدودة عن ذلك الشيء الذى ضاع ، وهم يقومون بتعويضه !

أجل ان مصير شارلوت سيكون كمصيرها تماما فجو رولستون مثل ابن عمه الثانى جيم (وهو جيمس زوج ديليا) ولذا لم تر ديليا سببا فى أن الحياة فى المنزل الصغير المشيد بالطوب فى ويفرلى بليس لا تشبه تماما الحياة فى المنزل الكبير المبنى بالحجارة السمراء فى جرامرسى بارك .. كل ما هنالك أن غرفة نوم شارلوت لن تكون قطعا فى جمال غرفتها ..

رمت ببصرها وقد غمر نفسها الرضى الى ورق الحائط الوارد من فرنسا والذى يصور خيوطا من الحرير الممسوج ذى الحافة المزركشة ، وكان السرير المصنوع من خشب الماهوجنى والمغطى بملاءة بيضاء مشغولة ينعكس فى تناسق على مرآة خزانة ملابس متسقة معه فى اللون ، كما تدلت نسخة ملونة من صورة «الفصول الاربعة» من رسم ليبوبولد روبرت فوق جماعات من أفراد العائلة مصورة بالطريقة القديمة وموضوعة فى اطارات محفورة ومطلية بطبقة من الذهب ، وهنالك ساعة الحائط من معدن البرنز المطلى بماء الذهب وهى تمثل فتاة ترعى الغنم تجلس على جذع شجرة ملقى على الارض وعند قدميها سلة من الازهار ومن خلفها راع قد فاجأها بقبلة بينما أخذ كلبها الصغير ينبح عليه وسط كومة من الورود .. كانت هذه الساعة ذات الهيئة البعيدة عن الاحتشام هدية قدمت لديليا من عمتها السيدة مانسون منجوت بمناسبة زواجها ، وهى أرملة متحررة عاشت فى باريس ودعيت الى قصر التويلرى .. لقد عهدت السيدة منجوت بهذه الساعة الى

كلمنت سبندر الشاب أثناء عودته من ايطاليا فى أجازة قصيرة عقب زواج ديليا مباشرة ، ذلك الزواج الذى ماكان ليحدث قط لو كان فى مقدور كليم سبندر أن يعول زوجة ، أو لو أنه وافق على أن يهجر التصوير وروما ويستبدل بهما نيويورك والقانون .. لقد أكد هذا الشاب (الذى بدا شاذا أجنبى المظهر ساخرا بكل ما حوله) للعروس وهو مستغرق فى الضحك أن هدية عمتها كانت « أحدث شىء فى حوانيت باليه رويال » وكان أفراد الاسرة يعجبون بذوق السيدة مانسون منجوت وان أخذوا عليها « أجنبيتها » ولكنهم انتقدوا ديليا لوضعها الساعة فى مخدعها بدلا من عرضها فوق رف المدفأة بغرفة الجلوس ... بيد أنها كانت تحب عندما تستيقظ من النوم فى الصباح أن ترى الراعى الجسور وهو يسترق قبلته ..

ما كانت شارلوت لتستطيع وضع مثل هذه الساعة الجميلة فى مخدعها فانها حتى ذلك الوقت لم يكن لديها الكثير من تلك الاشياء الجميلة وأبوها الذى توفى فى الثلاثين من عمره بحمى الرئتين كان واحدا من فقراء أسرة «لوفيل» بينما أرملته وقد ثقل عليها حمل العائلة الصغيرة اضطرت للمقام طول السنة عند أعالى النهر فلا تستطيع والحالة هذه أن تفعل الكثير لابنتها الكبرى ، ولذا فقد دخلت شارلوت الى المجتمع فى ملابس أمها القديمة وفى قدميها حذاء خفيف من الحرير ورثته عن عمة متوفاة كانت قد رقصت به مع القائد واشنطن .. وكانت قطع الاثاث ذات الطراز القديم لدى اسرة رولستون تبدو فخمة فى عيني شارلوت ، ومن الراجح أنها تعتبر ساعة ديليا الفرنسية الصنع شيئا خارجا قليلا أو حتى غير لائق تماما .. أن شارلوت مسكينة قد أصبحت متمسكة بأهداب الفضيلة ومغرقة فى التحشم منذ أن هجرت الحفلات الراقصة وعكفت على الاهتمام بأمر المحتاجين ! لقد لحظت ديليا فى دهشة ذلك التغير المفاجىء الذى شملها وتذكرت أن أفراد الاسرة كانوا مجمعين على أن شارلوت توشك أن تصبح عانسا فلما خرجت الى المجتمع تغير رأيهم فيها ، فهى وان كانت أمها عاجزة عن أن **تهبها أكثر من ثوب حريرى واحد** وان كان كل شىء فى مظهرها تقريبا يدعو الى الاشفاق ابتداء من شعرها الاحمر الفاقع حتى عينيها العسليتين الباهتتين الا أن هذه العيوب قد خفف منها خصر نحيل وقدم رشيقة وضحكة مرحة . وعندما يصفف شعرها ويدهن جيدا استعدادا لحفلة مسائية يبدو بنى اللون وينسدل فى رقة على خديها

الاثيلين تحت اكليل من زهور الكاميليا الحمراء والبيضاء ، فاذا رآها بضعة من الشبان الصالحين للزواج قالوا عنها أنها جميلة .

ثم جاءها المرض .. لقد أصابها البرد أثناء نزهة انزلاق فى ضوء القمر فأخذت الدوائر الحمراء تزداد عمقا وبدأت تسعل وخرجت الاشاعة تقول انها «تسير فى الطريق الذى سار فيه أبوها» وحملت الى قرية بعيدة فى ولاية جورجيا حيث عاشت وحيدة لمدة عام مع مربية عجوز وعندما عادت شعر كل واحد فى الحال أنها تغيرت فقد كانت ممتقعة اللون وزاد نحولها أكثر من أى وقت مضى ، ولكن خدها أصبح شفافا شائقا ، وكثر اللون الاسود فى عينيها ، وزاد شعرها احمرارا . ومما زاد فى طرافة مظهرها ارتداؤها للملابس البسيطة الفضفاضة .. لقد هجرت حليها وزهدت فى استعمال السلاسل الذهبية ، وارتدت دائما نفس الرداء الرمادى وقلنسوة صغيرة لاصقة بشعرها وظهر عليها حماس مفاجىء لزيارة المحتاجين .. وفسرت العائلة هذا المسلك منها بأنه أثناء العام الذى أمضته فى الجنوب صدمتها رؤية مناظر الفاقة الشديدة والتدهور الاجتماعى للفقراء من البيض المساكين واطفالهم وقيل ان رؤيتها لمظاهر التعاسة هذه جعلت من المستحيل عليها أن تعود الى حياة الترف وخلو البال التى اعتادها الشباب من أصدقائها .. وما من أحد الا رأى هذا الرأى وكان رأيه واضحا فى نظراته ، الا أن الجميع قرروا أن هذه الحالة العقلية الشاذة لابد أن تزول فى الوقت المناسب . وحدث فى الوقت ذاته أن جدتها السيدة لوفيل العجوز ـ وقد فهمت مابها بطريقة أفضل من طريقة الآخرين ـ قد وهبتها بعض المال لتنفقه على فقرائها ، وأعارتها غرفة فى حظائر الخيول الخاصة بأسرة لوفيل ، فجمعت شارلوت حولها بعض أطفال الحى الفقراء ، ومن بينهم تلك الطفلة الصغيرة التى أثار نسبها اهتماما عميقا لدى الناس قبل ذلك الوقت بعامين أو ثلاثة ، حين أحضرتها سيدة محجبة ذات ثوب أنيق الى المسكن الحقير الذى يسكنه سيروس واشنطن ، وهو الخادم الزنجى الذى تعمل زوجته ياسمين غسالة فى منزل الدكتور لانسكل .. ومن المحتمل أن الدكتور لانسكل أشهر أطباء عصره كان مطلعا على التاريخ السرى لكل أسرة ابتداء من حى باتارى حتى يونيون سكوير بيد أنه بالرغم من محاصرة مرضاه له وتوجيه وابل من الاسئلة اليه فانه كان يصرح على الدوام بأنه لايستطيع أن يعرف حقيقة السيدة المحجبة أو يحذر مصدر الشيك ذى المائة دولار الذى وجد مثبتا فى ثياب الطفل .

ولم يتكرر مجيء المائة دولارقط كما لم تعد السيدة الى الظهور أبدا ولكن الطفل عاش فى صحة جيدة سعيدا فى حياته مع أطفال ياسمين وبمجرد ان استطاع الحبو أخذ الى مدرسة الحضانة التى تديرها شاتي لوفيل حيث ظهر (كبقية الاطفال الفقراء فى المدرسة) فى ملابس صغيرة مأخوذة من أثوابها القديمة وجوارب شغلتها يداها التى لاتكف عن العمل .. ومع انهماك ديليا فى شئون أطفالها هى، فانها استطاعت أن تزور تلك المدرسة مرة أو مرتين وعادت من هنالك وهى تتمنى من صميم نفسها أن تجد غريزة الامومة عند شاتى طريقها الطبيعى بالزواج .. لقد شعرت ابنة العم المتزوجة شعورا غامضا بأن حبها لاطفالها ماهو سوى عاطفة معتدلة الانفعال محدودة المجال اذا قورن بحب شاتى الشديد الجارف لأطفالها الهمل فى حظائر خيول الجدة لوفيل .

بعد ذلك دهش الناس جميعا حين خطبت شارلوت لوفيل الى جو رولستون .. وشاع فى نفس العام الذى عادت فيه الى المجتمع أن جو يعجبها .. كانت تجيد الرقص أما جو وكان فارع العود خفيف الحركة فقد شاركها كثيرا من الرقصات الشعبية .. وقبل نهاية الشتاء تنبأ جميع سماسرة الزواج بأن الموقف لابد أن ينجلى عن شىء ما ولكن عندما حاصرت ديليا ابنة عمها بالاسئلة بدا من اجاباتها الغامضة واحمرار وجهها أن خطيبها قد عدل عن رأيه .. والآن ظهر جليا أن الذى كان بينهما لابد أن يكون قصة غرام أعقبها ذلك العارض المثير « سوء تفاهم » وأخيرا أصبح كل شىء على مايرام واستعدت أجراس كنيسة القديس مرقس كى تدق معلنة بدء أيام سعيدة فى حياة شارلوت . وأخذت سيدات عائلة رولستون يرددن « سنرى عندما نضع طفلها الاول »

« شاتى » هكذا صاحت ديليا وهى تدفع كرسيها الى الوراء عندما رأت وجه ابنة عمها منعكسا فى المرآة أمامها .

فوقفت شارلوت لوفيل عن السير عند باب الغرفة وهى تقول « اخبرونى بوجودك هنا لذا جئت اليك على عجل » فقالت ديليا : « أهلا أيتها العزيزة .ما أجملك فى هذا الثوب الحريرى! كنت دائما أقول ان الذى ينقصك هو الاثواب الغالية.. انى مرتاحة لتركك لبس الشيلان الكشميرية القاتمة اللون . ثم رفعت ديليا يديها وأزاحت قبعتها البيضاء عن رأسها الفاحم اللامع وأخذت تهزها فى لطف .

وقالت ضـــاحكة « آمل أن تعجبك ! لقد اشتريتها لمناسبة زواجك ·· »

وقفت شـــارلوت لوفيل بلاحراك وكانت فى ثوب أمهـــا الحريرى وهو بلون الحمام البرى وقد أضيفت اليه حديثا خطوط من الشرائط القانية اللون ، وعند الصدر اضافة من الفراء وعلى الرأس قبعة جديدة من جلد كلب الماء ، وهكذا بدت عليها مســحة من العظمة والروعة خليقـــة بامرأة متزوجة ·· ثم قالت ديليا وهى لا تنقطع عن التطلع اليهـــا :

« ومع ذلك فان شعرك يبدو أكثر سوادا الآن أيتها العزيزة» ·

فصاحت شارلوت بصوتها العميق : « أكثر سودا ! ! انه شيب» وأزاحت عن وجهها بعض الشرائط المعطرة وكشفت عن عارضـتها فظهرت خصلة بيضاء وقالت : « لا تقصرى فى استهلاك هـــذه القبعة منذ الآن فلن يكون هناك زواج ·· » بينما أفتر ثغرها عن ابتسامة كشفت عن أســنانها الصغيرة البيضاء اللامعة

وكان لدى « ديليا » من حضور الذهن ما جعلها تنحى القبعة جانبا حماية منها لريشها قبل أن ترتمى على صدر ابنة عمها قائلة :

« لن يكون هناك زواج يا شارلوت ! هل وصل بك الجنون الى هذا الحد ؟ »

فقالت شارلوت :

« هل من الجنـــون أن أفعـــل ما أعتقده صوابا ؟» وضحكت ديليا قائلة فى صوت متقطع : «ولكن الناس قالوا انك كنت على وشك أن تتزوجيه فى العام الذى خرجت فيه الى المجتمع ، ولم يعرف أحد حقيقة ما حدث حينئذ · والآن ليس فى وسعك أن تمتنعى عن الزواج · »

قالت شارلوت لوفيل فى اعياء «مالى وللناس !» ورمقتها ابنـة عمها المتزوجة بنظرة واجفة ·· وكان فى صوتها رجفة ما عهدتها ديليا فيه قبل الآن قط أو فى أى صـــوت بشرى آخر وكأن أصداءه البعيدة قد أخذت تهز كيان عالمها المألوف هزا ، وكان السجاد يتأرجح تحت قدمى ديليا المرتعشتين ·

ووقفت شارلوت لوفيل تحدق فى الفضاء أمامها وفى عينيهـــا العسليتين المفتـــوحتين لاحظت ديليا النقط الخضراء التى تظهـر فيهما عادة كلما استولى عليهـــا الغضب أو تملكها الاضطراب ! ثم قالت وهى تجذبها الى جوارها على المقعد المستطيل :

« شارلوت خبريني بالله من أي مكان أنت قادمة الآن ؟ »

ـ « أي مكان تقصدين ؟ »

ـ « أجل يبدو عليك كأنك قد رأيت شبحا ـ بل جيشا من الاشباح »

وداعبت شفتيها نفس الابتسامة القاسية وهي تقول « لقد رأيت جو ... »

فصاحت ديليا وقد أشرق عليها نور فكرة جديدة : « لا تقولي بأنك عرفت شيئا عن حياة جو الماضية! حتى لو كان هناك شيء .. »

ثم زفرت بشدة واستمرت تقول في شجاعة « حتى لو سمعت أنه كان .. ان كان لديه طفل .. كان خليقا به أن يبرر لك تصرفه .. »

فهزت الفتاة راسها وقالت « أعرف ذلك ولا حاجة بك للاستمرار فالرجال سيظلون دائما هكذا ولكن المسألة ليست ما تظنين »

ـ « خبريني اذن ماهي ؟ »

أدارت شارلوت لوفيل بصرها في الغرفة المشمسة الانيقة كما لو كانت تمثل عالمها الذي تعيش فيه وكما لو كان ذلك العالم سجنا عليها أن تفر منه ، ثم خفضت رأسها وهي تقول لاهثة: « أريد ـ أن أهرب .. »

ـ « تهربين ؟ من جو ؟ »

ـ « من آرائه ـ آراء أسرة رولستون » .

فشمخت ديليا بأنفها، فهي على اي حال من أسرة رولستون ! ثم ابتسمت ابتسامة باهتة وقالت « آراء أسرة رولستون ؟ ـ لم أجدها سيئة الى الحد الذي يصبح معه العيش متعذرا . »

ـ « كلا ولكن الامر جد مختلف .. لم يطلبوا منك ان تنزلي عن أشياء خاصة .. »

ـ « أي أشياء تقصدين ؟ ماذا لدى شارلوت المسكينة من أشياء يطلب اليها أن تنزل عنها ؟ لقد كانت دائما في مقام الاخذ اكثر مما كانت في مقام العطاء .. »

وقالت لها في الحاح « ألا يمكن أن تفصحي أكثر من هذا أيتها العزيزة ؟ »

صاحت الفتاة في همس كسير « أطفال الفقراء ـ يقول ان على أن أنزل عنهم .. »

ـ « تنزلين عنهم ؟ تكفين عن مساعدتهم ؟ »

«يريد منى أن أكف عن رؤيتهم وعن العناية بهم ! لقد أرسل الى أمه كى تخـــبرنى بذلك ·· فبعد أن يكون لنا أطفال ·· انه يخشى أن تصيب العدوى أطفالنا ·· طبعـــا سوف يهبنى بعض النقود لكى أستخدم شـــخصا يعنى بهم ·· يظن ان هـــذه الطريقة لائقة ·· » ثم أخـذت شارلوت تشهق بالبكاء وأزاحت القبعة عن رأسها وأخفت عينيها الباكيتين فى الوسائد ·

جلست ديليـا وقد استولت عليها حيرة شديدة اذ من بين كل المضاعفات غير المتوقعة كان هذا بالتأكيد آخر شىء يمكن تخيله، ولكنها مع ذلك لم تجد مفرا من الاعتراف بصواب فكرة جو بعد ما كسبته بالانتســاب الى أسرة رولستون ، بل هى تقـره على رأيه ، فما من فرد فى نيويورك الا يذكر وفاة وحيد « هنرى فان درليدن » التعس وقد أصابته عدوى الجدرى من الســيرك بعد أن أخذته اليه مربية لا ضمير لها دون علم والديه · فبعد تحذير كهذا شعر الآباء أنهم على حق فى كل ما يتخذون من احتياط ضد العـدوى ، فان الفقراء من الناس على كثير من الجهل والاهمال فتتعرض أطفالهم على الدوام للعدوى ، كلا لقد كان «جورولستون» قطعا على حق وشارلوت على خطأ فاضح ، ولكنها لم تجـد فائدة ترجى من وراء اخبـارها بذلك الآن · فتمهلت فى مصارحتها برأيها · وهمست فى أذن شارلوت تقول «ان الامر مرهون بولادتك أطفـالا ـ وقد لا تلدين ـ قبل مرور بعض الوقت ·· »

قالت فى صوت حزين وهى تخفى وجهها فى الوسائد ··· « أجل سوف ألد !»

فابتسمت ديليا ابتسامة العارف وقالت « فى الحقيقة يا شاتى لا أستطيع أن أدرك تماما كيف تعرفين أنك ســوف تلدين ·· انك لا تفهمين هذا ·· »

رفعت شارلوت لوفيل نفسها عن المقعـد وقد انحلت أربطـة رقبتها المصنوعة من حرير بروكسل وتدلت جوانبها بغير انتظام على النصف الأعلى من ثوبهـا المتكسر · ومن خلال شـــعرها المشعث التمعت الخصلة البيضاء مما يبعث الانقباض الى النفس·

وفى عينيهـا العسليتين سبحت النقط الخضراء الصغيرة كما تسبح أوراق الشجر فى بركة لصيـد السمك ·

قالت ديليا لنفسها « يا لها من مسكينة ! انهـا تبدو كبيرة السن قبيحة وهى أقرب الى منظر العانس الآن ويظهر أنها لا تدرك أبدا أن الفرصـة لن تسنح لها مرة ثانية ! »

ثم قالت لها : « يجدر بك أن تكوني عاقلة ياعزيزتي شاتي . على أي حال من واجب الفرد أن يعنى بأطفاله قبل أن يعنى بأطفال الآخرين . »

قالت الفتاة وقد قبضت على يديها بقوة .. « تلك هي المسألة .. كيف أستطيع أن أنزل عن طفلي ؟»

ـ « طفلك ..طفلك ..؟ »مرة ثانية بدأ عالم ديليا يهتز تحتها وسألتها وهي تتذرع بالصبر «أي طفل من الاطفال الهمل المساكين تعدينه طفلك ؟ »

نظرت «شارلوت» الى عينيها مباشرة وقالت « ان طفلي هو طفلي حقا »

ـ « طفلك ..؟ احذري..انك تؤذين يدي ياشاتي ! » وخلصت ديليا نفسها وابتسمت ابتسامة مغتصبة وقالت « طفلك ؟ »

ـ « طفلتي الصغيرة..الطفلة التي تولتها ياسمين وسيروس »

وزفرت ديليا رولستون زفرة طويلة .

وجلست المرأتان كل منهما في مواجهة الاخرى دون كلمة . ولكن ديليا أشاحت بوجهها جانبا . لقد شعرت بقشعريرة الاشمئزاز تسرى في بدنها بينا تحدثها نفسها بأن مثل هذه الاشياء حتى لو لم يكن بد من قبولها ماكانت لتقال في مخدعها وبالقرب من مخدع الاطفال الطاهر على الجانب الآخر من الممر .. وبحركة آلية أخذت تعدل من ثنيات ثوبها الحريري التي أسقطها احتضان ابنة عمها لها وبعد ذلك نظرت مرة أخرى في عيني «شاتي» فتلاقت النظرات وهي تقول « أواه يا شاتي المسكينة ! » ثم مدت ذراعيها لابنة عمها .

استمر الراعى يسترق قبلته من الراعية كما استمرت الساعة فى الجذع الساقط تدق الثوانى

وجلست « ديليا » جامدة لا تشعر بمرور الوقت بينما تشبثت بها ابنة عمها ٠٠ لقد عقد الرعب لسانها وأخذها العجب عندما عرفت أن دمها يجرى فى عروق اللقيط المجهول « طفل المائة دولار » الذى ظل وقتا طويلا هدفا لسخرية أهل نيويورك المكتومة اوظنونهم الخفية ٠٠ كان هذا أول اتصال لها بالجانب الخفى فى الهيئة الاجتماعية وأحست بالأسى لان مثل هذه الاشياء تحدث وتقال فى دارها ولأنها - هى ديليا رولستون - تسمعها من شفتى الضحية ! اذ كانت شاتى طبعا هى الضحية - ولكن ضحية من ؟ انها لم تذكر أسماء ولم تستطع ديليا أن تسأل أى سؤال : لقد ختم الرعب على فمها فما استطاعت كلاما ٠٠ وفى الحال كان فكرها قد ارتد الى الوراء منقبا فى ماضى «شاتى» ولكنها لم تعثر فيه على رجل غير جورولستون وأن ربط « جو » بالحادث أمر بعيد الاحتمال ٠٠ اذن هو شخص ما من الجنوب ؟ ولكن كلا فلقد كانت «شارلوت» مريضة عندما سافرت الى هنالك ٠٠ وفى لمحة خاطفة فهمت ديليا حقيقة ذلك المرض وسر اختفائها ٠٠ ولكن عقلها ارتد عن هذا الضرب من الحدس وتركز اهتمامها بدافع غريزى حول شىء استطاعت أن تدرك كنهه : فمثلا مسلك جورولستون ازاء فقراء شاتى ٠٠ بطبيعة الحال لم يكن «جو» ليسمح لزوجته بأن تخاطر بجلب العدوى الى منزلها ٠٠ وكان هذا أمرا يجدر الوقوف عنده ٠٠ لابد أن زوجها « جيم » كان يفكر بنفس الطريقة ٠ ولابد أنها كانت توافقه على رأيه ٠

وعادت عيناها تتطلعان الى الساعة ٠٠ كانت دائما تفكر فى « كليم سبندر » عندما يقع بصرها على الساعة وفجأة تساءلت - لو اختلفت الاوضاع - كيف تكون اجابته لو أنها وجهت اليه نفس الرجاء الذى وجهته شارلوت الى « جو » ٠٠٠ كان أمرا يصعب تخيله ومع ذلك ففى ومضة خاطفة أمكن لديليا أن ترى نفسها كزوجة « كليم » ورأت أطفالها على أنهم أطفاله ، وتخيلت نفسها وهى ترجوه أن يدعها تستمر فى العناية بالاطفال الهمل المساكين المقيمين فى حظائر الخيول وسمعت ضحكته الواضحة واجابته

الساخرة : « ولم السؤال أيتهاالأوزة الصغيرة ؟ هل تعتبرينني متعصبا لآرائى الى هذا الحد ؟ »

أجل ! كانهذا « كليم سبندر » بكل صفاته ـ متسامحا مستهترا لا يقيم وزنا للنتائج ،سباقا دائما لفعل الخير فى اللحظة المناسبة وكثيرا مايترك الآخرين يسددون الحساب ولقد قال جيم ذات مرة بطريقته الخشنة ·· « توجد ناحية حقيرة فى شخصية « كليم » ·· ثم أيقظت ديليا رولستون نفسهاوشددت قبضتها على ابنة عمها وهى تهمس فى أذنها « شاتى ·· خبرينى »

ـ « ليس لدى شىء آخر »··

ـ « أقصد أن تحدثينى عن نفسك ·· عن هذا الشىء ·· هذا ·· » لقد كان صوت كليم سبندر لايزال يرن فى أذنيهاوهى تقول فى صوت خفيض : « هل أحببت شخصا ما ؟ » فأجابت !

« أجل ، ولكن انتهى هذا الآن ، ولم يبق سوى الطفل ·· وفى استطاعتى أن أحب « جو » وبطريقة أخرى ·· » وشدت شاتى لوفيل من جسمها بينما بدا عليهاالاعياءوالجهد ·· ثم قالت:

« أريدالمال ·· يجب أن أحصل عليه من أجل طفلى والا فانهم سوف يبعثون به الى ملجأ » وتوقفت ثم قالت « ولكن ليس هذا كل شىء ·· أريد أن أتزوج ·· أن أصبح زوجة مثلكم جميعا ·· فى استطاعتى أن أحب أطفال « جو » ـ أطفالنا ··· فالحياة لا تعرف التوقف ··· »

ـ « كلا ان الامر كما تقولين ولكنك تتحدثين كما لو كان ·· الشخص الذى غرر بك ··

ـ « لم يغرر بى أحد ·· لقد كنت وحيدة وكنت شقية فقابلت من كان وحيدا شقيا ·· وليس لكل الناس ما لك من حظ ·· كان كلانا فقيرا فلم نستطع الزواج ·· وما كانت أمى لتوافق على هذا الزواج قط وعلى ذلك فقد حدث ذات يوم ·· ذات يوم قبل أن يودعنى ··· »

ـ « وهل ودعك ؟ »

ـ « أجل لقد كان على وشك ان يترك البلاد ·· »

ـ « وهل ترك البلاد ·· وهو يعرف ؟ »

ـ « كيف له أن يعرف ؟ انه لايعيش هنا · بل جاء ليرى أسرته ويمكث أسابيع قليلة ··· » وهكذا تملصت ولم تقل شيئا بينما أغلقت شفتاها الرقيقتان على سريرها ···

وساد المكان صمت وأخذت ديليا تطيل النظر فى الراعى الجسور وأخيرا سألت فى صوت منخفض « جاء من أين ؟ »

ـ « وما اهمية ذلك ؟انك لن تفهمى » وهكذا تملصت شارلوت مرة أخرى .

وفى بطء اصطبغ وجه ديليا بحمرة قانية ، لقد أحست بكرامتها تمتهن لما يكمن فى هذا الرد من تأنيب ينضح بالاحتقار ، وبدت أمام نفسها خجولا ضائعة كفتاة جاهلة عاجزة عن فعل شىء حيال ذلك الدنس الذى أهالته شارلوت على رأسها . ولكن فجأة استيقظت فى نفسها فكرة عارمة من الهام أنوثتها اخذت تكافح للظهور . فركزت عينيها عن عينى ابنة عمها وقالت « اذن فلن تقولي لي من الرجل ؟ »

ـ « وما الفائدة ؟ اننى لم أخبر أى انسان .. »

ـ « ولماذا اذن أتيت الى » ؟

وانفجر وجه شارلوت المتحجر باكيا ... « لقد جئت اليك فى شأن طفلتى .. طفلتى »

ولم تلق ديليا بالا لبكائها وقالت « وكيف أستطيع لك مساعدة اذا لم أعرف ؟ » وعبرت عن عزمها بصوت شديد حاد النبرات وكانت ضربات قلبها من العنف بحيث خيل اليها ان ثمة يدا خفية تمتد الى حنجرتها تضغط عنقها وتمنعها من التنفس .

ولم تحر شارلوت جوابا

فكررت ديليا السؤال فى عناد « جاء من أين ؟ » وعند ذلك قالت الفتاة وهى تنوح وترفع يديها الى أعلى كى تغطى عينيها « كان دائما يعتقد بأنك ستنتظرينه وعندما وجد أنك لم تفعلى .. وتزوجت من « جيم » ... لقد سمع بهذا فى الوقت الذى كان فيه على وشك الرحيل .. لم يعرف بزواجك الا عندما طلبت منه السيدة «منجوت» أن يحمل معه الساعة هدية عرسك .. »

فصاحت ديليا . « كفى .. كفى .. »

لقد دفعتها الى الاعتراف دفعا والآن عندما تكلمت أحست بأنها تقذف بالكلمات فى وجهها فى عنف وقسوة .. أكانت هذه نيويورك ؟.. نيويورك المسالمة المنافقة فى ود ؟؟ أكان هذا منزل « جيمس رولستون » وهذه زوجته تنصت الى مثل هذه الاعترافات المشينة ؟

ووقفت شارلوت تقول :«توقعت ذلك! ان فكرته عن طفلى الآن قد ساءت بدل أن كنت آمل فى أن تتحسن ... لماذا دفعتنى الى

الكلام ؟ توقعت أنك لن تفهمى . كنت دائما أهتم به منذ اللحظة التي خرجت فيها الى المجتمع، وهذا هو السبب فى أننى قررت ألا أتزوج غيره ولكننى أدركت أن لا أمل لى فى ذلك .. لم يتطلع الى أية امرأة سواك وعندما عاد منذ أربع سنوات ولم يجدك أمامه بدأ يهتم بى وأخذ يعاملنى بلطف ويحدثنى عن حياته وعن فنه » وتنفست فى عمق وأخذ صوتها بصفو .. « لقد انتهى كل شىء الآن .. انتهى تماما ... ان شعورى الآن كما لو كنت لم أستطع له حبا أو كرها .. ولا يوجد الآن سوى الطفل .. طفلى . انه لا يدرك شيئا عن هذه الامور .. ولم يدرك ؟ هذا لا يخصه فى شىء ... هذا الامر لا يخص أى انسان سواى .. ولكن يجب ان تدركى انى لا أستطيع النزول عن طفلي » .

وقفت ديليا رولستون وقد انعقد لسانها وأشاحت بوجهها عن ابنة عمها وقد تملكها رعب متزايد ... لقد فقدت ديليا كل احساس بالواقع وكل شعور بالطمأنينة والاعتماد على النفس وكانت فكرتها الاولى هى أن تغلق أذنيها فلا تسمع توسلات الشخص الآخر كما يدفن الطفل رأسه هربا من مخاوف الظلام ، وأخيرا استجمعت قواها وتكلمت بشفتين متصلبتين « ولكن ما الذى عولت عليه عندما اتيت الى ؟ لماذا أخبرتنى بكل هذا ؟ »

ـ « لانه أحبك » وخرجت الكلمات متعثرة من فم شارلوت لوفيل ووقفت المرأتان كل منهما تواجه الاخرى ...

وشيئا فشيئا فاضت الدموع فى عينى ديليا وانحدرت فوق خديها وبللت شفتيها المتيبستين ومن خلال الدموع رأت وجه ابنة عمها الشاحب يتكسر ويذوى كوجه غارق تحت الماء ، فان الاشياء الناقصة التكوين التى أحست بها احساسا غامضا قد طفت الى السطح قادمة من أعماق نفس سحيقة مجهولة . وللحظة قصيرة كاد الامر لا يعدو أن يكون أن المرأة الاخرى حدثتها عن ماضيها هى المجهول وعبرت بكلمات ساذجة عن مخاوف قلبها هى .

ان أسوأ ما فى الموضوع كله هو على قول شارلوت أنه يجب أن يعملا فى الحال فلم يكن هناك وقت يضاع .. لقد كانت شاتى على حق ومن المستحيل عليها أن تتزوج « جو » فمعنى ذلك هو النزول عن الطفل ، ومن جهة أخرى كيف تستطيع أن تتزوجه دون أن تخبره بالحقيقة؟ وهل من المعقول أنه بعد سماع القصة لا ينبذها ؟ كل هذه الاسئلة دارت فى عقل ديليا مسببة لها آلاما كثيرة ، ومن خلالها أشرقت صورة الطفل وفرضت

نفسها على كل ماعداها .. طفل كليم سبندر .. وهو ينمو على الصدقات فى بيت حقير لزنجى أو يرعى بين أمثاله فى منزل من تلك المنازل اللعينة المسماة بالملاجىء .. كلا ! الطفل أولا .. هذا ما أحست به مختلطا بكل ذرة من ذرات جسمها .. ولكن ماذا يجب أن تفعل وممن تلتمس النصيحة وما الذى تشير به على هذا المخلوق التعس الذى سعى اليها يطلب مساعدتها باسم «كليمنت» ؟ وتلفتت ديليا حولها فى يأس ثم نظرت خلفها الى ابنة عمها ..

« لا بد لى من وقت للتفكير ... يجدر بك الا تتزوجيه .. ومع ذلك فكل الترتيبات قد عملت وهدايا العرس ... لابد من حدوث فضيحة ستقضى على الجدة لوفيل ...

أجابت شارلوت فى صوت منخفض « ليس ثمة وقت فلا بد لى أن أتخذ قرارا الآن ... »

وضغطت ديليا بيديها صدرها وهى تقول « أقول لك يجب أن أفكر .. ليتك تعودين الى بيتك .. لكن لا ! ابقى هنا . يجب ألا يقع نظر أمك على عينيك . لن يعود « جيم » الى البيت الا متأخرا وفى وسعك أن تنتظرى فى هذه الغرفة حتى أعود .. » وكانت أثناء ذلك قد فتحت خزانة ملابسها وأخرجت قبعة رخيصة وحجابا ثقيلا ... وقالت شارلوت :

« أبقى هنا ؟ ولكن الى أين أنت ذاهبة ؟ »

ـ « لا أدرى .. أريد ان اتمشى قليلا .. أريد الهواء .. أظن أننى فى حاجة لان أكون وحدى .. وبسرعة نشرت ديليا شالها ووضعت على رأسها القلنسوة والحجاب ودست يديها فى خباء الفرو بعد أن لبست قفازاتها ، بينما جلست شارلوت تحملق فيها وقد انعقد لسانها وهى مستلقية على المقعد المستطيل لا تبدى حراكا ..

وعندما وقفت ديليا على عتبة الباب قالت فى اصرار : « ستبقى هنا » فأجابت شارلوت :

« نعم .. سأبقى »

وأغلقت ديليا الباب خلفها وراحت تعدو على السلم

- ٣ -

كانت تتكلم صدقا عندما قالت أنها لا تعرف الى أين تذهب فقد أرادت أن تهرب من وجه شارلوت الذى لا يحتمل ، ومن الجو الملتصق بمأساتها .. وفى الخارج ، فى جو الحرية من السهل عليها أن تفكر ..

وعندما تخطت سياج الحديقة رأت أطفالها المتوردى الوجوه وهم يلعبون تحت رقابة مربيتهم مع غيرهم من أطفال الحى . وكانت الابنة الصغيرة تلبس قبعتها المصنوعة من المخمل المشغول وتضع على كتفيها فراءها الابيض والغلام بقلنسوته الاسكتلندية وسترته الصوفية القصيرة .. كم يبدو عليهم المرح والسعادة؟ ورمقتها المربية بنظرة ولكنها هزت رأسها ولوحت بيدها للأطفال ثم أسرعت الخطى ..

وأخذت تسير وتسير فى الشوارع المألوفة التى تسبح فى شمس الشتاء المشرقة اذ كان الوقت بعد الظهر بقليل وهى ساعة يكون الرجال فيها قد عادوا الى مكاتبهم ولم يكن هناك سوى قليل من المارة يسيرون فى ساحة ارفنج وميدان يونيون ، وعبرت ديليا الميدان متجهة الى برودواى

كانت دار لوفيل فى شارع مرسر بناء قويا على الطراز القديم من الطوب وخلفه حظيرة كبيرة للخيول تطل على شارع جانبى ضيق كالذى رأته ديليا أثناء رحلة شهر العسل فى انجلترا ويسمى « التخشيبة » ، واتجهت الى هذا الشارع الجانبى ودخلت الى فناء الحظيرة وفتحت بابا . وفى غرفة متواضعة طليت حوائطها بالجير الابيض وجدت عددا من الاطفال متجمعين حول مدفأة يلعبون بلعب قديمة . وكانت المرأة الارلندية المشرفة عليهم تقوم بتفصيل ثياب صغيرة على منضدة قديمة فرفعت وجهها بشوشا اذ عرفت فى ديليا السيدة التى سبق لها المجىء مرة أو مرتين لرؤية الاطفال فى صحبة الآنسة شارلوت ...

وقفت ديليا وقد بدا عليها الاضطراب وقالت متلعثمة : « لقد .. لقد أتيت لأسألك اذا ماكنت فى حاجة الى لعب جديدة .. »

فأجابت :

« هذا ما نحن فى حاجة اليه أيتها السيدة ! ونريد أشياء أخرى كثيرة كذلك وان كانت الآنسة شارلوت تأمرنى بألا أطلب المساعدة من السيدات اللاتى يأتين لرؤية اطفالنا المساكين .. »

أجابت السيدة رولستون وهى تبتسم « فى وسعك ان تطلبى منى يا بردجيت .. دعينى أرى أطفالك .. لقد مضى على وقت طويل منذ كنت هنا آخر مرة .. »

كان الاطفال قد توقفوا عن اللعب وأحاطوا بمربيتهم يتزاحمون عليها وأخذوا يحملقون فى السيدة الثرية التى ترفل فى غالى الثياب وأفواههم مفتوحة من الدهشة ... ولمحت بين الاطفال بنتا صغيرة ذات عينين عسليتين وخدين قرمزيين ، ترتدى رداء فضفاضا من الصوف المزخرف مزينا بأزرار هى تقليد للمرجان، فتذكرتها ديليا اذ كانت هذه الازرار مثبتة على أحسن ثوب لدى شارلوت فى العام الذى خرجت فيه الى المجتمع .. وقفت ديليا وحملت الطفلة بين يديها وكان شعرها المجعد بنى اللون كعينيها تماما ولكن العينين كان بهما نفس النقط الخضراء ... فجلست ديليا وأجلست البنت الصغيرة على ركبتيها وتركتها تلعب فى اهتمام بسلسلة ساعتها ... فقالت المربية :

ـ « اخشى ياسيدتى .. ان يتسخ ثوبك بسبب حذائها فأرض الغرفة ليست نظيفة .. »

فهزت ديليا رأسها وضمت الطفلة الى صدرها بقوة ونسيت الآخرين الذين أخذوا يحملقون فيها كما نسيت مربيتهم .. كانت المخلوقة الصغيرة التى تجلس على ركبتيها من مادة مختلفة فلم تكن فى حاجة للرداء الفضفاض المزخرف ولا للأزرار المرجانية كى تميزها من بين بقية الاطفال . فعلى جبهتها العالية نمت أطراف خصلات شعرها الاصفر تماما كخصلات شعر كلبمنت سبندر ووضعت ديليا خدها الملتهب على جبهة الطفلة .

ـ « هل تريد الطفلة أن تأخذ سلسلتى الصفراء الجميلة ؟ »

وهذا ما أرادته الطفلة !

خلعت ديليا السلسلة الذهبية من الساعة وعلقتها حول عنق الطفلة وصفق الاطفال وصاحوا طربا ولكن الطفلة الصغيرة استمرت تلعب بحلقات السلسلة فى صمت وقد بدت على وجهها علامات الاهتمام ...

قالت المربية : « ايتها السيدة لا يمكن ان تتركى لتينى الصغيرة هذه السلسلة الجميلة فعندما تعود الى أولئك الزنوج ... »

ـ « ما اسمها ؟ »

ـ « يدعونها تينا على ما أعتقد . أظن أن هذا ليس اسمها الحقيقى »

فلم تنبس ديليا بكلمة . فقالت المربية :

« أرى أن خديها متوردان أكثر مما يجب كما انها تسعل لاتفه الاسباب وكثيرا ما تصاب بالبرد ... والآن يا تينى اتركى السيدة ... »

وقفت ديليا وتخلت عن الذراعين الرقيقتين .. بينما تقول المربية :

« انها لاتريد ان تدعك تذهبين أيتها السيدة ولم تحضر اليوم الآنسة شاتى وتلك الصغيرة تحس أنها وحيدة بدونها .. انها لا تلعب كما يفعل الآخرون .. والآن يا تينى انظرى الى هذه السلسلة الجميلة التى أعطتها السيدة لك ... كفى كفى هذا الآن ... »

همست ديليا فى صوت منخفض « وداعا يا كلمنتينا » وقبلت العينين العسليتين وتاج الشعر المجعد ثم أسدلت القناع على عينين أسرعت اليهما الدموع . وفى فناء الحظيرة أخذت تجففهما بمنديلها الكبير المطرز ووقفت مترددة وبعد أن استجمعت قواها عادت الى المنزل ..

كان المنزل كما تركته الا أن الاطفال قد دخلوا الى غرفتهم وسمعت صخبهم فيها وهى تسير فى الممر متجهة الى مخدعها حيث كانت شارلوت لوفيل تجلس على المقعد المستطيل جلسة معتدلة صارمة تماما كما تركتها ديليا

« شاتى .. شاتى .. لقد فكرت فى المسألة .. اصغ الى مهما حدث فلن تبقى الطفلة حيث هى الآن .. انى عازمة على أن أكفلها .. »

فانتصبت شارلوت على قدميها طويلة ممتقعة اللون ، وبدت عيناها فى وجهها النحيل كأنهما تجويفان فى جمجمة ميت وفتحت شفتيها لتتكلم وعند ذلك مدت يدها الى منديلها ووضعته بسرعة على فمها وغاصت فى المقعد مرة ثانية وانساب من خلال المنديل خيط أحمر سقط قطرات على ثوبها الحريرى .

وصرخت ديليا راكعة على ركبتيها بجوار ابنة عمها :

« شارلوت .. شارلوت .. »

وانزلقت رأس شارلوت الى الخلف واستقرت على الوسائد فتوقف جريان الدم وهنا تناولت ديليا قنينة من أمامها وقربتها من أنفها المحتقن فامتلأ جو الغرفة برائحة عطر قوى نفاذ ..

فتحت شارلوت عينيها وقالت « لا تخافى فانى أبصق دما فى بعض الأحايين .. وليس دائما .. لقد شفيت رئتاى تقريبا ولكنه الرعب ... »

ـ « كلا كلا لم يعد هناك ما يرعب ... أقول لك اننى دبرت الامر كله وسوف يسمح لى جيم بأخذ الطفلة .. »

ورفعت الفتاة نفسها فى اعياء وقالت : « جيم ؟ وهل أخبرته؟ ألهذا ذهبت ؟ »

ـ « كلا أيتها العزيزة .. لقد ذهبت لأرى الطفلة فقط .. »

فتأوهت شارلوت وهى تسند ظهرها على الوسائد ثانية وتناولت ديليا منديلها ومسحت الدموع التي كانت تسيل على خدى ابنة عمها ..

ـ « لا تبكى ياشاتى يجب أن تكونى شجاعة من أجل طفلتك وطفلتـه .. كيف تجرؤين على مثل هذا التفكير ؟ ولكن يجب أن تمنحينى بعض الوقت كى أتصرف بطريقتى الخاصة .. فقط ثقى بى .. »

وتحركت شفتا شارلوت فى ضعف .. « لا تجففى الدموع يا ديليا فانى أحب أن أشعر بها وهى تجرى .. »

واستمرت الاثنتان تستند كل منهما الى الاخرى دون أن تنطقا بكلمة بينما الساعة البرنزية تحسب عليهما لحظات امتزاج روحيهما وتقيسه بالدقائق وأرباع الساعة وأنصافها ثم بالساعات الكاملة حتى انصرم حبل النهار وأظلم وجهه واستطالت الظلال على صفحة السجاد المزخرف وفوق الفراش الابيض العريض ثم سمعتا طرقا على الباب ...

ـ « الاطفال فى انتظارك لصلاة المساء قبل تناول طعام العشاء أيتها السيدة ... »

ـ « نعم! ياليزا دعيهم يفولونها لك .. وانى قادمة بعد وقت . وبينما كان صوت وقع أقدام المربية يبتعد خلصت شارلوت لوفيل نفسها من أحضان ديليا وقالت : «الآن أستطيع أن أرحل!»

ـ « ألست فى الدرجة القصوى من الاعياء أيتها العزيزة ؟ هل ارسل فى طلب عربة لتنقلك الى المنزل ؟»

ـ « كلا ستنزعج أمى لو رأتنى هكذا .. ثم انى فى هذه اللحظة احب ان اسير على قدمى فى الظلام ففى بعض الأحايين كانت الدنيا تبدو فى عينى كأنها حريق واحد مخيف وجاءت أيام كنت اعتقد فيها ان الشمس لا تريد ان تغرب عن العالم ـ ثم يأتى القمر بالليل .. ووضعت يديها على كتفى ابنة عمها وقالت « أما الآن فقد تبدلت الاحوال وقبل مرور زمن طويل لن أبقى على كرهى للنور .. »

وقبلت كل منهما الأخرى وهمست ديليا قائلة : «الى غد»

كان أفراد أسرة رولستون لا يهجرون العادات القديمة الا على كره منهم ولكنهم بمجرد اعتيادهم عادة جديدة يصعب عليهم أن يدركوا لماذا لا يفعل الناس مثلهم فى الحال ...

فديليا التى تنتسب الى أسرة لوفيل غير المتزمتة وهي تميل بالطبيعة الى الأخذ بكل جديد - عند ما أشارت على زوجها لاول مرة بتناول الغداء فى الساعة السادسة بدلا من الثانية جمد وجهه الشاب الطرى وتعقد حتى صار يشبه فى جموده وقسوته وجه كبير الاسرة القديم فى عهد الاستعمار الاول كما يبدو فى احدى صوره . ولكنه بعد مقاومة استمرت يومين كاملين اقتنع برأى زوجته وهو الآن يبتسم فى احتقار لعناد أولئك الذين يتمسكون بعادة تناول أكلة ثقيلة فى وسط النهار مع شاى كامل .

هكذا صار زوج ديليا يقول : « لا أكره شيئا كما أكره ضيق العقل فليأكل الناس حين يريدون ... انى لا أمقت شيئا مثل ضيق العقل ؟

كانت ديليا تفكر فى هذا وهى تجلس فى غرفة الاستقبال (وكانت أمها تدعوها غرفة الضيوف) تنتظر عودة زوجها وكانت قد فرغت من تمشيط غرائرها اللامعة المصقولة وارتداء ثوبها الحريرى ذى الخطوط السوداء والبيضاء والمزين بخيوط حمراء، وكان هذا هو الثوب المفضل لديه ... أما غرفة الاستقبال ذات الستائر المصنوعة من نسيج « نوتنجهام » الرقيق المتدلى من اطارات كثيرة النقوش بارزة الزخرف مذهبة ، وذات المنضدة الرخامية المقامة وسط الغرفة على قاعدة من خشب الورد المنحوت ، وذات المقاعد الكبيرة المصنوعة من خشب الماهوجنى على الطراز القديم المغطاة بنسيج جديد من الدمقس الفرنسى ، لونه بين الخضرة والصفرة ، فكانت شيئا يمكن أن تفخر به أى زوجة شابة . وكانت قطع الاثاث من خشب الورد ذات الرفوف المتعددة عليها التحف والتماثيل موضوعة على جوانب الابواب المتحركة المؤدية الى غرفة الطعام ويزينها أنواع من الاصداف الاستوائية والأوانى الكبيرة من حجر الصوان المتبلور ، ومن بينها أنموذج من المرمر لبرج « بيزا » المائل، وزوج من المسلات من شظايا الحجر النارى والصخور المعدنية ، كان الزوجان الشابان قد جمعاها من الباحة الرومانية بروما . وهنالك تمثال نصفى ناصع البياض

للآلهة « كليتى » من خزف « سيفر » وأربعة تماثيل قديمة لفصول السنة مصنوعة من صلصال « شلسى » وقد تركت بين التحف الحديثة لانها من متعلقات والدة جدة رولستون . وعلى الحوائط تدلت رسوم كبيرة محفورة مصنوعة من المعدن غامقة اللون تمثل رسوم كول لرحلة الحياة وبين النافذتين قام تمثال العذراء الاسيرة بالحجم الطبيعى صنعته المثالة المشهورة هريت هوزمر لوالدجيم رولستون وخلده الكاتب هاوثورن فى قصته المسماة « اله الاحراج الرخامى » وعلى المائدة استقرت نسخ مجلدة تجليدا أنيقا لكتاب تيرنر المسمى « أنهار فرنسا » و « فاى المذنب » لدريك وقصص « كراب » وكتاب الجمال الذى يضم صورا للنبيلات الانجليزيات اللائى اشتركن فى مسابقة الجمال التى نظمها ايرل اجلنتن .

كانت ديليا تجلس فى مكانها هناك أمام نار صادرة من فحم صلب يحترق فى مدفأة ذات فتحة مقوسة من رخام أسود وبجوارها منضدة صغيرة من خشب الليمون وعلى المائدة الوسطى أحد المصابيح الفرنسية الجديدة يلقى ضوءا بهيجا من تحت مظلة حولها دلايات من خرز بللورى فأخذت تسائل نفسها كيف خرجت فى مثل هذه الفترة القصيرة وعلى هذه الصورة القاطعة على نطاق عداتها ومعتقداتها وبعدت أكثر من أى وقت مضى عن الأفق الذى تعيش فى حدوده أسرة رولستون .. وهاهى الدائرة تغلق حولها مرة أخرى كما لو كانت نقوش السقف المصنوعة من الملاط وقطع الاثاث المختلفة وشكل ثوبها قد صنعت كلها من ميول أسرة رولستون وما يتعصبون له من آراء ثم تحولت كلها الى صخر صلد بلمسة من يد هذه الاسرة

ظنت أن مسا من الجنون لابد أصابها اذ ارتبطت بالوعود الى هذا الحد مع شارلوت ولكنها مهما تجولت منقبة داخل المشكلة التى تضيق دائرتها حولها تدريجيا فلن تجد أى مخرج ، وعلى أى صورة من الصور أصبح فرضا عليها أن تنقذ طفلة كليم سبندر

طرق سمعها صوت فتح الباب (وما كان قلبها يدق بهذه القوة لمجرد سماعه) ثم صوت تعليق القبعة العالية على مشجب المنضدة المستديرة فى البهو . هل كان الصوت لقبعتين ؟ وفتح باب غرفة الجلوس ودخل شابان يلتحفان بأردية ثقيلة غالية الثمن وكانا صورتين مكررتين لجيم رولستون .. لم تلحظ ديليا قبل الآن قط مقدار الشبه بين زوجها وابن عمه « جو » ولقد جعلها هذا الادراك تشعر بأنها على حق اذا كانت دائما تنظر الى أفراد أسرة رولستون كمجموعة واحدة

ولا يمكن أن تكون زوجة صغيرة السن غضة الاهاب وسعيدة لو أنها لم تعتبر جو صورة غير متقنة من زوجها جيم ومع تسليمنا بوجود بعض العيوب فى الصورة فان التشابه يسترعى النظر بين القوامين الفارعين الرياضيين والوجهين القصيرين اللذين يكاد الدم ينبثق منهما وبين الانفين المستقيمين والسوالف المنتظمة والحواجب الافقية والعيون الزرقاء الصافية والابتسامة الحلوة التى تكشف عن حب الحياة . فقط كان جو فى اللحظة الراهنة يبدو صورة من جيم وهو يشكو ألما فى الاسنان

ابتسم جيم وقال فى ثقة الزوج المتمتع بطيب المأكل الذى يدرك أن فى استطاعته دائما اصطحاب صديق الى منزله : « أصغى الى أيتها العزيزة .. هاك شابا طلب أن يشكر لنا طعاما »

فقالت ديليا : « هذا ظريف منك ياجو !.. ولكن أتظن أن فى مقدوره الاكتفاء بحساء المحار وأوزة محشوة ؟»

ـ « كنت أعرف ذلك وهكذا أخبرتك ياصديقى العزيز ! لقد قال انك ستتبرمين بمقدمه وستقعين فى حيرة بسبب الطعام .. انتظر حتى تتزوج ياجوزيف رولستون » وانزل جيم كفا ودودا ضخما على كتف ابن عمه فعلت وجهه تقطيبة من ثقله كما لو كان قد شعر بألم فى أسنانه يخترم جسده ..

ـ « انها لنهاية الرقة منك يا ابنة العم ديليا ان تؤوينى هذا المساء .. الحقيقة هى ... »

فقال جيم : « أرجو أن تفكر فى الطعام أولا ياولدى ، وأن زجاجة من نبيذ برجاندى لكفيلة بأن تبعد الهموم الزرقاء . ضع ذراعك فى ذراع ابنة عمك وسأذهب الآن لأشرف على اعداد النبيذ .. »

حساء بالمحار وأوزة محشوة بالتفاح المحمر والفلفل الاخضر ! وبعد هذا تأتى حلوى السكر المحروق المطبوخ مع اللبن والبيض وهى صنف الطعام الذى اشتهرت به الجدة رولستون . ومع كل آلامها الثقيلة كانت ديليا تشعر بشىء من الفخر لذلك .. حقا ان مثل هذا العمل يؤكد الاشاعة بأن فى مقدور جيم رولستون دائما أن يحضر للعشاء فى بيته صديقا دون سابق انذار .. ولقد استطاعت أنبذة أسرتى رولستون ولوفيل ان تتمم النشوة .. فحتى وجه جو كان قد رق وانحلت عقدته بعد أن تناول كمية من نبيذ مادييرا المخزون فى أقبية أسرة لوفيل . ولقد أحست ديليا بالتغيير عندما تبعها الشابان الى غرفة الجلوس .

قال جيم بعد أن اقترب بكرسيه من ابن عمه : « والآن

أيها العزيز . يجدر بك أن تخبرها بالقصة كلها ..»

وانحنت المرأة الشابة فوق أشغال الصوف وأصغت وقد تدلى جفناها وتورد خداها ، بينما كان جو يرجو أن تغفر له كزوجة وكأم اقدامه على الحديث معها فى صراحة : لقد خوله زوجها الحق فى أن يفعل ذلك ..

صاح جيم من مكانه فوق السجاد الوثير بجوار المدفأة فى ضجة ونشاط غامر بعد الغداء : « تكلم .. تكلم » .

أما ديليا فقد أصاخت السمع وفكرت فيما سمعت وتركت العريس يبسط موضوعه فى مشقة بينما استقرت ابرتها معاقة فوق رقعة القماش التى تشتغل فيها مثل سيف ديموقليس وادركت فى الحال أن جو يعلق أملا كبيرا عليها فى محاولة اقناع شارلوت بوجهة نظره بيد انه كان غارقا فى حبه بحيث كانت كلمة واحدة من ديليا كفيلة بجعله يرضخ فتنقلب وجهة نظر شارلوت وتتزوجه وفى نفس الوقت تنقذ الطفلة ..

يا له من أمر سهل بالرغم من كل ذلك ! استقبال حسن وطعام جيد وشراب معتق ثم ذكرى العيون عيون شارلوت التى لا يدرك تأثيرها الا من جرح بلحظها . وأحست الزوجة بحسد خفى يعتصر قلبها لانها حرمت من هذه الميزة الاخيرة

يا له من أمر سهل - ومع ذلك يجب الا يقع .. ! فمهما حدث فلن تسمح لشارلوت لو فيل بأن تتزوج جو رولستون ، كل تقاليد الشرف والاستقامة التى تربت فى ظلها تمنعها من أن تغض الطرف عن مثل هذا التدبير .. كان فى استطاعتها أن تتخذ - اذا لم تكن قد اتخذت فعلا - اجراءات تعسفية ، وتتحدى الالوف دون تردد وتشعل ثورات خفية على قسوة النظام الاجتماعى ولكنها لا يمكن أن تتساهل فى أمر هذه الاكذوبة .. ان فكرة زواج شارلوت من جو رولستون - ابن عم زوجها - دون أن تكشف له عن ماضيها ، بدت لعينى ديليا عملا شائنا ، كما لابد ان تبدو هكذا لعينى أى فرد من اسرة رولستون . واذا هى أخبرته بالحقيقة فانها تحول دون الزواج . وحتى شاتى نفسها كانت مدركة لهذه الحقيقة ، فالرجال والنساء لا يستوون فى مجال التسامح الاجتماعى ، ولم يخطر فى بال احداهما أن تسأل عن السبب فى هذا التفريق ، فانهما كشابات هذه الطبقة ليس فى مقدورهما سوى الخضوع لما لا مناص منه .

لا .. لم يكن ثمة خلاص من هذه المشكلة ، فاذا كان واجبا

على ديليا ان تنقذ طفـــل كليم سبندر ، فقد كان من المقدر عليها أن تضحى بعشيقته ، وعنـــدما ألحت عليها الفكرة تذكرت صرخة شارلوت الحزينة : « أريد أن أتزوج مثلكم .. » وانقبض قلبها ومع ذلك فهذا لن يكون

استمر جو فى حديثه يقول : « اننى مقـدر تماما بسـاطة حسنائى وسذاجتها ، ونقاء سريرتها .. كيف يمكن للمـرء أن يتمنى ان تكون زوجته على خلاف ذلك ؟ انت معى ياجيم فى هـذا وأنت يا ديليـــا ؟ لقد قلت لها ان فى استطاعتها أن تحصـــل على مبلغ معين يرصد لصـالح الاطفال المساكين ـ هذا بالاضافة الى المبلغ المعين لشئونها الخاصة وفى مقدورها أن تعتمد على فى هذا كل الاعتماد .. يا الهى ! انى على استعداد لان أكتب عهدا بذلك أمام أحد المحامين لو طلت الى .. ! اننى معجب بكرمها ومقدر اياه ولكننى أطلب منـك يا ديليا كأم أن تصارحينى برأيك الآن . . هـــل تعتقـــدين ان فى مقدورى أن أوضح رأيى فى هـــذه المسألة بأكثر من ذلك : اننى أســتطيع ان اتركها تستمر فى العناية بهؤلاء الاطفال الى أن .. الى أن » وتلون وجه الوالد العظيم بحمـرة الفخر : « الى ان تستدعيها واجبات أهم .. قطعا انى على اتم الاستعداد .. ليتك تخبرينها » وظل يغلى وهو تحت تأثير كأسه الاخير : « وانى اتعهـد بتسوية الامور مع والدتى التى لها آراء ثابتـة أحترمها ، الا أننى لا أستطيع أن أسمح لها ـ بأن تحول بينى وبين معتقداتى ..! »

ونهض واقفـــا ينظـــر الى صورته فى المرآة وقد بدت عليه الشجاعة وهو يردد : «معتقداتى»

وصاح جيم فى انفعال عاطفى : « مرحى .. ! مرحى .. ! »

وغرزت ديليا ابرتها فى رقعة الاشغال أمامها ثم أزاحتها جانبا!

وقالت : « أظن أننى أفهمكما أنتما الاثنين ياجو .. لو كنت فى موقف شارلوت لما نزلت عن أولئك الاطفال قط »

فقال جيم بلهجة المنتصر : « اليك الرأى الصواب ياصديقى العزيز » .. وكان فخورا بطعامها المتقن .

قالت ديليا : « لن أنزل عن هذا الامر على الاطلاق ، أقصد أمر اللقطاء ، فان أولئك الاطفال معرضون دائما للموت اذا أرسلوا الى الملاجىء .. وهـــذا مايقض مضجع شاتى » .. فقال جو :

« يا لهم من ابرياء مساكين ! انى لاحبها لانها تحبهم ! كيف يترك على الارض مثـل أولئـك الاوغاد السـفلة دون ان ينالوا

قصاصهم . ديليا .. ! أرجو منك أن تخبريها بأننى سأفعل كل ما .... »

فقال جيم منبها اياه وقد سرت فى كلامه نزعة الحذر الاصيلة فى أسرة رولستون : « مهلا أيها الرجل مهلا »

ـ « أريد أن أقول اننى سأفعل كل ما هو معقول »

رفعت ديليا يدا آمرة وقالت: « سأخبرها ياجو ولا بد أن تقدر جميلك كل التقدير ولكن لا فائدة من كل هذا » .

ـ « لا فائدة ؟ ما الذى يجب أن أفعله أكثر من ذلك ؟ »

ـ « ايس هناك أكثر ما عدا هذا الذى سأقول : لقد عاود شارلوت مرضها القديم ، لقد سعلت هنا اليوم وكان سعالها مصحوبا بالدم .. يجب الاتتزوج »

ووقفت وكل جزء من جسمها يرتعش وشعرت بأن الدم قد جمد فى عروقها .. هل كان تصرفها صحيحا ؟ هل أخطأت؟ ومن ذا الذى يبصرها ؟

وأطل عليها جو بوجه ممتقع كوجهها. كان يقبض بشدة على ظهر مقعده ورأسه منحنى الى الامام كرأس شيخ هرم وتحركت شفتاه ولكنهما لم تخرجا صوتا

قال جيم متلعثما : « يا الهى . . ! يجب أن تتشجع أيها الرجل » .. فقالت ديليا :

« انى .. انى آسفة من أجلك يا جو .. ستخبرك بنفسها غدا » وتعثرت شفتا ديليا بهذه الكلمات بينما استمر زوجها يقدم له تعازيه الصادقة ..!

ـ « يجب أن نتلقى هذه الصدمة كرجل ياصديقى .. فكر فى نفسك .. فى مستقبلك . لايمكن أن يكون زواج بينكما أليس كذلك؟ ان ديليا على حق .. انها دائما على حق .. يجب أن تتغلب على هذه الصدمة ـ والافضل ان تجابه الصعاب الآن رهذا خير من أن تجابهها مستقبلا »

« الان خير من أن تجابهها مستقبلا » أعاد جو هذه الكلمات وهو يبتسم ابتسامة مغتصبة ، وتذكرت ديليا انه لم يحدث قط طول عمره السهل الرضى أن اضطر الى النزول عن شىء تعلق به قلبه .

ثم قال وقد ذرفت عيناه دمعة صبيانية : «ولكننى لاافهم

.. اننى لا أستطيع النزول عنها .. »

فقال جيم : « فكر في الاطفال ياصديقى العزيز انه واجبك » وكبت نظرة فخر سريعة الى ديليا تنم عن اعجابه بجمالها وامتلائها بالصحة .

وفى الحديث الطويل الذى كان بعد ذلك بين ولدى العم .. من ابداء وجهات النظر والرد عليها واسداء النصح المفيد ، والرفض القاطع — لم تشترك ديليا الا بمقدار بسيط عارض فقد كانت تعرف جيدا النتيجة المحتومة فالعريس الذى خشى أن تجلب العروس العدوى الى بيته بترددها على مأوى الاطفال المساكين لا يمكن أن يلقى بذور المرض فى ذريته ، ولم يكن هذا كل شىء ، فهنالك حالات لا يدركها الحصر لامهات ودعوا الحياة قبل الاوان تاركين لازواجهن قطيعا من الصغار يتولون تربيته ولا بد أن تكون صورة لذلك كله تلح بقوة على ذاكرة جو ، فهنالك آل رولستون ولوفيل ولانسج رارستد وفاندرليدن : أى أسرة من هذه ليس لها قبر تحج اليه فى مكان ناء؟ قبور للشباب الذين ذوت أعوادهم تدريجيا ، فأرسلوا الى خارج البلاد للاستشفاء فى ايطاليا مصحة المرضى ؟ ان مقابر البروتستانت فى روما وبيزا مليئة باسماء كثيرة لأناس قدموا من نيويورك وان شبحا لتلك الرحلة المقدسة المألوفة فى صحبة زوجة على شفا الموت لكفيل بأن يجعل الدم يجمد فى عروق أقوى فرد فى أسرة رولستون .. وطيلة الوقت كانت ديليا تصغى خافضة الرأس الى ما يدور حولها من أحاديث ولم تكف عن سؤال نفسها : « هذا أمر هين ولكن كيف السبيل الى اخبار شارلوت .. ؟ »

وعندما ضغط جو المسكين يدها مودعا فى ساعة متأخرة من تلك الليلة استدعته البهافجأة بعد خروجه وقالت له : « أرجو أن تتركنى أراها اولا وأن تنتظر الى أن ترسل هى فى طلبك » ثم امتدحت سرعة موافقته على هذا الطلب بيد أنه ما من عدد من عبارات التشجيع منها كانت بلاغتها بقادرة على تخفيف وقع المصيبة التى ينتظرها جو ، ولذا كانت نظرتها الاخيرة اليه تنم عن المشاركة والعطف .

وأغلقت الباب الخارجى على جو وايقظتها فى مكانها لمسة خفيفة من زوجها على كتفها :

ـ « ماكنت قط تستحقين الاعجاب أكثر من الآن أيتها العزيزة يا ديليا الحكيمة ! »

وثنت رأسها الى الخلف وهى تتلقى قبلته ثم ابتعدت . . لقد ادركت ان البريق الخاطف فى عينيه كان اعترافا بجمالها كما كان اعجابا بحصافتها . .

وابعدته قائلة : « ماذا كنت تفعل يا جيم لو قلت لك عن نفسى ما قلته الآن لجو عن شاتى ؟ »

ودل تقطيب خفيف على رجهه أنه يعتبر السؤال تافها ولا يتفق مع ذوقها المعهود وقال : « هيا بنا » وامتدت اليها ذراعه القوية .

وظلت فى مكانها بعيدة عنه ،وفى عينيها حزن عميق وقالت : « ان شاتى لمسكينة ! فلم يبق لها شىء بعد الآن . . »

وامتلأت عيناه فجأة بالحزن مشاركة لها فى آلامها ففى مثل هذه اللحظات يعود الغلام العاطفى الذى هو رهن اشارتها !

ـ «حقا أنها لمسكينة!» وأخذ يتحسس فى حذر أقرب رسيلة للتخفيف ، وقال : « لحسن الحظ أن بقى الآن لها هؤلاء الاطفال أليس كذلك ؟ انى اعتقد ان كل امرأة يجب أن يكون لديها أطفال لتحبهم ـ أطفال أى شخص آخر اذا لم تكن قد انجبت» وكان من الواضح أن العلاج الذى اقترحه قد خفف ما يحس به من ألم . .

قالت ديليا : وهى تبدى موافقتها : « أجل لا ارى وسيلة أخرى يمكن أن تريحها . . انى متأكدة بأن جو لديه نفس الشعور . . بينى وبينك أيها العزيز »ـ و هنا أعطته يديها ـ « بينى وبينك يجب أن نعمل على أن نحتفظ بأطفالها » . .

« أطفالها ؟ » وابتسم لضمير الملكية فى كلمة أطفالها وقال : « طبعا يالها من فتاة مسكينة !هذا طبعا اذا لم يرسلوها الى ايطاليا ؟ »

ـ « ان هذا لن يحدث ـ من أين لها المال ؟ وهى لن تترك العمة لوفيل ، ولكننى أحب أن أعرف ياعزيزى هل من الممكن أن أخبرها ـ ولست كما ترى متحمسة لحديث الغد معها ـ هل أستطيع أن أخبرها بأنك سوف تسمح لى أن أعتنى بالطفل الذى يقلقها أمره أكثر من أى طفل آخر ، وهى لقيطة مسكينة لااسم

لهـا ولا بيت ـ فـلو أمـكن أن أقتصد مبلغا ثابتا من مصروفى الخاص .. »

وتشـابكت أيديهمـا سويا ورفعت اليه وجهـا متـوردا وامتلأت عيناه بدموع الشهامة ، آه ! انه ليتفيأ ظلال صـحتها وحكمتها وكرمها ! قال :

« ولامليماواحدا من مصروفك مطلقا ! »

وتظاهرت بالهزيمة والعجب، وقالت : « فكر أيها العزيز فقد يكفى مصروفى الخاص »

ـ « أقول ولا مليما واحدا من مصروفك ـ ولكن خذى ماتحتاجين اليه لمسـاعدة طفلة شـانى المسكينة من الآن ـ هـل هـذا يرضيك ؟ »

ـ « ياأعز الناس الى ! عندما نفكر فى أطفالنا النائمين فى الدور العلوى ! » وتشابكت أيديهماوقد روعهما ذلك الخاطر .

رفعت شارلوت لوفيل عن الوسادة وجها محموما عندما سمعت وقع أقدام ابنة عمها .

وفاحت من المخدع المظلم المغلق رائحة الكولونيا والثياب المغسولة ، وعشيت عينا ديليا القادمة من شمس الشتاء اللامعة ولذا كان عليها أن تتحسس طريقها خلال ضوء ضعيف زاد من ظلمته لون الاثاث المصنوع من خشب الماهوجنى الغامق اللون

ـ « أريد أن أرى وجهك ياشاتى الا اذا كانت رأسك تؤلمك كثيرا؟»

فأشارت شارلوت بيدها علامة النفى وأزاحت ديليا عن النافذة الستائر الثقيلة فدخل شعاع من النور رأت عليه رأس الفتاة وقد بدا باهت اللون فوق الفراش الابيض ، وظهرت الدوائر الحمراء مرة أخرى تحت الجفون المظللة فتذكرت ان ابنة عمها فلانة المسكينة بدت هكذا تماما فى الاسبوع السابق لابحارها الى ايطاليا ..!

وهمست شارلوت .. «ديليا»

واقتربت ديليا من الفراش ووقفت تتطلع الى ابنة عمها بعينين جديدتين .. أجل لقد كان من السهل عليها فى الليلة السابقة أن تتصرف فى مستقبل شاتى كما لو كان مستقبلها هى ولكن ما العمل الآن ؟ قالت :

« ياعزيزتى » :

فقاطعتها الفتاة قائلة : « أرجو أن تبدئى الكلام فى الحال ، هل ما تحملينه يبعث الرعب الشديد لى النفس ! »

ـ « شاتى ياأعز الناس ! هل أنا وعدتك بأكثر مما يجب »؟

فقالت شارلوت : « جيم لن يسمح لك بأن تأخذى طفلتى؟ لقد عرفت ذلك ! هل قدر لى أن أحلم دائما بأشياء لايمكن أن تتحقق؟»

ركعت ديليا بجوار الفراش والدموع تجرى على وجهها ، ووضعت يدها الريانة فى القبضة الملتهبة للمرأة الاخرى .

ثم قالت : « لاتفكرى فى ذلك أيتها العزيزة فكرى فقط فى أفضل ما يعود عليك بالخير ... »

ـ « أفضل ما يعود على بالخير ! » ورفعت الفتاة نفسها على الوسائد وتنبهت جميع مشاعرها .

واستمرت ديليا تقول «ليس في مقدورك أن تتزوجي جو يا عـــزيزتي ، وفي نفس الوقت تحتفظين بتينا الصغيرة.. أليس كذلك ؟ »

فقالت شالوت « لن أحتفظ بها معي كلا ، ولكن في مكان قريب مني حيث أستطيع أن أسارع الى رؤيتها ! كم أملت في مثل هذه الحماقات ! »

ـ « اتركي الحماقات جانبا ياشارلوت .. أين تحتفظين بها ؟ وهل تذهبين لرؤية طفلتـك في الخفاء وأنت دائما في رعب من الفضيحة ؟وفي خوف من الاساءة لاطفالك الآخرين ؟ ألم تفكري في ذلك أبدا ؟ »

ـ « ان رأسي المسكين يرفض التفكير ! أنت تحاولين نصحي بأنني يجب أن أنزل عنها ؟»

ـ « كلا ايتها العزيزة ولكنني أحاول نصحك بالا تتزوجي جو»

وغاصت شـارلوت الى الخلف في الوسادة وقد أغمضت عينيها قليلا ، وقـالت : « أقـول لك يجب أن أنشيء لطفلتي بيتا! انت موفقة ياديليا في حيـاتك فلن تفهمني ماأعنيه !»

قالت ديليا :

« يجدر بك أن تعتبري نفسك موفقة كذلك يا شـاتي اذ لن تضطري الى النزول عن طفلتك. سوف تعيش معـــك ، وسوف تشرفين على تربيتها بنفســك ـ لاجلي ولأجلك ؟»

واستمرت تقول : «لقد وعدتك بأنني سوف آخذها .. أليس كذلك؟ ولكنني لم أعدك بأن تتزوجي جو ، وعدتك فقط بأن أقيم بيتا لطفلتك والآن لقد تم ذلك وانتما الاثنين ستظلان ســـويا دائما .. »

وتشبثت شارلوت بها وانخرطت في البكاء قائلة« ولكن جو لا أستطيع أن أخبره لاأستطيع!» ثم أزاحت ديليا عنها فجأة وقالت « ألم تخـــبريه عن طفلتي ؟ لا أتحمل أن أسيء اليه الى هـذا الحد .. »

فقالت ديليا : « قلت له انك سبعلت دما أمس ، وسيأتي لرؤيتك حالا .انه مبتئس للغاية .. لقد جعلته يفهم انه بسبب صحتـــك السيئة تعتبر الخطوبة ملغاة برغبتك وهو يقبـل قرارك ، ولـكن اذا ضعف هو أو اذا ضعفت أنت فلن أستطيع أن أفعل شيئا لك أو لتينا

الصغيرة • بحق السماء تذكرى ذلك ! »

تراخت قبضتا ديليا ،واضطجعت شارلوت الى الخلف لاتنبس بكلمة ، وقد أغمضت عينيها وزمت شفتيها وبقيت فى مكانها كالحطام • وقد وضع على كرسى بالقرب من فراشها ذلك الثوب الحريرى ذو الشرائط الحمراء الذى أعد للاحتفال بخطوبتها ومن تحته أطل زوج جديد من الاحذية الخفيفة من الجلد البرونزى اللامع ••• يالشاتى المسكينة ! لم تكد تحين الفرصة كى تبدو جميلة حتى••

جلست ديليا بجوار الفراش لاتبدى حراكا، وعيناها لاتفارقان وجه ابنة عمها الحزين وأخذتا تتبعان دمعة اقتحمت طريقا من بين جفنى شارلوت المضمومين، واستقرت معلقة على الاهداب ، ثم تلألأت فى بطء وهى تسيل على خديها وعندما وصلت الدمعة الى الشفتين المغلقتين تكلمتا •

ـ هل سنعيش سويا فى مكان ما ؟ أهذا ماتقصدين ؟ هى وأنا دون أحد غيرنا ؟ »

ـ « أنت وهى فقط »

ـ « فى بيت صغير ؟»

« فى بيت صغير »

ـ « هل انت واثقة يا ديليا؟»

ـ » واثقة أيتها العزيزة »

مرة ثانية رفعت شارلوت نفسها على مرفقها وأرسلت يدا تبحث فى حذر تحت الوسادة وأخرجت شريطا صغيرا تعلق به خاتم ماسى • وقالت فى بساطة :

« لقد خلعته من أصبعى قبل مجيئك » وناولته لديليا ••

- ٦ -

لقد كان فى وسعك أن تقول - ولا بد أن تحظى بموافقة كل انسان - أن شارلوت لوفيل خلقت لتعيش عانسا .. حتى قبل مرضها . وقد كان واضحا لكل ذى عينين أن فيها شيئا يمت للتزمت بصلة بالرغم من شعرها الاحمر .. ولحسن حظ هذه الفتاة المسكينة وبالنظر الى صحتها المتردية فى شبابها ظل المعاصرون للسيدة زوجة جيمس رولستون مثلا يتذكرون شارلوت كشبح ليس غير ، بسعل فيقذف بمحتويات صدره الى الخارج .. وذلك طبعا هو السبب الذى من أجله فسخت خطبتها من جو رولستون .

حقا انها استعادت صحتها بسرعة كبيرة بالرغم من العلاج الخاص الذى اتبع معها ، فان أسرة لوفيل كما عرف كل انسان لم تستطع أن ترسلها الى ايطاليا و تنفق على علاجها هناك . كما لم تنجح التجربة السابقة فى ولاية جورجيا .. وعلى ذلك فقد حملت الى منزل ريفى واقع على نهر الهدسون وهو كان صغير يقع وسط أراضى جيمس رولستون حيث عاشت مدة خمس أو ست سنوات فى صحبة خادمة ايرلندية وطفلة لقيطه .. وكانت قصة اللقيطة فصلا آخر عجيبا فى تاريخ حياة شارلوت ومنذ الفترة التى مرضت فيها أول مرة عندما كانت لاتتعدى اثنتين وعشرين سنة أو ثلاثا وعشرين ظهر عليها ميل شديد للاطفال يصل الى حد الهوس بهم وخاصة أطفال الفقراء .. ولقد قيل ، وشاع أن الدكتور لانسكل قال ان غريزة الامومة المعطلة تكون متيقظة بصفة خاصة فى الحالات التى يحول فيها مرض الانسان الزواج .. وعلى ذلك عندما تقرر أن تلغى شاتى خطوبتها من جو رولستون وتذهب الى الريف لتعيش فيه أخبر الطبيب أسرتها بأن الامل الوحيد فى انقاذ حياتها ليس هو فى عدم الفصل بينها وبين أطفالها الفقراء فصلا تاما بل فى تركها تختار واحدا منهم وليكن أصغرهم وأشدهم حاجة الى العطف وتكرس نفسها للعناية به .. وعلى ذلك أعارتها أسرة جيمس رولستون منزلها الريفى الصغير كما رتبت السيدة زوجة جيم كل شىء فى الحال بما جبلت عليه من موهبة فائقة فى ادراك الامور بلمحة سريعة ولقد صنعت اكثر من

ذلك فتعهدت بأن تعتنى بالطفلة فى حالة وفاة شارلوت

ولم تمت شارلوت بل عاشت لتقوى وتسير الى منتصف العمر نشطة بل مستبدة ، وبينما كانت شخصيتها فى سبيل التحول والتبدل ازدادت شيئا فشيئا شبها بالعانس المثالية ، مدققة ومنظمة ، ومنهمكة فى التوافه من الامور ، تهتم برعاية الشؤون الاجتماعية والعائلية وتقدسها .. كانت سمعتها كمدبرة منزل ممتازة ومن الذيوع بحيث أنه عندما فقد جيم رولستون المسكين حياته بعد سقوطه من فوق حصانه ، تاركا خلفه ديليا شقيقته ومعها ولدوبنت تقوم على تربيتهما كان من الطبيعى تماما للأرملة المنكوبة أن تدعو ابنة عمها الى العيش معها ومشاركتها واجباتها ولكن ديليا رولستون ما كانت لتقوم بشىء كما يقوم به الآخرون فانها عندما أخذت شارلوت الى بيتها أخذت معها لقيطتها كذلك وهى طفلة سوداء الشعر لها عينان عسليتان ولها اسلوب حسم مرهق شاذ كأسلوب الاطفال الذين عاشوا أكثر مما يجب مع من هم أكبر سنا .. وكانت الطفلة الصغيرة تسمى تينا لوفيل وكان مفهوما بطريقة غير واضحة تماما أن شارلوت قد تبنتها .. وترعرعت الطفلة فى جو من العطف والحنان وتساوت فى ذلك مع اولاد قريبتها ، ويمكن أن يقال انها ظفرت بالمساواة ايضا فى ... حب المرأتين لها ، وهما اللتان كفلتاها ، ولكونها مسوقة بدافع للتقليد غريزى لم يهتم أى انسان بتصحيحه فانها درجت على أن تدعو ديليا رولستون « ماما » وشارلوت لوفيل «خالتى شاتى» .. كانت مخلوقة ذكية جذابه ، وتعجب الناس لتوفيق شاتى المسكينة فى اختيارها هذه الطفلة من بين جميع لقطائها فقد كان معروفا عنها من قبل أن لديها ملجأ كاملا من الاطفال اللقطاء تختار منهم .

***

لقد أخذ سيلرتون جاكسون الأعزب المتقدم السن ذو الصفات الممتازة الذى عاد بعد اقامة طويلة فى باريس (حيث عرف عنه كثرة الاختلاط بأفراد الطبقة الراقية) .. أخذ كثيرا بسحر تينا وجاذبيتها عندما رآها فى اول حفل راقص اقيم احتفالا بدخولها المجتمع . فاستأذن ديليا فى الحضور ذات مساء وتناول العشاء معها ومع الصغار وعندما حضر هنأ الأرملة على الجمال المشرق الذى تتمتع به ابنتها الصغيرة ، بيد أن عين الام المتيقظة لاحظت أنه كان يرمق تينا طوال الوقت . وبعد العشاء أسر الى السيدتين الكبيرتين بأن هناك طابعا فرنسيا أصيلا فى الاسلوب

الذى تتبعه الفتاة فى تصفيف شعرها . وانها قد تعتبر فى عاصمة الاناقة فى غاية الامتياز والاخذ بأصول التجديد .

فابتسمت ديليا سرورا ، بينما كانت شارلوت لوفيل تحدث منحنية فوق شغلها ضامة شفتيها ، ولكن تينا التى كانت تمرح مع أولاد قريبتها فى الطرف الآخر من الغرفة التفت اليهما فى سرعة عظيمة . . وقالت :

« لقد سمعت ما قاله السيد سيلرتون ! أجل يا أمى يقول اننى أرتب شعرى بطريقة حديثة . ألم أخبرك بذلك على الدوام ؟ أعرف أنه يبدو جميلا لو تركته مجعدا على طبيعته أكثر مما لو بسطته وثبته بالادهان كما تفعل الخالة »

فقالت الآنسة لوفيل محتجة : « تينا .. تينا .. انك دائما تظنين ان الناس معجبون بك ! » فقالت تينا وهى تضحك فى تحد :

« ولماذا لا أفعل اذا كانوا كذلك ؟ » وفى نفس الوقت ادارت عينيها الساخرتين وقالت لسيارتون جاكسون أرجوك ان تطلب من الخالة لوفيل الالتزام بأسلوب العوانس الى هذا الحد المخيف ! »

ورأت ديليا الدم يصعد الى وجه شارلوت لوفيل ولم يعد يصبغ دائرتين ورديتين على خديها النحيلين ولكنه أغرق وجهها كله بفيض قوى من الدم ابتداء من رقبتها حتى شعرها الذى اختلط فيه اللونان الابيض والاسود كما يختلط الفلفل والملح ولم يعد فيه أثر للون الاحمر ، ثم انحسر الدم أسفل وغطى صدغيها الخاويين .

وفى ذلك المساء عندما أوين الى فراشهن دعت ديليا تينا الى غرفتها ، وقالت :

« ينبغى يا عزيزتى ألا تتحدثى الى خالتك شارلوت بالطريقة التى تحدثت بها هذا المساء .. انها طريقة مهينة ، يجب أن تعرفى أنها تؤلمها »

وفاضت الفتاة فى اظهار أسفها قائلة : « .. انى آسفه جدا . ألا أننى قلت انها عانس ؟ ولكنها هكذا أليس كذلك يا أمى ؟ أقصد أنها فى أعماق نفسها لم تحس مرة بالشباب ولا فكرت فى أن تلهو أو تعجب بشخص أو أن تقع فى حب . أليس كذلك ؟ هذا هو السبب فى أنها لا تفهمنى قط بينما أنت على عكسها تماما أنت يا أمى الحبيبة » .. وبحركة من حركاتها الرشيقة ارتمت بين ذراعى الارملة .. فانبتها ديليا بكل رقة وهى تقول :

« انت طفلة ! طفلة » ثم قبلت الخصلات الفاحمة فى مواضع خمسة من جبهة لفتاة .

ومن الممر جاء صوت ضعيف لوقع أقدام ثم ظهرت شارلوت عند الباب ، ودون أن تتحرك نظرت اليها ديليا نظرة تنم عن الترحيب بها من فوق كتف تينا .

وقالت :

« أدخلى يا شارلوت انى أؤنب تينا لتصرفها كطفلة مدللة امام سيلرتون جاكسون . . ماذا يظن بها ؟ »

فأجابت شارلوت وعلى فمها ابتسامة باردة : «ماتستحقه تماما»

وسارت تينا نحوها فقبلتها شارلوت فى نفس المكان الذى انطبعت عليه قبلة ديليا الحارة وقالت بصوتها الجاف وهى تصرفها الى غرفتها « مساء الخير أيتها العزيزة »

وأغلق الباب على المرأتين وأشارت ديليا الى شارلوت كى تجلس فى المقعد المواجه لمقعدها . . . فقالت الآنسة لوفيل :

« ليس بقرب النار هكذا » ، واختارت مقعدا له ظهر معتدل وجلست فيه ، وقد طوت يديها على صدرها . ووقعت عينا ديليا دون قصد على الاصابع النحيلة الخالية من الخواتم وتساءلت مندهشة: لماذا لا تلبس شارلوت حلى اطلاقا .

قالت شارلوت :

« سمعت عرضا ما كنت تقولينه لتينا ياديليا : كنت تؤنبينها لانها دعتنى بالعانس . »

وجاء دور ديليا ليحمر وجهها خجلا وقالت « لقد أنبتها لانها لم تراع كرامة الآخرين فلو سمعت ما قلته لها لما ظننت اننى أقسو عليها »

ـ انت لا تقسين عليها ! ما اعتقدت قط انك قاسية مع تينا أنت على العكس . . »

ـ هل تعتقدين بأننى أدللها؟

ـ فى بعض الاحايين

وأحست ديليا بحنق لاتعرف سببه وقالت « ما الذى قلته ولا توافقين عليه ؟ »

وردت اليها شارلوت النظرة بنظرة مثلها وقالت «أفضل أن تعتقد اننى عانس . . »

فغمغمت ديليا .. وبلمحة من لمحات ذكائها الملهم تسللت الى خبايا نفس شارلوت فادركت مرة أخرى وحدتها المميتة . .

وتابعت شارلوت حديثها بارادة لاتهن « واى شيء آخر يمكن لها ان تعتقد فى ؟»

قالت الارملة متعثرة « حقا .. حقا .. »

وهمت شارلوت لوفيل واقفة وهى تقول فى اصرار « اما ان أكون عانسا صيقة العقل تبعث على الهزؤ والسخرية ـ ولا شيء خلاف ذلك ـ أو أنى لن آمن على نفسى معها .»

قالت ديليا فى عطف . « مساء الخير ياعزيزتى ...» وهنالك لحظات كادت فيها ان تكره شارلوت لانها ام تينا ولحظات أخرى كهذه عندما كان قلبها يعتصره الالم للمظهر الفاجع لهذه الصلة غير المعلنة بين الام وابنتها .

وبدا على شارلوت أنها أدركت ما يدور فى خلدها فغمغمت تقول وهى فى طريقها الى الخارج : « ولكن لا تشفقى على ! انها ابنتى »

فى بعض الاوقات كانت ديليا رولستون تشعر بان الحوادث الحقيقية فى حياتها لم تبدأ الا بعد أن أنشأ طفلاها الاثنان - فى أمان وطمأنينة - علاقاتهما الزوجية الناجحة فى نيويورك ، فتزوج الولد أولا من فتاة من عائلة فاندرجريف ودخل مع ابيها فى مصرفه فى « ألبانى » شريكا بنصيب صغير . أما ديليا الصغيرة (كما تنبأت لها امها) فقد اختارت جون جونيوس وهو أعقل شباب أسرة هالسى وأضمنهم مستقبلا وتبعته الى منزل والديه فى العام التالى لزواج أخيها .

وبعد ان تركت ديليا الصغيرة المنزل فى جرامرسى بارك لم تجد بينا مناصا من ان تحتل الواجهة الوسطى من الطابق الصيفى ، وكانت قد بلغت سن الزواج يحيط بها الاعجاب من كل جانب ، ولكن اى أمل كان لها فى أن تجد زوجا ؟ ولم تذكر المرأتان المترقبتان هذا السؤال فى حديثهما صراحة ولكن ديليا رولستون وقد طوت نفسها عليه يوما بعد يوم وحملته معها كلما أوت الى مخدعها بالليل أدركت أن شارلوت لوفيل فى نفس اللحظة قد حملت نفس المشكلة معها الى الطابق العلوى ..

واثناء ثمانى السنوات التى أمضيتاها من حياتهما سويا لم تختلف المرأتان فى شىء الا نادرا . حقا كان من الممكن أن يقال أن علاقتهما خلت من الصراحة وكانت ديليا تفضل أن تكون علاقتهما على غير ذلك بعد ان تعمقت كل منهما فى الاطلاع على سريرة لاخرى وصار من غير الطبيعى أن يسدل حجاب بينهما . ولكنها فهمت ان جهل « تينا » بمولدها يجب أن يظل كما هو مهما كانت الظروف ، بينما كانت « شارلوت لوفيل » متحفظة لاتفصح عما يجول فى نفسها والتمست النجاة بطريقة لاتعرف لها بديلا وهى ان تلوذ بأذيال الصمت الدائم .

وحتى هذه اللحظة كانت شارلوت قد فرضت على نفسها صمتا اختياريا ولذا فقد دهشت السيدة رولستون عندما طلبت منها فجأة عقب زواج ديليا الصغيرة السماح لها بالانتقال الى المخدع الصغير المجاور لمخدع تينا وكان قد ترك فارغا عقب رحيل العروس .

فقالت لها ديليا :

« ولكنك لن تجدى الراحة الكاملة هنالك ياشاتى . هل

فكرت فى ذلك ؟ أو أن السلم يتعبك ؟ »

فأجابت : «كلا ليس السلم هو السبب» . . وكيف يمكن لها ان تستغل لمصلحتها ذلك الاسم الذى تطوعت ديليا بتقديمه اليها بينما تعرف ديليا أنها ما زالت تقطع درجات السلم صعودا ونزولا كما تفعل الفتاة الصغيرة ؟ . »واستمرت شارلوت تقول فى صوت منخفض كان له صرير كوتر غير منغم : «وهذا لانه ينبغى لى ان اكون قريبة من تينا »

ـ « حسن جدا . كما تودين »ولم تدر السيدة رولستون السبب فى أنها شعرت بضيق مفاجىء لهذا الطلب الا اذا كان السبب هو أنها كانت تمنى النفس بتأثيث الغرفة الخالية وجعلها غرفة جلوس لتينا .. وكان فى عزمها أن تؤثثها باللونين الوردى والاخضر الفاقع كزهرة متفتحة.

ولكن شارلوت قالت : « طبعا لو كان هناك اى سبب »
وكأنها كانت تقرأ ما يجول فى عقلها من افكار .

ـ ما من سبب هناك اللهم الا اننى قصدت أن افاجىء بينا بتأثيث الغرفة كى تكون ملحقا صغيرا خاصا بها تضع فيه كتبها وحوائجها وتستقبل فيه صديقاتها ..

« ما أرق قلبك ياديليا ؟ ولكن يجب ألا يكون لتينا ملاحق خاصة» قالت الآنسة لوفيل ذلك فى سخرية وقد بدت البقع الخضراء فى عينيها . فقالت ديليا :

« حسن جدا كما تودين » وكررت ديليا بنفس النغمة المحنقة: « سأشرف على انزال حوائجك غدا »

ووقفت شارلوت عند الباب وقالت : « اواثقة انت بأنه ما من سبب آخر هناك ؟ » فقالت ديليا :

« سبب آخر ؟ ولماذا » ونظرت المرأتان احداهما الى الاخرى نظرة هى الى العداوة اقرب ، واستدارت شارلوت خارجة .

وبمجرد ان انتهى الحديث شعرت ديليا بالضيق لانها خضعت لرغبة شارلوت . كأنه يجب أن تكون هى المنهزمة دائما ، فانها قبل كل شىء سيدة المنزل ، ويمكن دائما أن يقال ان كلا من شارلوت وتينا مدينة لها بوجودها او على الاقل بكل ما يجعل للحياة قيمة ومع ذلك كلما نشأت مشكلة بشأن الفتاة كانت الغلبة دائما لوجهة نظر شارلوت بينما كان على ديليا ان تخضع !! وكأنما كانت

شـــارلوت بطريقتهـــا الصامتة العنيدة عازمة على أن تستفيد من علاقة التبعية الموجودة بينهما ، والتى جعلت من الصعب على أمرأة لها طبيعة ديليا أن تقف منهـــا موقف المعارضة .

وفى الحق كانت ديليـــا قد انساقت وراء الخيـــال أكثر مما أدركت انها تفعل ، فهفت نفسها الى الجلسات الهادئة مع تينا تلك الجلسات التى لا بد أن بهيمهـــا لهما الملحق الصـــغير الذى أرادت أن تنشئه .. وقبـــل أن تتزوج أبنتها اعتادت السيـــدة رولستون أن تقضى ســـاعة من الزمان كل مساء فى تلك الغرفة حيث تتجاذب أطراف الحديث مع الفتاتين وهما تخلعان ملابسهما وكانت تصغى الى تعليقاتها عـــلى حوادث اليـــوم ... وكان فى مقدورها دائما أن تعـــرف آراء أبنتها قبل أن تتفوه بها ، ولكن آراء تينا ولفتات ذهنها طالما سببت لها صدمات لذيذة لا لغرابتهـــا أو بعدها عن المألوف بل لانها كانت فى بعض الاحايين تبدو كأنهـــا صادرة مباشرة من أعماق ماضى ديليا الاخرس ، ولان تلك الآراء عبرت عن أحاسيس جالت فى نفسها ولم تفصح عنها قط ... آراء لم تسر بها حتى لنفسها . وفى بعض الاحايين ، كان يصدر عن تينا أشياء خيل لديليا رولستون أنها قالتها لكليمنت سبندر اثناء تلك المعاشرة النفسية البعيـــدة التى طواها الزمن ..

والآن لابد أن يوضع حد لهذه الاحاديث المسائية فشارلوت قد طلبت السكنى بجوار ابنتها ، أفلا يدل ذلك على أنها أرادت لتلك الاحاديث أن تنتهى ؟ لم يخطر ببال ديليـــا قط أن تأثيرها فى تينا يمكن ان يقابل بالغضب من أى انسان أما الآن فقد انبثق من هذه الحقيقة ضوء أضاء جنبات الهوة السحيقة التى طالما فرقت بين المرأتين ، ولكن بعد لحظة من الزمان لامت ديليا نفسها لانهـــا عزت الى ابنة عمها شعورا بالحسد .. ألم يكن من الأجدر بها أن تعزو هذا الشعور لنفسها ؟ لقد كان لشارلوت بصفتها أم تينا كل الحق فى أن تطالب بأن تكون بقربهـــا . بقربها بكل معنى الكلمة ، فأى حجة تعتمد عليها ديليا فى معارضة هذا الحق الطبيعى ؟ ..

وفى اليوم التالى أصدرت أوامرها بانزال متاع شـــارلوت الى الغرفة المجاورة لغرفة تينا .

وفى تلك الأمسية عندما حل وقت النوم صعدتا ـ شارلوت وتينا ـ الى الطابق العلوى سويا ولكن ديليا تلكأت فى الصعـــود بحجة كتابة بعض الخطابات .. والحق أنها خافت المرور أمام عتبة

الباب حيث اعتادت اذناها أن تسمع ضحكات الصبيتين بينما راحت شارلوت لوفيل فى نوم عميق .. وشعرت ديليا بالألم يخترم جسدها لمجرد التفكير فى أنه من الآن فصاعدا سيحال بينها وبين هذه الوسيلة التى تمكنها من الاحتفاظ بسلطانها على تينا.

وبعد ذلك بساعة عندما ارتقت السلم لكى تذهب بدورها الى مخدعها شعرت بتأنيب الضمير، لأنها تحركت على بساط الممر بكل ما تستطيع من خفة ،ولأنها توقفت أطول مما يجب كى تدير مفتاح الغاز عند رأس السلم،وفى أثناء تلكؤها أجهدت أذنيها كى تستمع الى الاصوات الصادرة من خلف الابواب القريبة حيث تنام شارلوت وتينا . وكانت تحس بألم داخلى لو أنها سمعت كلاما وضحكا صادرين من داخل الغرفة ، ولكنها لم تسمع شيئا من هذا ، كما أنها لم تر نورا خارجا من تحت الابواب . اذ من المؤكد أن شارلوت بطريقتها النظامية الصارمة قد أقرأت ابنتها السلام وتوجهت توا الى الفراش كعادتها . ومن الجائز انها لم توافق قط على استيقاظ تينا فى أوقات النوم وعلى قضاء وقت طويل فى خلع ثيابها . واتخاذ هذا الوقت فرصة للدعابات وتبادل الأسرار . ومن الجائز أنها طلبت الغرفة المجاورة لمخدع ابنتها لمجرد انها أرادت ألا تضيع على ابنتها فرصة ماسمته « نوم العافية » .

وكلما حاولت ديليا أن تستكشف السر فى تصرفات أبنة عمها آبت من مغامرتها ذليلة النفس خجلى بسبب الدوافع الحقيرة التى وجدت نفسها تعزوها الى شارلوت .. كيف يحدث أنها هى ـ ديليا رولستون ـ وسعادتها واضحة للعالم كله ومعترف بها من الجميع، ترى نفسها تنفس على شارلوت المسكينة هذا المقدار الضئيل من الامومة الذى تتمتع به بعيدا عن أعين الناس؟ لقد كرهت نفسها بسبب هذا الشعور بالحسد كلما اكتشفته فى دخيلتها،وبذلت ما فى وسعها كى تكفر عنه بأسلوب رقيق دفعها الى مراعاة دقيقة لشعور شارلوت ، بيد ان المحاولة لم تكن ناجحة دائما . وأحيانا كانت ديليا تسأل نفسها عما اذا كانت شارلوت لاتحنق على أى مظهر من مظاهر العطف خشية أن

ترى فيه ايماءة غير مباشرة لبلواها .. ! ان أسوأ ما فى هذا الالم الذى تكابده شارلوت انه يلتهب وتزيد أوجاعه لمجرد اللمس الخفيف

كانت ديليا وهى تخلع ثيابها فى بطء أمام المرآة المكسوة جوانبها بالحرير ، والتى عكست صورتها قديما وهى عروس ، تدير هذه الافكار فى رأسها عندما سمعت دقا خفيفا .. ففتحت الباب ورأت تينا فى ثوب النوم وخصلات شعرها الفاحم تنسدل على كتفيها .

ومدت ديليا ذراعيها اليها وقلبها ينبض بالفرح وهمست الصبية : « كان يجب أن أحييك تحية المساء يا ماما » فقالت ديليا « طبعا ايتها العزيزة » وطبعت قبلة طويلة على جبهتها المرفوعة ثم قالت : « الى غرفتك حالا فقد توقظين خالتك .. انت تعرفين أن نومها خفيف ولذا يجب ألا تحدثى أى صوت الآن وقد أصبحت ترقدفى الغرفة المجاورة لغرفتك . »

قالت تينا :

« أجل أعرف ذلك » ورضخت ورمقتها بنظرة متجهمة يبدو فيها شعور الاشتراك فى اثم .

ثم لم تسأل أسئلة اخرى ولم تتلكأ ورفعت يد ديليا ووضعتها لحظة على خدها ثم تسللت خارج الغرفة بنفس الهدوء الذى جاءت به ...

قالت شارلوت فى اصرار بعد أن ألقت بجريدة « ايفننج بوست » جانبا « ولكنك بالتأكيد تلاحظين أن تينا قد تغيرت .. ألا ترين ذلك ؟ »

كانت المرأتان تجلسان وحدهما بجوار المدفأة فى غرفة الاستقبال « بجرامرسى بارك » وكانت تينا قد ذهبت لتتعشى مع السيدة جون جونيوس هالسى ، قريبتها الشابة ، ومن ثمة تذهب الى مرقص فى منزل أسرة فاندرجريف ومن هناك وعد جون جونيوس وزوجته بأن يعودا بها الى المنزل ، وبعد أن انتهت السيدة رولستون وشارلوت من تناول عشائهما المبكر أصبح المساء كله وقفا عليهما . وكانت عادتهما فى مثل هذه الظروف أن تقرأ شارلوت الاخبار لابنة عمها فى صوت عال ، بينما تنهمك الاخرى فى شغل الابرة ولكنهما فى هذه الليلة وفى اثناء انتقال شارلوت من نهر الى نهر فى الجريدة دون ان تغفل عن كلمة أو تسقط حرفا ، أحست ديليا السبب خاص بأنها تحرص على الاستفادة من فرصة غياب أبنتها

ولكى تكتسب وقتا قبل الاجابة انحنت السيدة رولستون فوق شغلها الرقيق وعكفت على تطريزه بالغرز البيضاء .

ثم سألت: «وهل تغيرت تينا؟ منذ متى ؟»

وجا الجواب سريعا: «منذ كان لاننج هالسى يكثر من التردد على هذا المكان ..»

ـ « لاننج ؟ كنت أعتقد أنه يأتى من اجل ديليا الصغيرة . وكانت تتحدث دون تفكير لكى تكسب وقتا أطول ...

فأردفت شارلوت: «من الطبيعى أن تظنى بأن الناس كلهم يأتون من أجل ديليا ابنتك ولكن لاننج كان لا يترك فرصة واحدة دون أن يكون فيها مع تينا »

رفعت السيدة رولستون رأسها واسترقت نظرة سريعة الى ابنة عمها .. والواقع أنها لاحظت التغيير الذى طرأ على تينا ، هذا التغيير الذى يشبه تغير الزهرة فى تلك اللحظة الغامضة التى فيها يخرج ورق التتويج من جوفها قبل أن تتفتح اكمامه . ولقد تطورت الصبية وأصبحت أكثر اناقة وأكثر رقة وأكثر ميلا

الى الصمت . وفى بعض الاحيان أكثر مرحا .. ولكن ديليا لم تربط بين هذه التغيرات فى المزاج وحضور « لاننج هالسى » وهو واحد من الشبان العديدين الذين كانوا يملأون الدار قبل رواج ديليا الصغيرة .. حدث حقا فى بعض الاوقات أن السيدة رولستون كانت ترمق لاننج البهى الطلعة بقلب واجف ، فمن بين جميع شبان اسرة هالسى الاقوياء الثابتى الجنان كان هو الوحيد الذى لا تستطيع اى امرأة ذكية الفؤاد أن تعهد اليه بابنتها دون تردد . ومن الصعب معرفة السبب فى هذا اللهم الا أنه كان أبهى الجميع طلعة وأكثرهم بشاشة كما لم يكن ليحافظ على موعد . ولم تزعجه هذه الحقيقة أبدا .. لقد كان كليم سندر على هذه الشاكلة وماذا يحدث لو أن ديليا الصغيرة ...

ولكن سرعان ما عادت الثقة الى نفس أم ديليا الصغيرة، فالفتاة وهى نفسها لعوب ساحرة لم تهتم بهذه الصفات فى الآخرين الا اذا كانت مدعمة بصفات أكثر رصانة .. ولهذا كانت تتطلب الخصال المميزة لاسرة رولستون التى هى عضو أصيل فيها ، ومن ثم وقع اختيارها على فرد من اسرة هالسى يليق بعروس من اسرة رولستون ..

وشعرت السيدة رولستون بأن شارلوت فى انتظار جوابها فقالت فى لطف « من الصعب التعود على فكرة زواج تينا ولا ادرى ماذا نصنع وحدنا ونحن امرأتان متقدمتان فى السن فى هذا البيت المقفر من الناس . أدسيكون خاويا عندئذ ، ولكن أظن أنه يجدر بنا أن نواجه هذه الفكرة »

قالت شارلوت لوفيل فى اهتمام « اننى فعلا أواجهها »

ـ « وهل تكرهين لاننج ؟ أقصد كزوج لتينا .. ؟ »

وطوت الآنسة لوفيل صحيفة المساء ومدت يدها النحيلة لتتناول شغلها ورمقت أبنة عمها الجالسة أمامها على المنضدة المصنوعة من خشب الليمون بنظرة سريعة وقالت : « يجب ألا تتشدد تينا أكثر مما يجب »

وقالت ديليا محتجة وقد أحمر وجهها « ولماذا »

وأستمرت الاخرى تقول : « لنسم الاشياء بأسمائها ... هذه طريقتى دائما عندما أتكلم ، بيد أننى كما تعلمين لا أتكلم كثيرا »

وأشارت الارملة بيدها علامة الموافقة واستمرت شارلوت تقول « هذا هو الصواب ولكننى كنت أعتقد دائما بأن اللحظة قادمة

عندما نضطر الى الكلام فى هذه المسألة ..» فقالت ديليا :
« الكلام فى هذه المسألة ؟ أنت وأنا؟ أى مسألة» فأجابت شارلوت:
« مستقبل تينا »

وساد صمت تنفست فيه ديليا رولستون الصعداء فهى دائما تستجيب الى كل نداء يطلب منها بذل المروءة والاخلاص . وتهيأت لها هذه الفرصة حين أخذ الثلج المتراكم فى صدر شارلوت يتحطم ويذوب أخيرا .

وغمغمت ديليا : « يا عزيزتى أنت تدركين مقدار اهتمامى بسعادة تينا فان كنت لا توافقين على لاننج هالسى كى يكون زوجا لتينا فهل تفكرين فى شخص آخر ترشحينه لها ..؟ »

وابتسمت الآنسة لوفيل احدى ابتساماتها الباهتة المغتصبة وقالت « لست أعلم بوجود ضيف من المعجبين عند الباب كما أننى لا أرفض « لاننج هالسى كزوج فانا شخصيا أراه مناسبا جدا وأدرك تأثيره على تينا .. »

« وهل تينا تميل اليه ؟ »

ـ نعم

والقت السيدة رولستون بالشغل جانبا وأخذت تتأمل فى تفكير عميق وجه ابنة عمها الدقيق التقاطيع ولم يسبق لشارلوت لوفيل أن ظهرت بمظهر العانس المثالية أكثر مما هى الآن ، وهى تجلس هنالك منتصبة الصدر على كرسيها ذى الظهر المستقيم ومرفقاها متقاربان ، بينما تصطك ابر الشغل وهى تناقش موضوع زواج ابنتها فى هدوء وروية .

واستأنفت ديليا تقول :

« مهما كانت عيوب لاننج ـ ولا اعتقد انها عيوب خطيرة ـ فانى أشاركك الميل اليه على أى حال» وتوقفت السيدة رولستون ثم واصلت الحديث « أى شىء فيه يجعل الناس يأخذون حذرهم منه ؟ أهم ما وصل الى سمعى عنه انه لا يستطيع أن يتخذ قرارا فى اختياره لمهنته .. او رأى المدينة فيما يختص بذلك يميل الى التشدد كما نعرف كلنا وقد تكون لدى الشبان ميول أخرى .. فنية .. أدبية ..وقد يكون من الصعب عليهم أن يقرروا شيئا .. »

وتلون وجها المراتين قليلا وادركت ديليا ان نفس الفكرة التى عصفت بصدرها قد اضطربت كذلك داخل قوام شارلوت المعتدل .

وتكلمت شارلوت « نعم أدرك ذلك ، ولكن التردد فى اختيار المهنة قد ينتج عنه التردد فى .. اتخاذ قرارات أخرى ... »

ـ ماذا تقصدين ؟

ـ لم يطلب لانتج من تينا أن تتزوجه ..

ـ وهل تظنين انه متردد فى ذلك ؟

وانقطعت شارلوت عن الحديث وتميز الصمت بصوت اصطكاك الابر كما تميز ذات مرة قبل سنين عدة بدقات الساعة الباريزية الموضوعة فوق رف المدفأة فى غرفة ديليا .. وبينما تعود ذاكرة ديليا الى الوراء متأملة ذلك المنظر اذ بها تحس بأن الهواء بات يحمل اليها نفس التوتر الغامض الذى شعرت به حينذاك

وتكلمت شارلوت .. « لم يعد لانتج مترددا ، لقد قر عزمه على ألا يتزوج تينا ولكنه أيضا قد عقد النية على ألا ينقطع عن مقابلتها .. »

وفى الحال احمر وجه ديليا فلقد أهاجتها وحيرتها كلمات شارلوت القاطعة الخارجة من بين شفتين حريصتين مدققتين.

ـ « انت لاتقصدين الى القول بأنه تقدم ثم عدل عن هذا القرار؟ ليس فى وسعى أن اصدق أن مثل هذه الاهانة يمكن أن تصدر منه فى حق تينا .. »

ـ «انه لم يهن تينا بل أخبرها بكل بساطة بأن حالته المالية لا تمكنه من الزواج ، فالى أن يقع اختياره على مهنة يمده والده بضع مئات من الدولارات فى كل عام ، وحتى هذا المبلغ من المحتمل أن يقطع عنه لو انه تزوج على غير رغبة والديه . »

وهنا جاء دور ديليا فى الصمت ، فقد اعادت شارلوت الحياة الى الماضى بكلماتها على صورة غامرة فتجسد كليمنت سبندر أمامها بتردده وفقره وجاذبيته .. آه ليتها فقط سمحت لنفسها بأن تخضع لسحر جاذبيته !

ثم قالت :

« يؤسفنى جدا أن يحدث هذا لتينا ، ولكن لما كان لانتج لم يخرج فى تصرفه عن جادة الشرف وعاد أدراجه دون أن يثير فى النفس آمالا كاذبة فيجب أن ننشد الامل ويجب أن نرجو .. »

وتوقفت ديليا عن الحديث فهى لا تدرى فى أى شىء يجب أن تأمل ..

وضعت شارلوت لوفيل الشغل الى جانبها وقالت: « تعرفين

يا ديليا ان كل شاب يقع فى حب تينا لابد واجد أسبابا وجيهة لعدم الزواج منها .. » فقالت ديليا :

« وهل تظنين أن اعتذارا لا تنج مجرد تعللات ؟ »

ـ « بالطبع وهى اولى التعللات التى سيبديها من يجيئون بعده ، وسيخلفه كثيرون ، فتيناذات جاذبية .. »

وغمغمت ديليا « نعم »

واخيرا أصبحتا وجها لوجه مع المشكلة التى ظلت خلال جميع سنى الصمت والتهرب قريبة من السطح كجيفة دفنت على عجل ! وتنفست ديليا تنفسا عميقا آخر ، فلقد ادركت دائما صعوبة العثور على زوج لتينا وبالرغم من اهتمامها بسعادة تينا وسوس فى نفسها وسواس داخلى يمت للانانية بكبير صلة يقول ان ختام حياتها لابد أن يصبح أقل خضوعا لسلطان الوحدة وأقل خلوا لو قدر للصبية أن تشاركها هذه الحياة ... ولكن كيف السبيل الى مصارحة ام تينا بهذا ؟

ـ « انى لأرجو أن تكون المبالغة طابع كلامك يا شارلوت فقد توجد بعض الشخصيات التى لا تهتم بالاوضاع السائدة ... ولكن على أى حال يجب ألا تحس تينا بالتعاسة هنا ومعنا ، نحن الذين نكن لها الحب العميق .. »

ـ « وهل تصبح تينا عانسا؟ كلا مطلقا ! » وانتصبت شارلوت لرفيل واقفة وقد ضربت المائدة الصغيرة بجماع يدها وهى تقول: « يجب أن تعيش طفلتى حياتها .. وتتمتع بالحياة .. مهما كلفنى ذلك .. »

وفاض عطف ديليا وكان وشيك الظهور وهى تقول «أدرك شعورك .. هذه أيضا رغبتى وان كان من الصعب فراقها .. ولكن لا داعى قط للعجلة ـ فما من سبب يدعونا الى التطلع الى المستقبل أكثر مما يجب . فالفتاة لم تبلغ العشرين بعد .. انتظرى .. »

ووقفت شارلوت أمامها لا تبدى حراكا منتصبة القامة وفى مثل هذه اللحظات تدعو هيأتها ديليا الى التفكير فى الحمم التى تكافح للخروج من جوف الصخر الصوان ! بيد أنه ليس ثمة مخرج للنيران المتأججة فى أعماقها .. ثم شرعت تتكلم :

«أأنتظر ؟ ولكن اذا هى لم تنتظر ؟»

ـ « ولكن اذ كان قد تراجع ـ ماذا تقصدين بهذا ؟ »

ـ «لقد تخلى عن فكرة الزواج منها ـ ولكنه لم يتخل عن رؤيتها ... »

وقفزت ديليا هى الاخرى على قدميها وهى ترتعش وقد اندفع الدم الى وجهها .

ـ « شارلوت أتعرفين مدى تلميحك ؟ »

ـ « نعم أعرف »

ـ « ولكن هذا شىء مهين . لا يليق بفتاة شريفة »

وماتت الكلمات على شفتى ديليا ، وظلت شارلوت لوفيل تمد بصرها فى اصرار وهى تقول « ليست الفتيات دائما كما نقولين شرفاء .. »

وعادت السيدة رولستون فى بطء الى مقعدها وكان اطار شغلها قد سقط على الارض فانحنت لتلتقطه وظل قوام شارلوت النحيل معلقا فوقها بقسوة كأنه القدر .

ـ « لا أستطيع أن أتصور يا شارلوت الفائدة التى تعود من ذكر مثل هذه الاشياء ـ حتى مجرد الاشارة اليها . أنت قطعا تثقين بابنتك .. »

وانفجرت شارلوت ضاحكة وهى تقول «فقد وثقت أمى بى»

ـ « كيف تجرؤين ـ كيف تجرؤين ؟ » ثم توقفت ديليا عن الكلام وأحست بغصة فى حلقها ...

ـ « اننى اجرؤ على اتيان اى شىء فى سبيل تينا كما أنى استطيع ان اراها على حقيقتها .. »

ـ «ترينها على حقيقتها؟ انها كاملة الصفات وليس فيها عيب !»

ـ « لنقل اذن أن عليها أن تكفر عن ذنوبى وكل ما أرجوه ألا تدفع الثمن غاليا .. »

وجلست السيدة رولستون صامتة وقد خيل اليها أن شارلوت قد نطقت بلسان جميع المصائر المظلمة التى تضطرب تحت صفحة الحياة الهادئة ومامن رد على هذا الصوت غير الموافقة الصامتة المشوبة بالرهبة .

ثم قالت فى صوت منخفض « يالتينا المسكينة ! »

ـ « لا أقصد أن لامناص من أن تتعذب ! ليس لهذا انتظرت .. وانتظرت .. انى ارتكبت أخطاء أدرك كنهها الآن ولا بد

لى أن أعالجها .. لقد كنت معنافى غاية النبل ولا بد لنا من الرحيل ..»

ـ « الرحيل ؟ » لفظت ديليا بهذه الكلمة وهى تلهث .

ـ «أجل ولا تظنى أننى ناكرة للجميل لقد أنقذت ابنتى مرة ـ وهل يخطر ببالك أننى أنسى ؟» ولكن جاء دورى ـ فأنا التى يجب أن أنقذها الان ، ولن أنقذها الا بأخذها بعيدا عن هذا المكان ـ بعيدا عن كل ما تعرفه هنا .

لقد عاشت اطول مما يجب وسط بحر من الاوهام وانها لتشبهنى ولن تقنع بها ..»

ـ «أوهام ؟» رددت ديليا الكلمة دون وعى .

ـ« أوهام بالنسبه لها! أوهام الشبان الذين يغازلونها ولا يستطيعون أن يتزوجوها .أوهام الاسر السعيدة التى تستقبلها بالترحاب الى ان تتطرق الريبة الى نفوسهم فيظنوا أنها تنصب شباكها حول أخ أو زوج ـ أو الى أن تتعرض لاهاناتهم .. كيف يمتد بنا الخبال أنا وأنت فنتصور أن فى مقدور تلك الطفلة أن تفر من الكارثة ؟ لم افكر فى غير سعادتها ، ولكن هذا الذى وقع من الشاب هالسى قد فتح عينى فلا بد لى من أن آخذ تينا وأرحل . يجب أن نذهب لنعيش بعيدا فى مكان لايعرفنا فيه أحد حيث نتخذ مقامنا وسط أناس بسطاء يعيشون حياة بسيطة وحيث تستطيع العثور على زوج وتكوين أسرة . »

ثم توقفت شاراوت عن الحديث اذ وهن صوتها واخذت تكرر فى توجع : « لست ناكرة للجميل .. »

ـ« دعينا من الحديث عن عرفان الجميل ! ما مكانه بينى وبينك ؟»

وكانت ديليا قد وقفت فى مكانها ثم شرعت تتحرك فى جوانب الغرفة فى قلق .. اشتاقت نفسها الى أن ترجو شاراوت وان تتوسل اليها الا تتعجل وان تصور لها القسوة فى إبعاد تينا عن كل ما اعتادته وارتبطت به ، والظلم البين فى أخذها دون تفسير الى مكان بعيد لتحيا حياة بسيطة وسط أناس بسطاء . أى أمل هناك فى أن مثل هذه المخلوقة المتألقة يمكن أن تخضع بسهولة لمثل هذا المصير أو يمكن أن تجد زوجا فى مثل هذه الظروف؟ ان التغيير قد ينجلى فقط عن مأساة

وان تجارب ديليا لتقصر عن تخيل صورة دقيقة لما يمكن أن يحدث لفتاة كتينا تقطعت بها سبل الحياة الرضية فجأة ولكن صورا غامضة للتمرد والهرب وللسقوط العميق الذى لايمكن الخلاص منه والذى يفوق سقوط شارلوت قد انبرت لها فجأة وزحمت خيالها المعذب ..

صرخت تقول لنفسها أكثر مما تقول لشارلوت « ان هذا لشيء مفرط فى القسوة ـ مفرط فى القسوة »

الا أن شارلوت بدل أن تجيب نظرت فجأة الى الساعة وقالت : « هل تعلمين كم تكون الساعة الآن ؟ انها بعد منتصف الليل ولا يجب أن تظلى جالسة فى مكانك فى انتظار ابنتى الطائشة .. »

وانقبض قلب ديليا ورأت أن شارلوت ترغب فى أن تضع حدا لهذا الحديث وذلك بتذكيرها بأن أم تينا فقط هى التى تملك الحق فى تقرير مصير تينا وفى تلك اللحظة وان كانت ديليا قد أعلنت منذ هنيهة ان موضوع عرفان الجميل ليس له وجود بينهما الا أن شارلوت لوفيل بدت فى عينيها شيطانا يمثل نكران الجميل وكان على طرف لسانها أن تصرخ قائلة « ألم تخولنى كل هذه السنين أى نصيب فى تينا ؟ » ولكنها أسرعت بوضع نفسها فى مكان شارلوت وأحست بالمخاوف المرعبة التى تحسها الام نحو طفلتها فلقد كان أمرا طبيعيا من شارلوت أن تثور على محاولة مهما كانت بسيطة لحرمانها فى السر من سلطة لاتستطيع أبدا أن تزاولها فى العلن وفى عطف مؤلم أدركت أنها الشخص الوحيد فى العالم الذى تستطيع شارلوت أن تمثل أمامه دور الام ..

ثم قالت تحدث نفسها يالللمخلوقة التعسة ـ آه لنتركها الآن!» ثم قالت لشارلوت :

« ولكن لماذا تظلين ساهرة فى انتظار تينا ؟ ان المفتاح معها وديليا الصغيرة ستعود بها الى المنزل »

ولم تجب شارلوت لوفيل بسرعة ولكنها طوت شغلها ونظرت فى صرامة الى أحد الشمعدانات الموضوعة على رف المدفأة وسارت نحوه لتعدل وضعه ثم تناولت الحقيبة التى تضع فيها أشغال الابرة .. وهى تقول :

ـ « نعم ! كما تقولين ـ لماذا يسهر أى انسان من أجلها ؟» وتجولت فى الغرفة تطفىء المصابيح وتغطى النار وتتأكد من أن النوافذ قد أغلقت بالمزلاج.. بينما كانت ديليا ترقبها فى هدوء ، ثم أضاءت المرأتان شمعتين لمخدعيهما وصعدتا السلم فى البيت الذى شمله الظلام وبدا على شارلوت العزم على ألا تشير الى موضوع حديثهما مرة أخرى .. وعلى رأس السلم توقفت حتى تحنى رأسها لديليا كى تقبلها قبلة المساء . ثم قالت بطريقتها التى تنم عن الكفاءة فى ادارة شئون المنزل :

« أرجو أن يكونوا قد واصلوا اشعال النار فى غرفتك كى تظل دافئة » .. وبعد أن تبادلت المرأتان تحية المساء سارت شارلوت فى الممر المؤدى الى غرفتها .

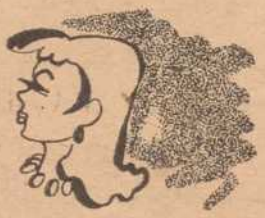

كانت النار فى غرفة ديليا تشتعل فى المدفأة وقميصها على مقعد أمامها كى يدفأ ولكنها لم تخلع ثيابها ولم تجلس فان حديثها مع شارلوت قد ملأ نفسها قلقا عميقا ..

وللحظات قليلة وقفت وسط الغرفة وهى تتلفت حولها فى بطء .. ما من شىء قد تغير فى الغرفة التى فكرت فى أن تغير تأثيثها على طريقة حديثة منذ كانت لاتزال عروسا .. كانت كل أحلامها فى التجديد قد تلاشت منذ زمن طويل جدا فان شيئا من الاهمال العميق وعدم المبالاة تأصل فيها وجعلها تحس بالتدريج كأنها شخص ثالث يعيش حياة امرأة أخرى لا تمت بأية صلة لديليا لوفيل تلك الفتاة النشطة الحية التى أقبلت على هذا المنزل وكلها مشروعات وأحلام .. عرفت أن الخطأ لم يكن خطأ زوجها فانها بقليل من البراعة وقليل من الاغراء كان يمكن أن تحقق أية رغبة لها فى يسر وسهوله كما حققت رغبتها فى وضع الطفلة اللقيطة تحت جناحها .. بيد أنها بعد هذا الانتصار لم تر هنالك شيئا آخر يستحق الكفاح ، فالنظرة الاولى الى تينا الصغيرة جعلتها لاتهتم بأى شىء فى الحياة الا بخدمه زوجها وأطفالها ، ولم تعد ترى أمامها سوى مستقبل ملىء بالواجبات وقد تممتها بكل أمانة واستبشار ، ولكن حياتها كانت قد أوفت على الغاية: فأحست بتحللها من كل قيد كراهبة تعيش فى دير .

كان التغير الذى طرأ عليها من العمق بحيث لم يكن من اليسير اخفاؤه ، ولقد كان افراد أسرة رولستون يتباهون علنا بدقة ديليا المحبوبة ومراعاتها للاصول الثابتة الموروثة . وهكذا قويت تقاليد الاسرة ومعتقداتها بما تسوقه الظروف من براهين جديدة على قوة هذه التقاليد والمعتقدات وأحقيتها للحياة .. وفى هذه اللحظة عندما أدارت ديليا بصرها حولها ونظرت الى الصور البارزة من عمل « ليو بولد روبرت » والى الصور القديمة لاعضاء العائلة والى قطع الاثاث القديم من خشب الورد وخشب الماهوجنى .. أحست بأنها تتطلع الى حوائط قبرها .

جاءها التغيير فى نفس اليوم الذى أطلقت فيه شارلوت لوفيل اعترافها المخيف وهى قابعة فى ذلك المقعد ذاته .

وعند ذلك وللمرة الاولى سمعت ديليا فى دهشة مخيفة صوت اقوى العمياء للحياة تتلمس طريقها صاخبة تحت قدميها ، لكنها أدركت فى ذلك اليوم ايضا انها محرومة من هذه الحياة ، محتوم عليها أن تعيش بين الخيالات مع افراد اسرة رولستون .

لقد قطعت على نفسها بالزواج عهدا ظلت وفية له عشرين سنة ، وصارت بمقتضاه تتصرف كفرد من اسرة رولستون ، ولم تسترد شخصيتها طوال ذلك الزمن الا مرة واحدة رأت فيها ان الموقف العنيف يوجب عليها أن تفعل . وها هى الآن تسمع النداء مرة ثانية يدعوها ، وتحس باليقظة فى أعماق نفسها تعاودها ، فلا مناص لها من ان تسترد شخصيتها فى الحياة لفترة أخرى .

انها لا تفعل ذلك من اجل كليمنت ، ولا من اجل شارلوت ، بل هى لا تفعله من أجل تينا العزيزة ، وانما تفعله من أجلها هى نفسها ، من اجل ديليا رولستون . فلتسرع الى هدم الحواجز التى اقامتها حولها تقاليد اسرة رولستون ، ولتخرج الى الحياة الواسعة الحرة .

وقطع حبل تأملاتها حركة خفيفة فى المنزل الصامت وشعرت بباب شارلوت لوفيل يفتح وسمعت صوت احتكاك ثيابها الثقيلة وهى تتجه الى السلم ، وظهر النور فجأة من تحت باب الغرفة ثم اختفى . . لقد مرت شارلوت بباب ديليا فى طريقها الى أسفل البيت .

واستمرت ديليا تصيخ السمع دون أن تتحرك .. ومن المحتمل ان دقة شارلوت قد دفعتها الى النزول لتتأكد من ان الباب الخارجى مغلق بالمزلاج ، أو أنها حقا أطفأت النار فى المدفأة . فلو كان هذا غرضها فلا بد أن تعود ، بيد انها لم تسمع صوت أقدامها تعود فأدركت أن شارلوت نزلت كى تنتظر ابنتها . . لماذا ؟

كان مخدع ديليا فى الناحية الامامية من البيت فتسللت على السجادة الثقيلة وأزاحت السجف جانبا وطوت مصراع النافذة الداخلى ، فرأت تحتها الميدان الخالى أبيض بتأثير ضوء القمر ورسمت ذرات الثلج الساقط حديثا هيئة جديدة لجذوع الاشجار القائمة فيه . اما المنازل المواجهة فقد نامت فى ظلام دامس .. فما من

خطوة واحدة ظهر أثرها على أديم الارض ، ومامن عربة شوه مرورها جمال الشارع المتألق ٠ أما السماء فقد سبحت نجومها فى ضوء القمر ٠٠

***

من بين العائلات التى تعيش حول « جرامرسى بارك » عرفت ديليا ان عائلتين فقط توجهتا الى المرقص : عائلة فاندرجريف وابناء عمومتهم من شبان عائلة بارملى رولستون فقد كانت عائلة لوسيوس لاننج على وشك أن يتموا أعواما ثلاثة من الحداد على والدة السيدة لوسيوس، وكان من الصعب على ابنتهم كيث ـ ولما تبلغ الثامنة عشرة بعد ـ أن تذهب الى المرقص قبل الحادية والعشرين وهى سن الخروج الى الحياة الاجتماعية، كما كانت السيدة مارسى منجوت الشابة تنتظر مولودها الثالث فاختفت عن الناس زهاء عام ٠ أما السكان الآخرون فى الميدان فقد كانوا من مجهولى الهوية ولم يدعهم احد الى المرقص

ضغطت ديليا جبهتها على زجاج النافذة ، قبل مرور زمن طويل فسترى مواكب العربات على قمة الطريق، وسيمتلىء الميدان النائم بأصوات حوافر الخيل ، وسترن الضحكات وتسمع كلمات الوداع على ألسنة الشباب عند عتبات الابواب ٠ ولكن لماذا ظلت شارلوت تنتظر ابنتها فى أسفل المنزل فى الظلام ؟

ودقت الساعة الباريسية الواحدة فعادت ديليا الى الغرفة وحركت النار ثم تناولت شالها ولفت نفسها فيه ثم رجعت الى مكانها بجوار النافذة ٠٠ آه كم مز السنين طوت ! لابد أنها بلغت من العمر عتيا لتحس بأثر البرد فى مثل هذا الوقت ٠٠ وأيقظها مايخبئه لها المستقبل : التهاب الاعصاب والروماتيزم وتصلب الشرايين وعلل أخرى مراكمة ٠٠ وماحدث لها قط أن وقفت فى ضوء القمر وحولها ذراع حبيب يدفئها ٠٠ !

ظل الميدان على صمته ومع ذلك فلابد ان يكون المرقص قد أشرف على الانتهاء، فأكثر المراقص مرحا وبهجة لاتستمر بعد الواحدة صباحا بكثير كما ان المسافة من ميدان الجامعه الى « جرامرسى بارك » لم تكن طويلة ٠٠ واتكأت ديليا على الموقد وأصاخت السمع ٠٠

سمعت أصوات حوافر الخيل وهى تضرب فى الثلج فى

ميدان « ايرفنج » ووقفت عربة عائلة بطرس فاندرجريف أمام المنزل المقابل لمنزلها . وقفزت البنات وأخوهن خارج العربة وارتقين معه السلم، ثم وقفت عربة ثانية على بعد خطوات أخرى ، ونزل أفراد عائلة بارملي رولستون أمام باب منزلهم، وعلى ذلك يجب ان تكون العربة الثالثة التى ستظهر على رأس الطريق هى عربة عائلة جون جونيوس وبها تينا .

ودقت الساعة النصف بعد الواحدة ، وتعجبت ديليا فان ابنتها ديليا الصغيرة لا تبقى أبدا فى الحفلات الى ساعة متأخرة من الليل رعاية لساعات عمل زوجها « جون جونيوس » .. فلا شك ان تينا أخرتها .. وأحست السيدة رولستون بشىء من القلق يشوبه الغضب لاستهتار تينا وتأخيرها لابنة خالتها . ولكن موجة من العطف على تينا سرعان ما عمرت قلبها وغمرت ذلك الشعور بالغضب .

ومالبثت ديليا ان تذكرت قول شارلوت « انها يجب ان ترحل الى أى مكان لتعيش حياة بسيطة وسط أناس بسطاء » . وكانت ديليا تدرك تماما أن شارلوت ما كانت لتقول هذا القول لو لم تكن مصممة على تنفيذه . فمن الجائز أن تكون هذه السهرة الراقصة هى آخر سهرة لتينا .

ومر ربع ساعة أخرى وبدأ البرد يتسلل من خلال شالها فرأت شخصين يظهران فى الميدان الخالى قادمين من رحبة ابرفنج وكان أحدهما شابا يلبس قبعة عالية ويرتدى معطفا واسعا وفى ذراعه تعلق انسان قد تدثر بأغطية ثقيلة فلم تدرك ديليا أنه تينا الا بعد أن سقط عليها ضوء المصباح المعلق على زاوية الشارع .. وبعد ذلك تعجبت لأنها لم تعرف فى الحال خطوات تينا الراقصة وطريقتها فى امالة رأسها كى تتطلع فى وجه الشخص الذى تتحدث اليه

تينا .. تينا ولا ننج هالسى يعودان الى البيت فى الساعات المتأخرة بعد منتصف الليل قادمين من حفلة عائلة فاندر جريف الراقصة ! لقد فكرت ديليا أول ما فكرت فى وقوع حادث : قد تكون العربة انكسرت أو أن ابنتها أصابها مرض حال دون استمرارها فى الحفل فعادت الى المنزل .. ولكن لماذا لم تأت تينا فى العربة واذا كان ثمة حادث من أى نوع فلماذا لم يسرعوا الى السيدة رولستون

لينبئوها بما جرى ! ولكن بدلا من ذلك أخذت تينا وصديقها يتسكعان في الليل المتألق البارد كعشيقين يتنزهان في منتصف الصيف وكأن حذاء تينا الخفيف يطأ زهرات الاقحوان بدلا من حبات الثلج ..

وأخذت ديليا ترتعش كصبية، ففي لمح البرق عرفت الاجابة عن سؤال طالما كان موضوع التكهنات الخفية .. كيف كان يدبر العشاق من أمثال شارلوت وكليمنت سبندر أمر تلاقيهم ؟ أي وحدة رهبانية أخفت مباهجهم المسروقة؟ ففي مجتمعهم الصغير المكتظ بالناس الظاهر للعيان ، كيف يمكن عمليا لهذا التلاقي أن يتم ؟ ماكانت ديليا لتستطيع أن تسأل شارلوت هذا السؤال قط فقد مرت عليها لحظات كانت تفضل ألا تعرف جوابا عنه ، أو تخاطر بالحدس والتخمين ، ولكنها الآن وبنظرة واحدة أدركت كل شيء .. كم مرة عادت فيها شارلوت لوفيل أثناء نقائها وحيدة في المدينة مع جدتها المشلولة من حفلات ليلية في صحبة كليمنت سبندر وكم مرة التقيا سويا داخل البيت المظلم في شارع « مرسر » حيث لا يوجد من يطلع على حركتهاسوى سيدة طاعنة في السن صماء وخدمها العجائز والجميع يرقدون في سلام في الدور العلوي ! وعند هذه الفكرة رأت ديليا غرفة الاستقبال المقبضة التي كانت لها بمثابة الغابة المضيئة بنور القمر .. غرفة الاستقبال التي لم تعد السيدة « لوفيل » العجوز تنزل اليها ذات الشمعدان الكالح ومقاعدها الصلبة من طراز الامبراطورية والتماثيل الرخامية التي تحمل رف المدفأة .. لقد تخيلت أشعة القمر وهي تسقط على رسوم السجادة القديمة ، وفي الضوء الابيض الشفاف رأت شخصين صغيري السن يتعانقان

أجل لابد أن تكون بعض الذكريات المشابهة هي التي أثارت شكوك شارلوت وأهاجت مخاوفها فجعلتها تنزل الى أسفل البيت كي تفاجيء المذنبين في الظلام .. وسرت الرعدة في جسم ديليا لما في هذه المواجهة من سخرية ..آه لو علمت تينا ! ولكن شارلوت كانت في عيني تينا لا تزال كما رغبت منذ وقت طويل أن تكون : صورة حية للعانس المحتشمة ، واستطاعت ديليا أن تتخيل كيف سيمثل المنظر أسفل السلم في هدوء وبراءة ، دون أن يصدر من شارلوت أي تعجب أو أي تأنيب أو كلام خارج عن حدود اللياقة، وكل مايمكن ان يصدر منها هي

تجاهل تام لجميع المعاذير فى ابتسامة رقيقة . فتخيلت ديليا أن شارلوت سوف تقول :

« ماذا تينا ؟ تعودين الى البيت فى صحبة لاننج ؟ انت أيتها الطفلة العابثة وفى هذا الثلج الرطب ! آه حقا : لقد قلقت ديليا الصغيرة على طفلها فعادت مبكرة ووعدت بأن ترسل العربة ـ ولكن العربة لم تعد ؟ حسنا ياعزيزتى أهنئك على قدرتك على جعل لاننج يصحبك الى البيت نعم ! سهرت لأننى لم استطيع أن أتذكر اذا ماكنت قد أخذت معك مفاتيح الباب الخارجى

فهل رأيت مثل هذه الحالة العجوز البلهاء ؟ ولكن لا تخبرى أمك ياعزيزتى والا فانها ستؤنبنى على نسيانى وعلى بقائى هنا فى البرد .. هل أنت واثقة تماما بأن المفتاح معك ؟ آه انه مع لاننج انك فى غاية الرقة ـ مساء الخير ـ أو يجدر بى أن أقول صباح الخير ..»

وعندما وصلت ديليا الى هذه النقطة من تمثيلها الصامت للحديث بين شارلوت وتينا أغلق الباب الخارجى بقوة وابتعد الشاب لاننج هالسى فى بطء نحو الساحة وشاهدته ديليا وهو يتوقف عن السير على الافريز المواجه للبيت وهو يتطلع الى واجهة المنزل ثم يعود الى السير فى تراخ . لقد استغرق انصرافه الوقت الذى حسبته ديليا بالضبط ..

وبعد لحظة شاهدت نورا يمر تحت باب غرفتها وسمعت حفيف ملابس شارلوت المنشاة وعرفت ان الام وابنتها قد عادتا الى غرفتيهما .

وفى بطء وبحركات متصلبة بدأت تخلع ملابسها ثم اطفأت الشموع وركعت بجوار سريرها دافنة وجهها فى الفراش ..

استلقت ديليا على سريرها حتى الصباح دون أن يغمض لها جفن وفى تلك الاثناء استعادت فى ذاكرتها كل تفصيلات اليوم الخطير عندما اخذت على عاتقها العناية بمصير طفلة شارلوت وكانت فى ذلك الوقت لا تبعد كثيرا عن دور الطفولة ولم يكن لديها احد تلجأ اليه أو يقوى ساعدها عندما تتخذ قرارات أو يسدى لها النصيحة فى تنفيذ هذه القرارات

ومنذ ذلك الوقت كان يجب أن تكون التجارب التى تحملت لها فى مدى عشرين سنة قد أعدتها لساعات الطوارىء وعلمتها كيف تسدى النصح للاخرين بدلا من ان تسعى وراءهم طالبة معونتهم .. بيد أن هذه السنين من الخبرة أخذت تضغط كاهلها كسلاسل ثقال وتقيدها بقوة الى الرقعة الصغيرة من الارض التى تعيش عليها ، فالتصرف المستقل أصبح بالنسبة لها عملا أكثر خطرا وأقل قابلية للتنفيذ مما كان عندما فكرت فيه أول مرة .. ويبدو الآن أنه لابد لها من أن تراعى فى تصرفاتها عددا من الناس أكثر من ذى قبل ، فهناك أولادها ثم أولادهم ، ثم أفراد الاسر التى اتصلوا بها عن طريق المصاهرة والنسب .

فماذا سيقوله أفراد اسرة هالسى مثلا ، أو أفراد أسرة رولستون ، وهل أصبحت هى عضوا أصيلا فى أسرة رولستون؟؟

***

وبعد ساعات قليلة كانت جالسة فى غرفة المكتبة الخاصة بالدكتور لانسكل العجوز رعيناه مثبتتان على سجادته الازميرية القديمة ، لقد انقطع الدكتور لانسكل الآن عن مزاولة الطب ، ومضى عليه على هذا الحال بضع سنين ، وأقصى مايفعله هو ان يزور عددا قليلا من مرضاه القدماء فيبدى مشورته فى الحالات المستعصية ، ولكنه ظل قوة فى مملكته القديمة أشبه شىء برئيس شرف أو زعيم روحى لجماعة الاطباء واعتاد المرضى الذين داوى أمراضهم الجسدية ان يستشيروه فى مشاكلهم النفسية .. ولقد اجمع الناس على دقة حكم الدكتور لانسكل ، ولكن الشىء الخفى الذى جذبهم اليه هو ما عرف عنه من صدقه وصراحته ، وخاصة فى أشد الاوساط تعصبا للجنس .. والان وديليا جالسة ترقب جسمه الضخم ذا الرأس الفضى اللون وهو يتحرك حول الغرفة

فى ثقل بين صفوف من الكتب الطبية وعدد من تماثيل المصارعين والملوك التى أهداها اليه مرضاه المترفون بجميله ، أحست نحوه بالاطمئنان والثقة وشرعت تقول

ـ « عندما توليت أمر تينا لاول مرة يجوز أننى لم أفكر تفكيرا كافيا » .

وقف الطبيب خلف مكتبه وضربه بجماع يده ضربة خفيفة وقال : « لحسن الحظ انك لم تفعلى ذلك .. ! يوجد فى هذه المدينة كثيرون غيرك يشغل هذا الموضوع بالهم يا ديليا لوفبل »

ورفعت وجهها اليه بسرعة وقالت: «لم تدعونى ديليا لوفبل؟»

أجابها فى خبث : « لاننى البرم فقط أكاد أعتقد أنك منهم »

فردت على ذلك بضحكة حائرة : «من الجائز لولم أكن منهم .. أقصد لو كانت لى دائما الفطنة والبصيرة اللتان تميز بهما أفراد أسرة رولستون لاصاب تينا فى النهاية خير عميم .. »

وغاص الدكتور لانسكل فى المقعد الكبير ، وراء مكتبه ، وصوب اليها نظرات نفاذة من وراء نظارته الساخرة وقال: « أكره الخير الذى يأتى متأخرا انه يشبه اللحم القديم .. »

وراحت تفكر وهى تقول : «أدرك أننى اذا تبنيت تينا ...»

ـ « ماذا .. ؟ »

ـ «سيقول الناس ..» وهنا صعد الدم الى رقبتها وغمر خديها وجبهتها وانسكب كلهب تحت شعرها المفروق ..

وأومأ لها برأسه قائلا : « نعم .. ! »

ـ « أو انهم سيقولون » وهنا زاد الاحمرار قتامة : « انها ابنة جيم » .

مرة اخرى هز الدكتور لانسكل رأسه موافقا وقال :

« الراجح جدا أن يظنوا ذلك ، وأى ضرر فى هذا .. ؟ اننى أعرف جيم وهو لم يسألك أى سؤال عندما أخذت الطفلة .. ولكنه عرف من هى .. »

ورفعت عينين ممتلئتين دهشة : « هل عرف .. ؟ »

ـ « نعم .. ! لقد حضر الى .. ولقد أفشيت سرا من أسرار المهنة وذلك لصالح الطفلة . وهكذا حصلت تينا على بيت يؤويها .. انك لن تنكرى على هذا المسلك . أليس كذلك ؟ »

ـ « كلا يادكتور لانسكل » . وملأت عينيها دموع الالم ،

وهى تقول : « وهل عرف جيم ؟ ومع ذلك لم يخبرنى .. ؟ »

ـ «لا فالناس فى تلك الايام لم يضمنوا أحاديثهم أشياء مهمة كثيرة ، أليس كذلك .. ؟ ولكنه أعجب بك اعجابا لا مزيد عليه لما فعلته ، ولو فرضت ـ كما أعتقد أنك فاعلة ـ انه الآن فى عالم من الكمال النورانى فلماذا لا تسلمين بأن اعجابه بك سيزداد لما تفعلين ..؟ » وختم الطبيب حديثه فى سخرية مرة : « من الجائز أن القوم فى السماء يعتقدون بأن القيام على الارض بعمل يتصف بالشهامة فى سن الخامسة والاربعين هو اشق بكثير من القيام به فى سن الخامسة والعشرين » .

ـ « هذا ما كنت أفكر فيه هذا الصباح »

ـ « حسنا ستبرهنين على عكس ذلك هذا المساء »

ونظر الى ساعته ثم وقف واضعا يده على كتفها فى عطف أبوى وقال : « ليعتقد الناس ما يشتهون وابعثى لى بديليا الصغيرة لو سببت لك اية متاعب ، أما ولدك فلن يقيم فى وجهك أى صعاب وكذلك لن يفعل جون جونيوس .. »

وأطلت برأسها خادم عجوز فنهضت ديليا ولكنها توقفت عند مدخل الغرفة .

ـ عندى فكرة .. قد تكون شارلوت هى التى يجب أن ارسلها اليك » .

ـ « شارلوت .. ؟ »

ـ لن توافق على ما انا عازمة عليه »

ورفع الدكتور لانسكل حاجبيه الفضيين وقال : « نعم .. ! يا لشارلوت المسكينة . . ! اعتقد أنها غيرى . . ! لا بد لشخص ما أن يدفع الثمن .. »

ـ « آه .. ليت تينا لا تدفع ! »

ـ «حسنا .. هذا هو بالضبط ما ستدركه شارلوت فى الوقت المناسب وعلى ذلك فطريقك بين »

واصطحبها الى الخارج مارا بقاعة الطعام حيث أجلس بعض الفقراء وواحدا أو اثنين من المرضى القدماء . حقا لقد كان طريق ديليا يبدو واضحا حين دعت شارلوت الى مخدعها بمفردها فى ذلك المساء ، وكانت تينا فى فراشها تشكو صداعا ، وفى تلك الايام كان هذا هو السبيل المألوف لمن يعانى مشاكل عاطفية من الشابات

الصغيرات وبهذه الطريقة يسهل عليهن اكتساب عطف أهلهن .

لم تتبادل ديليا وشارلوت على الغداء سوى بعض الكلمات التقليدية ولكن ديليا كانت لاتزال تحت تأثير احساسها بأن قرار ابنة عمها كان قرارا أخيرا كما أن حوادث الليلة السابقة كانت توحى بلاشك أنه قد حان وقت التنفيذ .

وبعد أن أغلقت الآنسة لوفيل باب المخدع بما هو معهود فيها من تأن شديد سارت نحو المقعد الطويل بين النافذتين ، وقالت :

ـ « هل اردت محادثتى يا ديليا .. ؟ »

« نعم لا تجلسى بعيدا » .. قالت السيدة رولستون ذلك دون أن تستطيع السيطرة على أعصابها ..

ونظرت شارلوت بعينين جامدتين : هل من الممكن أنها قد نسيت تنهدات التوجع والالم التى زفرتها ذات مرة فى نفس تلك الوسائد .. ؟

فعادت ديليا تقول :

ـ « لا .. ! اقتربى منى . فى بعض الاحايين يخيل الى اننى ثقيلة السمع » وبعد ان قالت ذلك فى عصبية ظاهرة دفعت مقعدا وقربته من كرسيها ..

وجلست شارلوت وهى تقول : « آه لم يسبق لى أن لاحظت ذلك ولكن اذا كنت كما تقولين فقد يكون ذلك قد انقذك من سماع تينا وهى عائدة من بيت أسرة فاندر جريف فى ساعة متأخرة من ليلة أمس .. وهى لن تصفح عن نفسها لاستهتارها براحة الآخرين لو عرفت انها ايقظتك .... »

ـ « انها لم توقظنى » .. ولكنها فى أعماق نفسها كانت تقول : « لقد انتهت شارلوت الى قرار ، ولن أقوى على تغييره .. »

واستمرت تقول : « أظن أن تينا قد سرت كثيرا بالمرقص ؟ »

ـ « نعم ..! ولكنها تدفع الثمن بما تعانيه الآن من صداع .. مثل هذه الحفلات المثيرة لا تلائمها ، قلت لك .. »

فقاطعتها السيدة رولستون : « دعوتك لكى نتم حديث ليلة أمس » .

فظهرت الدوائر الحمراء القانية على خدى شارلوت النحيلين وقالت : « وهل هناك ضرورة لذلك .. ؟ أظن أن من واجبى أن أخبرك فى الحال بأننى انتهيت الى قرار وأعتقد أنك توافقين على اننى أدرك صالح تينا »

ـ « نعم .. ! طبعا ، ولكن الاتسمحين لى على الاقل بأن يكون لى نصيب فى القرار الذى تتخذينه .. ؟ »

ـ « نصيب .. ؟ »

ومالت ديليا الى الامام روضعت يدها الدافئة على أصابع ابنة عمها المتشابكة وقالت : « شارلوت . حدث فى هذه الغرفة ذات مرة منذ سنين أن طلبت منى أن أساعدك . وكنت حينئذ تعتقدين ان فى مقدورى أن أفعل . . . أليس فى الامكان أن تعتقدى هذا مرة أخرى .. ؟ »

تصلبت شفتا شارلوت وقالت : « أظن أن الوقت قد حان كى أعتمد على نفسى »

ـ على حساب سعادة تينا ؟»

ـ « لا ، بل لأقيها من شقاء أعظم .. »

ـ « ولكن ياشارلوت أن سعادة تينا هى ما أبغى .. »

ـ « أعرف ذلك .. لقد فعلت كل ما فى وسعك من أجل ابنتى .. »

ـ « لا ..! ليس كل ما فى وسعى .. »

ونهضت ديليا ووقفت أمام ابنة عمها فى نوع من الخشوع ، وقالت وكأنها تقسم على ماتقول

ـ « ولكنى الآن سأفعل كل شىء . »

وتطلعت اليها شارلوت لوفيل وفى عينيها المذعورتين لمحة واجفة :

ـ « اذا كنت تقصدين أنك ستلجئين الى نفوذك فى أسرة هالى فانى مقدرة لجميلك وسأظل دائما حافظة له . . ولكننى لا أريد لابنتى زواجا بالاكراه » !

واحمر وجه ديليا لان الاخرى لم تدرك مرادها ، وكان يخيل اليها أن هدفها لذى ترمى اليه لابد ان يكون واضحا على صفحة وجهها ، وقالت : «سوف أتنى تينا .. سأعطيها اسمى .. »

فحملقت فيها شارلوت بعينين متحجرتين وقالت :

ـ « تتبنينها .. ؟ » فقالت ديليا :

« ألا تدركين يا عزيزتى مقدار الفرق الذى سيترتب على ذلك .. ؟ لدى المال الذى ورثته عن أمى .. مال اسرة لوفيل انه ليس بالشى الكثير ، ولكن كانت رغبة جيم دائما أن يؤول هذا المال الى أسرة لوفيل ثم ان ابنتى وأخاها فى بسطة من العيش .. مامن سبب يحول دون ذهاب مالى القليل الى تينا

ولماذا لا تعرف بتينا رولستون» ؟ وتوقفت ديليا عن الكلام ثم قالت : « فى اعتقادى لو كان جيم حيا لوافق على ذلك هو الآخر »

ـ « يوافق .. ! ؟ »

ـ « نعم ..! الا ترين أنه عندما أذن لى بأخذ الطفلة كان مقدرا كل ما قد ينتج عن ذلك فى نهاية الامر . . ؟ »

ووقفت شارلوت هى الاخرى وقالت : « أشكرك يا ديليا ، ولكن يجب ألا ينتج عن ذلك شىء آخر ما عدا رحيلنا عنك الآن . اننى واثقة بأن هذا هو ما كان يوافق عليه جيم » ..

وتراجعت السيدة رولستون خطوة أو خطوتين .. لقد قضى اصرار شارلوت اصرارا قاطعا على شجاعتها ولم تعثر على جواب سريع .. ثم قالت :

ـ « اذن من الايسر لك أن تضحى بسعادة تينا على أن تضحى بكبريائك ! ! »

ـ «كبريائى .. ليس لى الحق فى أى نوع من الكبرياء ما عدا حقى فى ابنتى وهذا لن أضحى به أبدا .. »

ـ « ما من أحد يطلب منك ذلك .. انك لست على حق فيما تقولين .. أنت قاسية . كل ما أطلب هو أن يسمح لى بأن أسعد تينا وها أنت تتحدثين كما لو كنت أعارض فى حقوقك .. »

ـ « حقوق .. ؟ » وأعادت شارلوت الكلمات وهى تضحك ضحكة موحشة :

ـ « ما هى هذه الحقوق . ؟ ليست لى حقوق لا أمام القانون ولا فى قلب ابنتى »

ـ «كيف تقولين مثل هذا الكلام ؟ أنت تعرفين كم تحبك تينا»

« نعم .. ! ان حبها لى هو من قبيل العطف على .. كما كنت احب عماتى وخالاتى العوانس .. كانت لى منهن أثنتان .. هل تذكرين ؟ كانتا كالطفلتين الذاويتين .. ! ولطالما حذرونا من قول اى شىء يزعج الخالة جوزى أو الخالة كونى ، كما سمعتك تحذرين تينا فى تلك الليلة »

ففمغمت ديليا متألمة ..

وظلت شارلوت لوفيل واقفة أمامها كالحة الوجه صارمة لا تنثنى : « كلا .. لقد مضى زمن طويل ولابد أن أخبرها بكل شىء ثم نرحل من هنا »

ـ « هل ستخبرينها عن مولدها .. ؟ »

فأجابت شارلوت لاهثة : «لم أشعر بالعار من ذلك قط »

ـ « اذن انت تضحين بابنتك . تضحين بها على مذبح رغبتك فى التحكم .. ! ؟ »

ونظرت المرأتان كل منهما فى وجه الاخرى فكلتاهما شاهرة سلاحها .. ومن خلال اخلاجات الغضب رأت ديليا غريمتها تضعف فى بطء فتتراجع خطوة الى الوراء ثم تنهار على المقعد مرسلة همهمة كسيرة .. لقد اخفت شارلوت وجهها فى الوسائد وهى تقبض عليها بعنف .. أن عاطفة الامومة ذاتها التى ألقت بها ذات مرة فوق هذه الوسائد هى التى أخذت تجرها الآن الى أسفل فتهاوت وقد انصهرت نفسها فى غمرة من تسليم أشد مرارة من كل ما سبق ان عانت وبدا على ديليا كأنها تسمع نفس الصرخة القديمة : « ولكن كيف استطيع ان انزل عن طفلتى .. ؟ » وهنا اختفى غيظها الوقتى وانحنت فوق كتفى الام التى ترزح تحت أثقال الالم ، فقالت :

« شاتى .. لن يكون هناك نزول هذه المرة .. ألا يمكن أن نستمر فى حبها سويا .. ؟ »

ولم تجب شارلوت وظلت صامتة وقتا طويلا ساكنة فى مكانها ووجهها فى الوسائد ، تخشى ان تدير شطر الوجه الحانى عليها ، وفى النهاية شعرت ديليا بتراجع تدريجى فى العضلات المشدودة ، ورأت احدى ذراعى ابنة عمها تتحرك ببطء وتتحسس المكان ؛ فمدت يدها الى الاصابع الباحثة . وأحست بشارلوت تمسك هذه اليد وتطبع عليها قبلة ..

كانت تينا لوفيل ، التى تسمى بالآنسة كليمنتينا رولستون ستتزوج فى يوليو من لانيج هالسى ، وكانت الخطبة قد اعلنت فقط فى شهر ابريل السابق لهذا التاريخ وشرعت سيدات الاسرة المتقدمات فى السن يسلقون تلك الخطبة التى لم تستمر وقتا طويلا بالسنة حداد فقد كان من المتفق عليه فى نيويورك فى تلك الايام أن « من حق الشباب أن يمنح الفرصة لكى يتعرف بعضهم الى بعض » بالرغم من أن العدد الاكبر من الشبان والشابات اللاتى يؤلفن المجتمع النيويوركى قد اشتركوا فى اللعب وهم أطفال ، كما أنهم ولدوا من آباء وأمها ت عاشوا فترة طويلة متعارفين .. ومع ذلك فقد كان هناك تقليد متبع ، يقرر أن المخطوبين حديثا يجب ان ينسوا انهم كانوا قبل الخطبة متعارفين أما فى الولايات الجنوبية فقد كانت الامور تسير بصورة مختلفة ، فالخطوبات التى تتسم بالرعونة والزيجات التى تتم دون علم الاهل لم تكن بالشىء النادر الحدوث فى سجلات هذه الولايات .. بيد ان مثل هذا التهور لم يكن بهذا الذيوع فى نيويورك ، وذلك لركود دماء أهلها ، حيث الحياة ما فتئت تتسم بسمة التبصر والتأنى المأثورتين عن أهل هولندا .

وفى حالة غير عادية كحالة تينا رولستون ، لم يكن مما يثير العجب لدى اى انسان الا يؤخذ بالتقاليد المرعية ، ففى المقام الاول لم يغب عن الاذهان أن تينا ليست من آل رولستون الا اذا أقام الانسان وزنا لما يشاع عن ماضى جيم المسكين وعن شهامة ارملته ونبل طبيعتها .. ولكن أغلبية الناس كانوا لا يرون هذا الرأى فهم على غير استعداد لان يلصقوا برجل ميت تهمة لا يستطيع لها دفعا ، واعلنت أسرة رولستون بالاجماع انهم وان كانوا يستهجنون تصرف السيدة جيمس رولستون استهجانا تاما ، الا انهم على اقتناع تام بأنها ما كانت لتتبنى تينا لو كان هذا التصرف يلقى شبهة على حياة زوجها المترفى .

لا : قد تكون الفتاة فردا من أسرة لوفيل ـ وان لم تكن هذه الفكرة شائعة بين الجميع ، ولكن من المؤكد أنها ليست من أسرة رولستون ، فعيناها العسليتان وحركاتها الطائشة نأت بها فى وضوح عن محيط الاسرة ، فليس هناك حاجة لان يصدر عليها حكم بالحرمان ، وقد اعتقد معظم الناس ـ كما كان الدكتور لانسكل يؤكد دائما ـ بأنه ليس من الميسور الكشف عن اصلها

وانها تمثل لغزا من الالغاز المستعصية على الحل ، وتغيظ المجتمعات التى تأخذ نفسها بنظم محكمة . . وان واقعة تبنى ديليا رولستون لها لا تعدو أن تكون برهانا آخر على تكتل أسرة رولستون وتماسك أفرادها . .

فما تبنت السيدة رولستون الفتاة الا لان ابنة عمها كانت شديدة التعلق بها ، ومن المبالغة أن يقال بأن ابن السيدة رولستون وابنتها كانا راضيين عن فكرة التبنى ، فانما امتنعتا عن التعليق تهوينا من اثر النزوة التى صدرت عن أمهما ، فكان صمتهما مشرفا ولقد كانت هذه هى الطريقة القديمة التى تتبعها عائلات نيويورك فى اخفاء ما يصدر عن أحد أفرادها من شذوذ وحيثما يوجد « مال يكفى الجميع » كان من المستهجن أن يحتج الوارثون على النزول عن جزء صغير من الميراث العام.

ومع ذلك فان ديليا رولستون منذ تبنيها للفتاة كانت مدركة تمام الادراك ان ثمة مسلكا مختلفا من جهة ولديها الاثنين . . لقد عاملاها بصبر ، بل بحكمة كتلك التى يظهرها الوالدان ازاء صغيرهما الذى أتى ذنبا فغضا الطرف عنه ولكن ذلك لم يعفه من رقابة أشد ، وكذلك المجتمع عاملها بنفس التسامح ولكن بتحفظ . .

لقد كان لها ـ على حد تعبير سيلرتون جاكسون ـ طريقة حاسمة حازمة فى أخذ الامور ، وقد سبقتها السيدة مانسون منجوت بتصرف خطير حين خالفت وصية زوجها ، وكانت جرأتها منقطعة النظير فى ذلك الحين ، ولكن اسلوب السيدة رولستون كان فريدا فى لباقته ، فما أنجزته السيدة الاولى ببراعة أقوالها المنمقة وهجماتها واصرارها وتحركاتها أنجزته الثانية دون ان توفع صوتا او تحيد خطوة عن الطريق المستقيم . .

فمن قبل أغرت زوجها جيد رولستون على تولى أمر الطفلة وحصلت على موافقته بمهارة فائقة ، دون ان يعرف احد كيف تمت تلك الموافقة ، ولم يرها الناس فى اليوم التالى الا فرحين منشرحين .

والآن ، ها هى تتبنى الفتاة بنفس الاسلوب الذى عزاه اليها سيلرتون جاكسون ، فتصرفت كأنها لا تأتى عملا يحتاج الى تفسير ، بل هى دهشت كيف يتعجب الناس من فعلها حتى لترى أن عجبهم أمر سخيف لا يؤبه له ، وهكذا ارغمت الجمع رويدا رويدا على ان يكفوا عن نقد تصرفها ، بل على ان يروه أمرا سائغا .

والحق أن وراء ثبات ديليا وثقتها بنفسها غمامة كثيفة من الشكوك والريب ، ولكنها تعلمت مرة أن فى مقدور الانسان أن يأتى أى عمل ، حتى القتل ، لو أنه حاول الا يقدم تفسيرا لما يصنع . ولم تنس هذا الدرس أبدا .. ولم يسبق لها أن فكرت أخذها الطفلة اللقيطة ، وما هى الآن بمستعدة لتفسير تبنيها اياها لقد كانت تقوم بما تقوم به كما لو لم يحدث شىء ذو بال وساعدها قسط ضخم من التواضع على الاحتفاظ بشكوكها لنفسها .

وكانت هذه الشكوك فى الواقع تدور حول افكار شارلوت لوفيل الخاصة أكثر مما تدور حول الرأى العام فان شارلوت عقب اللحظة الاولى لمقاومتها الفاجعة ظهرت بمظهر المعترف بالجميل فى صورة تثير الشفقة بل الالم فى النفس . ولقد كشف مسلك تينا بوضوح أنها على حق فيما فعلت فان تينا فى خلال الايام الاولى عقب عودتها من حفل أسرة فاندرجريف بدت بوجه منقبض متجهم ذكر ديليا فى عنف ببشاعة الصورة المفاجئة التى ظهرت لشارلوت لوفيل قبل ذلك بسنين فى مرآة مخدعها .. ان الفصل الاول من تاريخ الام قد نقش الآن فى عينى الابنة وان دم سبندر الذى يجرى فى عروق تينا قد يكتب ختام هذا التاريخ . وفى أثناء تلك الايام القليلة التى انقضت فى ملاحظة صامتة اكتشفت ديليا فى خوف واشفاق مايبرر مخاوف شارلوت فانهما قد فقدتا الفتاة تقريبا ومهما كان الثمن فمثل هذه المخاطرة يجب ألا تعود .

أما أسرة هالسى فعلى العموم تصرفت بشكل يدعو الى الاعجاب لقد أبدى لانتج رغبته فى أن يتزوج ربيبة ديليا رولستون — وكان معروفا أنها بعد فترة قصيرة ستأخذ اسم الام التى تبنتها كما سترث ثروتها .. وأى طموح يرنو اليه فرد من أسرة هالسى اكبر من أن يتزوج فتاة من أسرة رولستون ؟ ولقد حدث دائما تزاوج بين العائلتين وكان آباء أسرة هالسى يمنحون بركاتهم فى تسرع كشف عن انهم هم كذلك متلهفون على هذا الزواج ، وان راحة النفس التى تنتج عن رؤية لانتج مستقرا فى حياة زوجية سعيدة لا بد أن تكون تعويضا كافيا عن العيوب الظاهرة فى مثل هذا الزواج . على انهم بمجرد أن يستقر رأيهم على الزواج لن يسمحوا حتى لانفسهم بالاعتراف بوجود مثل هذه النقائص .. ان الجيل القديم من أهل نيويورك نبذوا على الدوام كل ما من

شانه المساس بالاحتشام الكامل الواجب مراعاته في تصرفاتهم ..

وطبعا لاحظت شارلوت لونيل كل هذا وأدركت كنهه ... لقد بلت الوضع في خلواتها مع ديليا ورأت فيه رحمة منحت لمذنب لا يستحقها وأصبح كل همها في الحياة أن تظل ابنتها على جهلها بحقيقة العلاقة بينهما .

هكذا كانت تينا كل شيء في حياة ديليا ، فقدرات فيها الارملة رحيمة كل ما كانت تحلم به من أمنيات وخيالات امتلأ بها شبابها الضائع ، حتى لتحسب وهي تراها بعينين ظامئتين أن دم الصغيرة هو الذي يسري في عروقها ..

ولم يكن من الميسور الكشف عما دار في خلد الفتاة خاصا بتبنيها .. ففي سن الرابعة عشرة اطلعت على التفسير الذائع لميلادها وقبلته في اهمال كما يقبل طفل بسعيد حقيقة لا تمت له بصلة ولا يستطيع أن يدرك كنهها . كما قبلت اجراءات تبنيها بنفس الروح . . اذ عرفت ان اسم اسرة رولستون أعطى لها بقصد تسهيل زواجها من لانتج هالسي ووقعت ديليا تحت فكرة أن جميع الشكوك الغامضة جرفها شعور عارم بحرفان الجميل : « لقد اعتبرتك دائما كأمي والآن أيتها العزيزة أنت حقا أمي » . فبهذا همست تينا في أذن ديليا ، وخدها ملاصق لخدها .. فأجابتها ديليا وهي تضحك : « أجل .. هذا لو استطاع المحامون أن يجعلوني كذلك .. ! »

اقتربت الموجة الذهبية من اليوم الموعود ، وأخذوا يستعدون لحفل الزواج .. واتفقوا على عقد الزواج في قصر لوفيل ، وهو البيت القديم الذي يشرف على الخليج حيث عقد قران ديليا لوفيل نفسها وحيث اعتادت أن تقضي أشهر الصيف منذ أن توفيت والدتها .. وبالرغم من أن الحي كان مغطى بشبكة من الطرقات المهملة فان المنزل العتيق بشرفته المحوطة بالاعمدة مازال يطل على ساحة واسعة مغطاة بالحشيش وبها مجموعات من الاشجار القصيرة المورقة .

كان من المقرر أن يعقد قران تينا في البيت كما حدث للسيدة رولستون ، لا في الكنيسة ، وان كانت الاوساط التي تتبع الكنيسة الاسقفية قد بدأت تستهجن مثل هذه الطقوس التي يرونها شبيهة بالاجراءات الاضطرارية التي يلجأ اليها أتباع يوحنا المعمدان والشيعة النظامية والموحدون وغيرهم من الشيع التي لا مذبح

لها .. وقد رأت ديليا وشارلوت أن جو الاعتكاف والعزلة الذى يهيؤه زواج يعقد فى البيت ، لابد أن يعوض الطابع الدنيوى الذى ينفرد به الزواج الاسقفى . وتحمست أسرة هالسى لهذا القرار ، وتبعا لذلك استقرت السيدات فى قصر لوفيل قبل نهاية شهر يونيو وفى كل صباح شوهد القارب الصغير الخاص بلانتج هالسى الشاب يعبر الخليج ويطوى شراعه فى المرسى الواقع أسفل الساحة الخضراء ...

وفى الليلة السابقة للزواج جلست ديليا رولستون فى الشرفة ترقب بزوغ القمر من أفق الخليج وكانت متعبة من جراء ما قامت به من مهام ، كما كانت منقبضة لقرب فراق تينا ، ففى المساء التالى لزواجها سيصبح المنزل خاويا : والى أن يجيئهما الموت ستجلس هى وشارلوت وحدهما سويا بجانب المصباح فى الامسيات ولكن هذا التضجر والسأم كان شيئا سخيفا لا يليق بها بيد أن ذكريات لا حد لها تحركت واختلجت فى نفسها .. لقد كان قلبها مثقلا .. وبينما هى تغلق الباب على الغرفة الصامتة ـ وكانت قد تحولت الى كنيسة صغيرة بمذبحها المغطى بأردية مقصبة وبالقوارير الطويلة من الصخر الكلسى الشفاف فى انتظار ورودها البيضاء ورياحين شهر يونيو وبقطعة السجاد الحمراء المستطيلة التى تفصل صفوف المقاعد عن مكان القس ـ شعرت أنه قد يكون من الخطأ العودة الى قصر لوفيل لعقد الزواج .. ومرة ثانية رأت نفسها فى ثوبها الهندى الفضفاض ذى الوسط المرتفع المزين بزهور الاقحوان وفى حذائها الخفيف المصنوع من الحرير وفى حجابها الشفاف من بروكسل ـ ومرة اخرى رأت صورتها منعكسة فى المرآة الكبيرة المثبتة فى الحائط المصفرة اللون كما رأتها وهى تترك نفس هذه الغرفة منكئة على ذراع جيم رولستون وتذكرت النظرة الخاطفة الوحيدة الممتلئة رعبا التى القتها على صورتها قبل ان تأخذ مكانها تحت اريكة من الورود البيضاء فى القاعة الكبرى وهى تبتسم للمهنئين .. آه كم تختلف الصورة التى تعكسها المرآة الكبيرة غدا .

وسمعت فى الداخل صوت خطى شارلوت لوفيل السريعة جاءت وما لبثت أن انضمت الى السيدة رولستون .

ـ « ذهبت الى المطبخ لاخبر الطاهية بأن تجهز مائتى طبق من المثلجات »

ـ « مائتى طبق؟ أجل ـ أظن ذلك لان كل معارفنـــا من فيلادلفيا سيحضرون » وفكرت ديليا لحظة ثم قالت : « ماذا تم بخصوص المناشف الورقية التى توضع فى الاطباق ؟ »

ـ « بمعاونة خالتك سندبر كل شىء على وجه السرعة .. »

ـ « اجل ـ شكرا لك ! شارلوت على تجشمك كل هـذه المتاعب .. »

فتمتمت شارلوت محتجة وعلى فمها ابتسـامتها الزائنة : ولاحظت ديليـا السخرية التى ينطـوى عليها شـكر أم على اهتمامها بتفاصيل زواج ابنتها.

ـ «اجلسى هنا ياشاتى» قالت فى صوت منخفض وهى تحس الدم يصعد الى وجهها لزلتها ..

وجلست شارلوت على أقرب مقعد وهى تتأوه من التعب ..

ـ « سيكون يومنا غدا رائعا قالت ذلك وهى ترقب صـفحة السماء الهادئة فى تفكير عميق .

ـ « نعم ! أين تينا ؟ »

ـ « كانت متعبة للغاية فأرسـلتهـا الى الطابق العـلوى كى تستريح .. »

وكان الظرف مناسبا جدا فلم تحر ديلياجوابا سريعا . وبعـد لحظة قالت : « سنفتقدها بعدزواجها » ..

وكانت اجابة شارلوت غمغمة غير مسموعة .

وظلت ابنتا العم صامتتين ،وجلست شارلوت كعادتهامرفوعة القامة ويداها النحيلتان متشبثتان بمسـندى مقعـدها المنخفض القديم ، بينما غاصت ديليـا فى مقعد كبير مرتفع الظهر . . لقد تبادلتا ملاحظاتهما الاخـيرة عن استعدادات اليوم التالى ولم يعد هناك شىء آخر يقال عن عدد الضـيوف واعداد الشراب وترتيبـات ملابس القسـيس وعرض الهدايا فى أحسن غرفـة من غرف نوم الضيوف ..

موضوع واحد فقط لم يمس بعد ، وظلت ديليا ترقب وجه ابنة عمها متجهما فى ضوء الشفق الذائب وانتظرت ان تتكلم ، ولكن شارلوت ظلت على صمتها

وأخيرا شرعت ديليا تقول وفى صوتها رعشة خفيفة « كنت أفكر أنه يجب على الآن ـ »

وخيل اليها أنها ترى يدى شارلوت وهما يشدان مقبض المقعد . .

ـ «ماذا يجب عليك الآن ؟»

ـ « حسنا قبل ذهاب تينا للفراش قد يكون من الواجب على أن أصعد اليها لبضعة دقائق »

وظلت شارلوت لا تتكلم وظهر تصميمها على عدم بذل أى مجهود لمساعدتها .

واستمرت ديليا تقول « غدا سنكون فى زحمة الامور ابتداء من مطلع النهار ولاادرى كيف يمكننى فى شواغل اليوم المثيرة ان . . »

ـ « يمكنك ماذا ؟ » رددتها شارلوت فى صوت جاف !

وأحست ديليا بوجهها يزداد احمرارا فى ضوء الشفق وهى تقول متلعثمة : « حسنا أظن أنك توافقيننى على أنه لابد من كلمة تقال للصبية عن الواجبات والمسئوليات الجديدة مما يقال فى هذه المناسبات . »

ـ « نعم ! لقد فكرت فى ذلك » ولم تزد شارلوت كلمة ، ولكن ديليا اكتشفت فى نبرة صوتها الميل لتلك المعارضة الغامضة التى أعلنت عن نفسها بشكل آلى فى اللحظات الحرجة فى حياة تينا . . ولم تستطع ادراك السبب الذى من أجله تكون شارلوت فى مثل هذه اللحظات مبهمة لا يمكن التفاهم معها . ولم تر الآن سببا فى أن يحول هذا التقلب فى حالتها دون قيامها بما تعتقد انه واجبها . . ان تينا تنتظر فى لهفة معاونتها على اجتياز حياتها الجديدة فتكون هذه المعاونة وداعا حقيقيا لها . . وبقلب يدق أسرع قليلا من المعتاد وقفت واجتازت النافذة الى غرفة الجلوس ، وكان القمر من خلال أعمدة الشرفة يرسل ستارا من النور على صفوف الكراسى ويضىء المذبح المزين بالحرير والقصب بما عليه من شمعدانات وقوارير فارغة ، ويرسم فى لون فضى صورة ديليا فى المرآة الكبيرة المثبتة على الحائط . . .

وعبرت الغرفة فى اتجاه الصالة .

ورن فى أثرها صوت شارلوت يناديها « ديليا . . ! »

ووقفت المرأتان تتفحص كل منهما الاخرى فى الضوء القوى

وكان وجه شارلوت يبدو كما بدا فى ذلك اليوم المخيف عندما رأته ديليا فجأة فى المرآة فوقها.

وسألتها شارلوت : «هل كنت صاعدة الآن للكلام مع تينا ؟ »

ـ « أنا ـ نعم ! لقد أشرفت الساعة على التاسعة وظننت ..»

ـ « نعم أعرف ذلك » وقامت الآنسة لوفيل بمجهود ظاهر لكى تضبط نفسها ، وقالت : « أرجوك أن تفهمينى أنا أيضا يا ديليا اذا طلبت منك ألا تفعلى »

ونظرت ديليا إلى ابنة عمها وقد تملكها خوف غامض . أى لغز جديد يخفيه هذا الطلب الغريب ؟ ولكن لا ـ مثل هذا الشك الذى اختلج فى عقلها لا يمكن قبوله . انها واثقة تماما فى عزيزتها تينا .

ـ « أعترف بأننى لا أفهم مرادك يا شارلوت .. أنت دون شك تحسين بحاجة الفتاة فى الليلة السابقة لزواجها الى نصيحة من أمها .. »

ـ « نعم أحس بذلك . ولكن المشكلة هى : أينا أمها ؟ »

وتراجعت ديليا على الرغم منها وقالت متلعثمة : « أينا أمها ؟ »

ـ «نعم ! لاتظنى بأن هذه هى المرة الاولى التى أسأل فيها نفسى هذا السؤال ! فى نيتى أن أكون هادئة كل الهدوء . انى لا أنوى العودة الى الماضى لقد قبلت ـ قبلت كل شىء شاكرة ـ .. فقط الليلة ـ الليلة فقط .»

وشعرت ديليا بغمرة العطف التى تسيطر دائما على أحاسيسها كلما جلست الى شارلوت لوفيل تتبادل واياها الآراء وتناقشها فى الحقائق ، وامتلأت حنجرتها بالدموع وظلت ساكتة .

واختتمت شارلوت حديثها بهذه الجملة « الليلة فقط ! أنا أمها .. » ... فقالت ديليا فى رحمة وأسف !

« شارلوت ! لن تخبريها بذلك ـ ليس الآن ؟ » وخرجت من فمها هذه الجملة على غير ارادتها ..

وضحكت شارلوت ضحكة واهنة وقالت « واذا فعلت فهل تكرهين ماأقول كل هذا الكره؟»

ـ « أكره ؟ يا لها من كلمة لا تليق بيننا ! »

ـ « ولكنها الكلمة التى ظلت بيننا منذ البداية ... منذ اليوم الذى اكتشفت فيه ان كلبمنت سبندر لم يحطم قلبه حين لم يكن

كفؤا لك .. منذ أن ثارت لنفسك بوضعى تحت رحمتك وبانتزاع طفلته منى . . ! وهكذا خرجت كلمات شارلوت نارية ملتهبة كأنها مقذوفة من أعماق الجحيم ، ثم همدت النار فانحدر رأسها على صدرها ... ووقفت وقد انعقد لسانها أمام ديليا

فلم تملك ديليا نفسها الا أن تعود بذاكرتها الى الوراء فى حنق ، فبينما كانت نفسها تجيش بالرقة والشفقة وبالرغبة فى المساعدة والشعور بروح الصداقة كانت هذه السحب القاتمة تتجمع فى صدر الشخص الآخر كأنها دخان سام قد هب على منظر رائق فى يوم صيف .

وفى العادة كان يعقب مثل هذه الاحساسات شعور سريع بالعطف ، ولكنها الآن لم تشعر بشىء من هذا ، لقد تملكها اعياء شامل .

ثم قالت فى بطء : « أجل فى بعض الاحايين أعتقد أنك كرهتنى من البداية ، كرهتنى لكل شىء حاولت أن أقوم به من أجلك »

ورفعت شارلوت رأسها فى حدة وقالت : « تقومين به من أجلى ؟ ولكن كل شىء فعلته ! كان من أجل كليمنت سبندر ! »

فحملقت فيها ديليا بنوع من الرعب قائلة : « أنت مخيفة يا شارلوت . أقسم مافكرت فى كليمنت سبندر منذ سنوات » .

فقالت شارلوت : « آه ولكنك فكرت .. فكرت ! لقد فكرت فيه دائما وذلك بتفكيرك فى تينا .. لقد فكرت فيه ، وليس فى أى انسان آخر .. ان المرأة لاتنقطع عن التفكير فى الرجل الذى تحبه .. انها تفكر فيه لعدة سنوات لاحقة بكل الأساليب اللاشعورية .. وذلك بالتفكير فى أمور مختلفة متباينة ـ فى الكتب والصور وغروب الشمس ، وبالتفكير فى زهرة أو شريط ـ أو فى ساعة على رف المدفأة .. » . ثم أضافت وهى تضحك فى خبث : « هذا ما قامرت عليه . هذا هو السبب فى مجيئى اليك فى ذلك اليوم .. كنت أعرف أننى بذلك أهب تينا أما أخرى .. »

مرة أخرى أخذ الدخان السام يحوط ديليا .. انهما امرأتان مسنتان ذاويتان تقفان أمام المذبح في يوم زفاف تينا وتتحدثان عن الكره ! لقد بدا هذا عملا كريها شائنا فلم يسع ديليا الا ان تصرخ قائلة : « انت امرأة شريرة ـ أنت شريرة »

ثم انجلت السحابة القاتمة ورأت الوجه الكسير المبتئس للأم التى لم تكن أما والتى هى فى مقابل كل خير أصابها أحست بأن حقا من حقوقها قد اغتصب منها ... فاقتربت من شارلوت ووضعت يدها على ذراعها . وقالت :

ـ « ليس المجال لهذا الكلام . لا يليق أن نتكلم فى هذا المكان . »

فجفلت الاخرى وقالت : « فى أى مكان تشائين فلا يهمنى المكان ! »

ـ « ولكن ليلتنا هذه يا شارلوت هى الليلة التى تسبق زواج تينا ؟ أليس كل جزء من هذا البيت ممتلئا بها ؟

وصمتت شارلوت ، واستمرت ديليا تتكلم بصوت أكثر ثباتا: « ما من شيء تقولينه يمكن أن يؤذينى لفترة طويلة ، كما اننى لا أريد أن ألحق بك أذى ، وما فعلت ذلك قط » .

ـ « تقولين ذلك وأنت التى ما تركت وسيلة الا توسلت بها لابعادى عن ابنتى ! هل تظنين انه كان من السهل على أن أسمعها وهى تدعوك « يا أمى » ؟ اننا اتفقنا على ألا نجعلها تظن الظنون .. ولكن لو لم تقفى على الدوام بيننا ما كانت تجد أحدا سواى وكان لا بد لها أن تحس نحوى بنفس الشعور الذى يحسه كل طفل نحو أمه ، كان لابد لها أن تحبنى أكثر من اى انسان آخر . فعلى الرغم من كل كرمك وسخائك قد انتهيت بسرقة طفلتى ، ولقد تحملت ذلك من أجلها فقط ـ لانه كان أمرا لابد منه ، ولكنها فى هذه الليلة تخصنى وحدى فلا أتحمل أن تدعوك يا أمى .. »

ولم تحر ديليا رولستون جوابا سريعا .. خيل اليها أنها قد مست لأول مرة أعمق أعماق عاطفة الأمومة فى نفس شارلوت ،

فوقفت مشدوهة لما يصدر عنهامن أصداء داوية ...

غمغمت تقول : «لابد أن حبك الشديد لها هو الذى حملك على أن تقولى هـذه الـكلمات » ثم استمرت باذلة مجهودا أخيرا:

ـ « نعم !أنت على حق ولن أصعد اليها فأنت التى يجب أن تصعد.»

واتجهت شـارلوت اليهـا بحركة تلقائية ، ولـكن ديليـا خرجت الى الشرفة رافعـه يدها كما لو كانت تدافـع عن نفسها ، وبينما هى تغوص فى كرسيها سمعت باب غرفة الجلوس يفتح ثم يغلق وصـوت قدمى شارلوت على السلم .

جلست ديليا وحيدة فى ظلام الليل ، ولقد ضاعت آخر قطرة من شهامتها ، وحاولت أن تثنى عقلها المذعور عن التفكير فى شارلوت. ماذا يحدث فى هذه اللحظة فى الطابق العـلوى ؟ وأى أسرار مزعجة ستزيل كل أثر لأحـلام تينا فى ليلة عرسها؟ والآن ليس هذا بالأمر الذى يخضع للحدس والتخمين ،فهاهى ديليا رولستون قد قامت بواجبها وبذلت كل ما فى وسعها ولم يتبق شىء الآن سوى أن ترفع روحها المعنوية فوق شعورها الممض بالفشل .

كان هنالك عنصر غريب من الصدق فى بعض ما قالته شارلوت، فما أغرب ما زودتها به عاطفة الأمومة من نظر ثاقب وقدرة عـلى اكتناه الامور ... لقد أمدتهـا الغيرة بملايين الاعضاء الحساسـة ... نعم كان حقا أن الليلة السابقة لعرس تينـا قد امتلأت على رقتها وهدوئها برؤى ماضى ديليا، تلك الرؤى التى لم تتحقق ... وفى هدوء ودون أن تدرى ،مالت بها هـذه الأحلام نحو ذكرى ما فاتها ، فطوال هذه الايام الاخيرة كانت تحيا ، فى حيـاة الفتاة ، فكانت هى تينا وكانت تينـا رمزا لشبابهـا وعلما على ديليا لوفيل التى عاشت فيما ذهب من الأيام ..والآن وللمرة الأولى تستطيع ديليا أن تستسلم لرؤيا هذا الحب المحرم الذى طالما جفل منه خيالها دون خجل أو شعور بالذنب ودون عـذاب أو شـكوك .. لقد اختـارت فى شبابها تقرير مصـيرها وفى سنوات النضج قبلت هذا المصير والآن تجد فى فرحة هذا الزوج ، التى تحس أنها فرحتهـا هى ،تعويضا لها عن كل ما فاتها .

أدركت ديليا فى هذه اللحظة أن شارلوت قد عرفت كل هذا ، فامتلأت حنقا شديدا... قالت شارلوت منـذ وقت طويل ان

كليمنت سبندر لم يكن على وجه التحقيق لها قط ، والآن لاحظت نفس الشيء فيما يختص بطفلة كليمنت سبندر ... وبينما الحقيقة تشرق على ديليا فى هدوء ذاب قلبها بتأثير عطفها القديم على شارلوت ، ورأت أن التدخل فى أقدار شخص آخر أو المساس بحقه فى الحب أو فى العذاب على طريقته فى سبيل الحب ، انما هو جرم فظيع وانتهاك لحرمات مقدسة ... ولقد تدخلت ديليا مرتين فى حياة شارلوت لوفيل فكان من الطبيعى أن تراها شارلوت لدغوها اللدود ، ليتها لا تثأر لنفسها عن طريق ايذاء تينا.

وارتدت أفكار الأم المتبنية فى ألم الى الغرفة البيضاء الصغيرة فى أعلى المنزل ... كان فى نيتها أن يكون الوقت القصير الذى تقضيه مع تينا باعثا لها على أفكار زكية الرائحة لها عطر الورود التى ستقع عليها عينا تينا عند استيقاظها من النوم ، أما الآن.. وهبت ديليا من أفكارها على وقع أقدام على السلم ، وكانت شارلوت تهبط سلم البيت الصامت، ووقفت ديليا وبها رغبة غامضة فى الهرب .. لقد أحست بعجزها عن النظر فى عينى ابنة عمها ، فدلفت الى ركن من الشرفة وهى تأمل فى أن تجد عوارض باب غرفة الطعام مفتوحة فتتسلل منها الى غرفتها دون أن يراها أحد ، ولكنها فى لحظة أصبحت أمام شارلوت

ـ « ديليا ! »

ـ « آه هذا أنت ؟ كنت على وشك الصعود للنوم »

ـ « نعم ! ان الوقت متأخر الآن. لابد أن تكونى فى غاية التعب» وتوقفت شارلوت عن الكلام وكان صوتها متوترا ومملوءا ألما ..

قالت ديليا مؤمنة على كلامها« انى منهكة »

وفى سكون الليل الذى أضاءته أشعة القصر أقبلت نحوها شارلوت ووضعت يدا مرتعشة على ذراعها وقالت : « لن تذهبى قبل أن ترى تينا »

وأجابت ديليا بحدة : « تينا ؟ ولكن الوقت متأخر الآن !أليست نائمة ؟ ظننت أنك ستبقين معها حتى .. »

ـ « لا أدرى اذا كانت نائمة أولا » وتوقفت شارلوت عن الكلام ثم قالت : اننى لم ادخل ـ ولكن رأيت ضوءا تحت بابها »

ـ « لم تدخلى ؟ »

ـ « لا وقفت فقط فى الممر وحاولت »

ـ « حاولت ؟ »

ـ « حاولت أن أفكر فى شىء ... شىء أقوله لها دون أن .. تحزر .. » ومنعتها من الكلام شهقة ، ولكنها تحاملت على نفسها وبذلت مجهودا أخيرا ...

ـ « لا فائدة ... لقد كنت على صواب : ليس عندى ما أستطيع قوله . أنت أمها الحقيقية . اذهبى اليها ... ليست الخطيئة منى ولا منك .. »

فبكت ديليا وتشبثت شارلوت بها فى ذلة غير واضحة وقالت: « قلت اننى شريرة ـ أنا لست شريرة على كل حال ... كانت ملكى عندما كانت صغيرة ! »

ووضعت ديليا ذراعها حول كتفها وقالت: « أسكتى ياعزيزتى ! سوف نذهب اليها سويا .. »

وخضعت الأخرى دون تفكير فارتقت المرأتان السلم جنبا الى جنب، وأخذت شارلوت توفق بين خطوتها السريعة وحركات ديليا الثقيلة ، وسارا فى الممر حتى باب تينا ، فلما وصلا اليه توقفت شارلوت لوفيل وهزت رأسها ... وهمست :

ـ « لا ـ أنت » وقفلت راجعة ...

رقدت تينا فى فراشها وقد طوت ذراعيها تحت رأسها ، وانعكس على عينيها ضوء السماء الفضى الذى امتلأت به النافذة وابتسمت لديليا خلال حلمها ..

ـ « كنت أعرف أنك ستجيئين ... »

وجلست ديليا بجوارها وأستقرت يداهما المتشابكتان على

الغطاء، ولم يتكلما كثيرا فليس اندماجهما فى حاجة الى الالفاظ ... وما عرفت ديليا قط كم من الزمن أمضته بجوار الصبية فلقد استسلمت لسحر القمر .

ولكنها فجأة تذكرت أن شارلوت وحيدة خلف باب غرفتها المغلق ترقب وتقاوم وتصغى، ولابد لديليا حرصا على راحتها أن تضع حدا لهذه اليقظة الفاجعة، فأنحنت لتقبل تيناقبلة الوداع ، ثم توقفت عند مدخل الغرفة ونظرت خلفها وقالت: « ياعزيزتى! شىء واحد أخير »

فغمغمت وهى شبه حالمة : « نعم ؟»

ـ « أريد منك أن تعدينى »

ـ « أى شىء .. ! أى شىء يا أمى الحبيبة .. ! »

ـ « حسنا .. اذن عدينى بأنك عندما ترحلين غدا ـ فى آخر لحظة ، هل تفهمينني ؟ »

ـ « نعم ثم ماذا ؟»

ـ « بعد أن تودعينى وتودعى كل فرد آخر ـ فى اللحظة التى يعاونك فيها « لاننج » على ركوب العربة »

ـ « ثم ماذا ؟»

ـ « عدينى بأن تعطى قبلتك الأخيرة لخالتك شارلوت ... اياك أن تنسى آخر قبلة ...»

(انتهت)

[redacted]

وارتون

ضريبة الحب

DATE	Borrower's Number	DATE	Borrower's Number

[redacted]
محمود ،حسن
ضريبة الحب (وغرام عانس)
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01030277

American University of Beirut

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT

[redacted]

General Library